

صالح هوّاش المسلط

دار المكتبي


دولة الجبور

الطبعة الأولى

2014-1435





www.almaktabi.com

دمشق . القاهرة . الشارقة

دمشق هاتف: 00963112248433 فاكس: 00963112248432 ص.ب: 31426

الشارقة هاتف: 0097165512262 فاكس: 0097165512264 ص.ب: 3309

Email: almaktabi@gmail.com

www.almaktabi.com

إمارة الجبور

أو

الإمارة الجبرية

في نجد وشرق الجزيرة العربية

ما بين ٨٢٠هـ / ١٤١٧م - ٩٣١هـ / ١٩٢٥م

صالح هوّاش المسلط الجبوري

دار المكتبي

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

يلاحظ المتتبع لما كتب عن تاريخ شرق الجزيرة العربية ، أن الدارسين لتاريخها يتجاهلون الدور الذي كانت تلعبه بعض القوى ، والزعامات القبلية في صنع أحداثها ، على الرغم من أن بعض هذه الأدوار كانت في بعض الأحيان رئيسة إن لم تكن حاسمة . إن هذا التجاهل لهذه القوى ينقص الصورة الدقيقة لتاريخ المنطقة ، وهو يعزى أساساً إلى افتقار هؤلاء الباحثين إلى معرفة الخلفيات التاريخية لبعض هذه القوى والزعامات .

إن الجبور ، وهم فخذ من قبيلة السلطان جبر بن عامر ، تولوا الزعامة السياسية في شرق الجزيرة العربية خلفاً للعصفوريين ، وكانوا من بين القوى التي لاحظنا تجاهل الباحثين لدورهم . وحيث إنه قد سبق لنا أن كتبنا عن تاريخ إمارة الجبور في نجد وشرق الجزيرة العربية منذ ظهورها حتى سقوطها[1]؛ لذا كان علينا أن ننهض بمهمة متابعة الدور الذي أخذوا يلعبونه في الأحداث بعد زوال سلطتهم السياسية؛ لاعتقادنا أن الكتابة عنه سوف تساعد إلى حد كبير على استيفاء الصورة الكاملة لسير الأحداث في شرق الجزيرة العربية ، والدور الذي كانت تنهض به كل قوة في دفع عجلتها وصنعها ، على أننا نستدرك ونقول : إنه ليس من مهمتنا في بحثنا هذا إعادة كتابة تاريخ المنطقة ، خلال الفترة التي سوف نمر بها ، بل سوف يكون هدفنا منصباً أساساً على متابعة نشاط الجبور خلالها ، مع الوقوف وقفات قصيرة عند بعض الأحداث ، كلما اقتضى الأمر ذلك .

---

(١) «التاريخ السياسي لإمارة الجبور» في نجد وشرق الجزيرة العربية ، ٨٢٠هـ/١٤١٧م - ٩٣١هـ/ ١٥٢٥م. مجلة كلية الآداب ـ العدد ١٦ (١٩٨٠م) ٣١ـ١٠٩.

سيرة السلطان جبر

السلطان جبر من سلاطين (اليمن السعيد في زبيد) ولد عام ١٢٦٠ م ، في وادي شمائل في زبيد ، وتوفي سنة ١٣٤٥ م ، قيل: إنه دفن في النجف ، وفي قول آخر: إنه دفن في منطقة السفيرة التابعة لمحافظة حلب في سورية. والدة السلطان جبر هي (هبرة بنت قرطباب بنت قوتادة الحسيني) وقيل: إنه من الأشراف ، وقد بزغ فجر السلطان جبر ، ولمع نجمه قبيل العهد العثماني ، وقيل: في العهد المملوكي؛ إذ بسط نفوذه وسلطته إلى عدة مدن ، ومناطق وقرى ، حتى تعدت حدوده اليمن ، فشملت (وادي الدواسر إلى تيماء حيث مكان بئر هداج).

نسب السلطان جبر

نسب السلطان جبر ، كما بينه وأورده العالم الجليل بعلم النسب ، والمرجع الفريد ، والشاعر الكبير الأمير جلود الصليبي رحمه الله ، يقول: (السلطان جبر هو السلطان جبر بن سلطان ، بن ناصر ، بن علي ، بن إبراهيم ، بن هجر ، بن محمد ، بن علي ، بن مكتوب ، بن بهيج) ، وهناك بعض النسَّابة في علم النسب يقولون: السلطان جبر هو (جبر بن محجوب بن صهيب بن كهيب بن محمد بن علي بن عبد الله بن عمر بن معد يكرب بن زبيد الأصغر بن منبه بن ربيعة بن سلمى بن مازن بن ربيعة الأكبر بن زبيد الأكبر بن منبه بن صعب بن مذحج بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان).

بطاقة شكر إلى

دولة رئيس مجلس الشعب اليمني الشيخ : **عبد الله حسين الأحمر** :

على المعلومات القيمة والهامة؛ التي أدلى بها إلى الشيخ : عبد العزيز المسلط - شيخ قبائل الجبور - حول جذور الجبور ، وتواجد دولتهم في شرق الجزيرة العربية .

بطاقة شكر إلى

علامة الجزيرة العربية سعادة الشيخ : حمد الجاسر ، وذلك لمؤلفاته القيمة؛ التي تحدث فيها عن تواجد وجذور دولة الجبور في شرق الجزيرة العربية .

بطاقة شكر إلى

الباحث الدكتور : **عبد اللطيف بن ناصر الحميدان** : أستاذ الأجيال ، والمربي الأصيل .

أتقدم من الباحث الأكاديمي ، الدكتور : **عبد اللطيف بن ناصر الحميدان**؛ الذي أمد شرايين الأجيال بنسغ الحياة الحرة الكريمة الممزوجة بحب الأوطان والعروبة والإسلام .

حيث أمدهم بالفكر ، وحب التراث ، والتاريخ ، لينير أمامهم دروب الاجتهاد ، والسير على نهج أصالة الأقدمين؛ الذين ملؤوها بقوة الشكيمة ، وحصنوها بالعزيمة؛ كي تتدارسها الأجيال جيلاً بعد جيل ، تاريخاً وتراثاً أصيلاً على يد أبنائها البررة أمثال المذكورين أعلاه ، وخاصة ما أفادنا به

الدكتور **عبد اللطيف بن ناصر الحميدان** عن دولة الجبور في محاضرته القيمة في جامعة البصرة؛ الذي أفادنا نحن المتلمسين للبحث عن الحقيقة من بعده ، ولنقلها بكل دقة وأمانة علمية للأجيال اللاحقة .

لهذا ، ولأكثر من هذا أرفع بطاقات شكر وعرفان لهم جميعاً ، أمد الله في أعمارهم ذخراً للأمتين العربية والإسلامية ، وجزاهم الله عنا كل الخير ، والتوفيق للصواب .

المُعد

صالح هواش مسلط آل ملحم الجبوري

قيام الدولة الجبرية في نجد وشرق الجزيرة العربية

٨٢٠ هـ/١٤١٧ م - ٩٣١ هـ/١٥٢٥ م

توطئة:

بعد ما يزيد على ربع القرن من اختفاء إمارة العصفوريين العامرية؛ التي سبق أن بحثناها؛ نجحت قبائل بني عامر (الجبور) مرة ثانية في بسط سلطانها على مناطق واسعة من نجد وشرق الجزيرة العربية، بزعامة أسرة تنتمي إلى جدها الكبير «السلطان جبر» فعرفوا ببني جبر، أو الجبور.

وعندما طرق البرتغاليون بسفنهم لأول مرة مياه الخليج في مطلع القرن العاشر / السادس عشر، لفت انتباههم النفوذ الواسع والقوة الضاربة التي قد حازها الجبور، فتحدثوا عنهم في تقاريرهم بكثير من الاحترام الممزوج بالرهبة والخوف - وحين اطلع مايلز Miles على بعض ما كتبه البرتغاليون علق على ذلك بقوله: إنه ليبدو حقاً بأن بني جبر مرعبون إلى حد كبير، وإن أمرهم قد بقي حتى الآن لغزاً لم يحل[1]. والواقع أن مايلز لو حاول أن يجهد نفسه في البحث والتنقيب في المصادر المختلفة، لاتضح له بأن أمر بني جبر ليس باللغز؛ الذي يصعب فك بعض طلاسمه، فمنذ الخمسينيات من هذا القرن والمحاولات تبذل للكشف عن تاريخ بني جبر، وتعود أسبق هذه المحاولات للمستشرق الألماني المعروف كاسكل Cskel الذي قام / ١٩٤٩ م/ بنشر بحث قصير عن شرق الجزيرة العربية بعنوان «أسرة حاكمة مجهولة في بلاد العرب» وهو استعراض عام وسريع لبعض المعالم البارزة في تاريخ شرق الجزيرة،

---

(١) werner caskel, «eine unbekannte» dynastic in Arabien, Orien, (Leiden), (1949), 2\1, 66-71 Caskel.

سيرد هذا المصدر بعد ذلك مختصراً.

وقد أتى فيه على ذكر الجبور ، والسلكانيين «أجود» و«مقرن» . وفضلاً عن المصادر البرتغالية ، فقد اعتمد على ما ورد عنهم في المصادر العربية ، وبخاصة ما ورد عند السمهوري ، وابن بشر .

إن هذا البحث على قصره وعموميته ، احتوى على بعض المعلومات والملاحظات المفيدة[1] - وقد أعقب كاسكل بقليل الشيخ محمد العبد القادر ؛ الذي خص الجبور بصفحتين من كتابه المكرس أصلاً لتاريخ الأحساء منذ القديم حتى العصر الحديث - وبالرغم من أن المؤلف اتبع الأسلوب التقليدي في عرض مادته ، فإنه قدم لنا مادة أولية أصيلة لم يسبقه إليها أحد ، بحيث جعل من غير الممكن لباحث في تاريخ شرق الجزيرة العربية أن يتجاهل هذا المصدر القيم الجليل ؛ الذي كان قد نهض به الشيخ محمد العبد القادر[2] .

ثم جاء دور الشيخ حمد الجاسر ، فتناول النصوص التي أوردها الشيخ محمد العبد القادر في كتابه المذكور ، وأضاف إليها ما في حوزته من مادة جديدة ، فكتب بحثاً عن الدولة الجبرية في الأحساء يمكن أن يوصف بأنه أول محاولة لعرض تاريخ الجبور ، بأسلوب جديد ، فكان علامة مضيئة في هذا الطريق[3] .

إن آخر ما يمكن أن يشار إليه في هذا الصدد هو البحث الذي نشره المستشرق الفرنسي جان أوبين Jen ubin عام ١٩٧٣ م بعنوان «مملكة هرموز في مطلع القرن السادس عشر» ، وعلى الرغم من أن هذا البحث مكرس أساساً

---

(١) محمد بن عبد الله العبد القادر ، تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد ، القسم الأول ، (الرياض ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م) ، ١٢٠ - ١٢١ . سوف يرد هذا المصدر مختصراً بعد ذلك باسم «تحفة المستفيد» .

(٢) حمد الجاسر ، «الدولة الجبرية في الأحساء» ، مجلة العرب ، جـ ٧ . السنة الأولى ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م الرياض ، ٦٠١ - ٦١٠ ، ٦٢٠ . سيرد هذا المصدر بعد ذلك مختصراً ، باسم «الدولة الجبرية» .

(٣) Jean Aubin, «Le Royaume D» Ormuz De but du Xvle Siecle, in Mare Luso - Indicum, 11 (1973), 77 - 179.
سوف يرد هذا المصدر مختصراً بعد ذلك باسم Le Royaume

لتاريخ مملكة هرموز ، إلا أنه ضم معلومات مفيدة عن طبيعة العلاقة بين إمارة الجبور ، وملوك هرموز[1] .

وهنا لا بد أن نشير إلى أننا قد تعمدنا عدم الإشارة إلى الجهد الذي قام به مايلز بالكتابة عن تاريخ الخليج ، وسبق هؤلاء جميعاً ؛ لأن ما أورده عن الجبور قد جاء في السياق العام ، وذلك عند حديثه عن البرتغاليين ، ولم يخصص جزءاً من كتابه للحديث عنهم - وعلى الرغم من ذلك ، فإنه كان أول من انتبه إلى أهمية دورهم ، معتمداً في ذلك على تقارير البرتغاليين المنشورة فقط - وكذلك تجاهلنا ذكر جورج ستريبلنك Stibling الذي خصص لهم في أطروحته «الأتراك العثمانيون والعرب ١٥١١ - ١٥٧٤م» حيزاً ضيقاً لم يتجاوز الأربعة أسطر ؛ لأن ما ذكره هو مستمد من مدونات البوكرك فقط .

ومهما يكن من أمر ، فإن هؤلاء الباحثين الذين أشرنا إليهم لم يكن من بينهم من استوعب المصادر كافة ، عربية كانت أم غير عربية ، ووضع تاريخ الجبور ضمن الإطار العام لتاريخ الخليج العربي والجزيرة ، وبنظرة شمولية ؛ لذا كان لا بد من إعادة النظر فيما طرح من مادة ، وإضافة ما هو جديد إليها ، وعرضها بطريقة ملائمة تتناسب والدور الذي لعبه الجبور في تاريخ الجزيرة العربية .

---

(١) لقد صدرت الطبعة الأولى من كتاب مايلز عام ١٩١٩م Miles, Op. cit .
G.W.F. Stripling. The Ottoman Turks and Arabs. 1511 - 74, Urban, 1942, P. 25.
إن ممن كتبوا عن تاريخ الخليج العربي ، ولم نشر إليه في توطئة بحثنا هو المؤرخ الإيراني عباس إقبال الذي ألف «مطالعاتي درباب بحرين وجزاير وسواحل خليج فارس» ونشره في طهران عام ١٣٢٨هـ شمسي ١٩٤٩م . وكان في كتابه هذا متحيزاً مندفعاً إلى حد مؤسف ، فرسم صورة ناقصة لتاريخ الخليج العربي ، وذلك بإسقاط دور العرب في الحياة السياسية للخليج ، وتشويه القليل الذي ذكره .
لقد تجاهل عباس إقبال تجاهلاً كاملاً - وعن عمد - وجود أي كيان سياسي للعرب على امتداد شرق الجزيرة العربية ممثلاً بإمارة الجبور ، كما تجاهل قبل فترتنا هذه الوجود السياسي لإمارتي العصفوريين والجروانيين اللتين وجدتا في المنطقة ، ومن الواضح أنه كان يهدف بذلك إلى توفير الغطاء التاريخي للادعاءات السياسية لإيران ، في بعض المناطق من الخليج العربي .

إن دراستنا هذه تأتي ضمن هدف طموح لكتابة تاريخ حوض الخليج العربي في العصر الوسيط المتأخر - تلك الفترة التي عرفت بغموضها ، وقلة مصادرها - ولقد بذلنا ما في الطاقة لاستقصاء مختلف المصادر ، مستفيدين من الفاضلين محمد العبد القادر وحمد الجاسر ، راجين بأن تكون هذه الدراسة جهداً مضافاً إلى جهودهما من أجل سد الثغرة الواسعة في معرفتنا التاريخية ، عن نجد وشرق الجزيرة العربية خاصة ، والخليج العربي عامة ، خلال هذه الفترة.

على أننا قد نؤاخذ على تجرئنا على نقد بعض النصوص والآراء ، ومحاولة تفنيدها والتشكيك بها. والواقع أننا قد اضطررنا في أحيان كثيرة إلى اتباع الأسلوب النقدي؛ نظراً لأن ما طرح حتى الآن ، من مادة ، يفتقر للتمحيص والتدقيق ، يضاف إلى افتقارنا إلى مصدر أساس يمكن الركون إليه عن هذه الفترة.

على أن افتراضاتنا واعتراضاتنا لم تكن تبتعد كثيراً عن طبيعة ما يمكن أن يقع في هذه المنطقة من أحداث ، وما يقتضيه منطق الأمور ، كما أننا في كل ما ذهبنا إليه نعتمد على المقارنة والاستنتاج ، ضمن تصور يعتمد على التأمل الطويل في الأحداث التاريخية ، والبحث عن أوجه التشابه فيها ، مدركين بأننا سوف نجد من يخالفنا في بعض ما ذهبنا إليه ، لكن فرحنا سوف يكون كبيراً عندما نجد المخالفين يطرحون ما في حوزتهم من معلومات ما زلنا نجهلها حتى الآن ، تاركين للمختصين تقدير الجهد المبذول في هذا البحث.

* * *

شرق الجزيرة في أعقاب سقوط العصفوريين

من المفيد أن نذكِّر القارئ بما سبق أن قلناه عن الظروف التي كانت قد أحاطت بالعصفوريين ، وذلك في بحثنا عن إمارة العصفوريين[١]؛ إذ إن الشقاق والنزاع كان سائداً بين أمرائهم منذ القرن الثامن / الرابع عشر ، الأمر الذي نتج عنه تجزئة إمارتهم ، وتعدد ظهور الزعامات المتناحرة؛ مما أدى في النهاية إلى زوال إمارتهم على يد سعيد بن مغامس بن سليمان بن رميثة؛ الذي لم تطل فترة حكمه؛ إذ سقط على يد الزعيم الأحسائي جروان المالكي.

على أن بني عصفور خاصة ، وبني عامر (الجبور) عامة ، وقد فقدوا سلطانهم السياسي ، ظلوا يحتفظون في كل من نجد وشرق الجزيرة العربية بنفوذهم الاقتصادي الواسع ، ولعل أوضح دليل على ذلك أن قوافل الحجاج القادمة من جنوب إيران ، وجنوب العراق ، وسواحل الخليج العربي كان يتولى قيادتها وحراسها بنو عامر ، وكثيراً ما أطلق على هذه القافلة اسم: قافلة عقيل. ولقد بقي إطلاق هذه التسمية ، على هذه القوافل حتى عهد قريب ، الأمر الذي يحملنا على الظن بأن هذه التسمية قد أصبحت تطلق على هذه القوافل «كعلامة تجارية» أكثر من كون هذه التسمية تعني: انتساباً قبلياً[٢].

---

(١) انظر: د. عبد اللطيف الناصر الحميدان ، إمارة العصفورين ودورها السياسي في تاريخ شرق الجزيرة العربية ، مجلة الآداب / جامعة البصرة ، ١٥ (١٩٧٩م) ، ٧٩ ، ١٤٠. وسوف يرد هذا المصدر مختصراً بعد ذلك باسم «إمارة العصفورين».

(٢) منذ القرن السادس / الثاني عشر حتى عصر قريب أصبحت قيادة القوافل وحراستها في داخل الجزيرة وأطرافها احتكاراً لجماعات تنتسب لبني عقيل ، إما بصلة النسب الصريح ، أو بالولاء ، أو بادعاء الانتماء لهذه القبيلة. والذي يبدو لنا بأن اتساع هذا النشاط واستمراره واشتهار بعض بطون عقيل في التخصص فيه ، وبروز قابلياته العسكرية ، والقيادية ، والتجارية في هذا الميدان قد أدت إلى إطلاق اسم «عقيل» أو عقيلي على الأفراد والجماعات=

والواقع أن قوة قبيلة بني عامر (الجبور) العقيلية ، وشجاعة رجالها ، ومهارتهم السياسية والتجارية قد حققت لهم احتكار قيادة القوافل منذ القرن الثالث عشر ، ولقرون طويلة ، فاحتلت في نجد وشرق الجزيرة العربية ، وأطرافها دوراً يذكرنا بالدور الذي كانت تلعبه قريش في غرب الجزيرة ، وأطرافها قبل الإسلام.

على أنه يجدر بنا ، ونحن نشير إلى القوافل التجارية ، أن نلفت الانتباه إلى أن ما كان يقوم به بنو عامر من قيادة وخفارة للقوافل ، وما يتقاضونه عن ذلك من رسوم ، يجب أن لا ينظر إليه على أنه عمل من أعمال السلب والنهب ، كالذي تمارسه بعض الجماعات البدوية غير المنضبطة ، بل يعتبر ضرباً من ضروب النشاط الاقتصادي؛ إذ بدونه لا يمكن أن نتوقع وجود نشاط تجاري واقتصادي هام في تلك البقاع وضمن تلك الظروف. ولقد أورد لنا السخاوي (ت ٩٠٢ هـ/ ١٤٩٧ م) ذكر قافلتين كان يقودهما بنو عامر في الفترة التي أعقبت زوال سلطتهم السياسية ـ القافلة الأولى كانت عام ٨١١هـ/ ١٤٠٨م ـ ذكرها السخاوي عندما ترجم لجليل بن محمد الأقفهسي الأشقر ، حيث قال:

«إنه قد سافر من الحجاز إلى الحسا والقطيف بصحبة قافلة عقيل» ـ أما الثانية فكانت عام ٨٢٣ هـ/ ١٤٢٠ م ، ذكرها السخاوي عندما ترجم لمحمد بن محمد أبي الخير العمري المعروف بابن الجزري[1].

ويبدو لنا أن بطون بني عامر (الجبور) كانت تراقب الوضع في بلاد البحرين عن كثب ، وتتحين الفرصة المناسبة؛ لاسترجاع نفوذها السياسي السابق ـ ومن المحتمل أن الأسرة التي كانت تحتكر قيادة قوافل الحجيج من بينهم ، أن تكون الأقدر على استرجاع ذلك النفوذ بما لديها من قوة اقتصادية ومن أَتْباع ، وعبيد ، وأجراء ، كانوا يستخدمون في حراسة القوافل ، إضافة إلى وجود

= التي تمارس مثل هذا النشاط، على الرغم من عدم وضوح صلتها القبلية بعقيل، وما كان هذا يحدث لولا أن اسم عقيل أصبح يمثل ما يشبه «العلامة التجارية» الرائجة في هذا المجال.

(١) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، (منشورات مكتبة الحياة ، بيروت ، ب.ت) ، ٣/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣، ٩/ ٢٥٦ ـ ٥٧.

صلات قوية لها بقبائل كثيرة ، بحكم ما تمارسه من نشاط. على أنه يجب علينا أن لا نتصور بأن الشقاق الذي كان قد وقع بين زعماء العصفوريين قد دمر الكيان الاجتماعي لبني عامر (الجبور)؛ إذ لا بد أنها قد بقيت تعترف برابطة واحدة هي رابطة النسب الأكبر ، أياً كان مستواها الاقتصادي والاجتماعي. ومهما يكن من أمر ، فإنه من اللازم علينا أن نبدي اختلافنا مع ما ذهب إليه الشيخ حمد الجاسر من أن هناك صلة قرابة بين الشيخ زامل بن جبر ، مؤسس إمارة الجبور وبين قريش (قرشي) الذي قام عام ٧٨٥ هـ/ ١٣٨٣ م ـ ١٣٨٤م بارتكاب مجزرة ضد حجاج شيراز والبصرة والحسا ، ونهب ما كانت تحمله قوافلهم من أموال عظيمة ، ثم ما قام به من اعتراض لطريق الحجاج العراقيين ، وإرغامهم على دفع مبالغ كبيرة له[1].

والذي يبدو لنا أن الشيخ الجاسر يميل إلى الاعتقاد بأن قريشاً هذا ما هو إلا أخ لزامل بن جبر ، وأن ظهور نشاطه يمثل مقدمات لظهور نفوذ الجبور ، وفي رأينا أن الذي أوقع الشيخ الجاسر في هذا الاعتقاد؛ هو اعتماده على مصدر واحد ، وهو رواية الجزيري فقط ، فلو أنه رجع إلى مصادر أخرى ككتاب المقريزي أو الصيرفي أو غيرهم ، لتراجع عن اعتقاده هذا.

والواقع أن (قريشاً) هذا ما هو إلا أحد أفراد أسرة آل مهنا؛ التي تتزعم قبائل طيئ ، ومن ينطوي تحت لوائها من عشائر في كل من العراق والشام. إن المصادر لم تذكر اسم والد قريش ، بل اكتفت بذكر اسم عمه زامل بن موسى بن مهنا بن عيسى نظراً لشهرته الواسعة؛ إذ تولى إمرة عرب بادية الشام مرتين الأولى عام ٧٧٠ هـ/ ١٣٦٨ ـ ١٣٦٩م والثانية ٧٨١ هـ/ ١٣٧٩ ـ ١٣٨٠م.

(١) المقريزي (ت ٨٥٤هـ/ ١٤٤١م) ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، (القاهرة ١٩٧٠) ، ج٣ ق٢ ، ٥٠٩ ، الصيرفي (توفي في نهاية ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م) ، نزهة النفوس والإبداع في تواريخ الزمان ، (القاهرة ١٩٧٠م) ، ١/ ٨٧. عبد القادر الجزيري (ت ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م) درر الفوائد (الفرائد) المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة (القاهرة ١٣٨٤هـ) ٣١٢.

ولزامل هذا أخوان هما عمر ومحمد ، ولا ندري أي هؤلاء الاثنين هو والد قريش[1].

ومهما يكن من أمر ، فإن حادثة الهجوم على قوافل حجاج العراق وإيران والحسا ، لا يمكن فهمها إلا من خلال التعرف على علاقة زعماء قبائل طيئ بعضهم ببعض من جهة ، ثم علاقتهم بكل من الدولتين المملوكية والجلايرية من جهة أخرى ، وكذلك الأوضاع الداخلية في هاتين الدولتين في حدود هذه الفترة ، إلا أن ذلك سوف يخرجنا عن مجال بحثنا؛ على أن الذي تجدر الإشارة إليه أن بعض زعماء طيئ كانوا قد أقاموا لهم إمارة في جهات البصرة منذ أن أقطع السلطان الأيلخاني أبو سعيد (٧١٦ ـ ٧٣٦هـ/ ١٣١٦ ـ ١٣٣٥م) البصرة لفضل بن عيسى أحد زعماء طيئ عام ٧١٨هـ/ ١٣١٨م[2].

ويبد أن زعماء طيئ كان لهم نشاط بعد هذا التاريخ في هذه المنطقة ، فنحن نعرف أن السلطان المملوكي الظاهر كان قد أوعز إلى زعيم قبيلة غزية ثامر بن قشعم؛ الذي يقيم عادة قرب المشهدين (كربلاء والنجف) بمهاجمة أملاك آل فضل في البصرة عام ٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م ، فقام بالاستيلاء على أملاكهم ونهبها[3].

كما أن شرف الدين يزدي قد ذكر بأن تيمورلنك أرسل حفيده أمير زاده

---

(١) حول زعماء قبائل طيئ من آل مهنا وآل فضل ، راجع المقريزي ، السلوك ، ج٣ ق١ (القاهرة ١٩٧٠م) ١٧٦ ، ٣٥٦ ، ٣٩٦. ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون (القاهرة ١٩٣٦م) ، ٥/ ٥٣٦ ـ ٤٠ز. ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) ، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ، (القاهرة ١٩٦٦م) ، ٢/ ١٠٥ الصيرفي ، المصدر السابق ، ومصطفى الحياري ، الإمارة الطائية في بلاد الشام ، (عمان ١٩٧٧م).

(٢) أبو الفداء (صاحب حماة) المختصر في أخبار البشر ، (القاهرة ب.ت) ٤/ ٨٣. إمارة العصفوريين ٩٩.

(٣) ابن الفرات / تارخ ابن الفرات ، تحقيق: قسطنطين زريق ، ونجلاء عز الدين (بيروت ١٩٣٨م) مجلد ٩ ق٢ ، ٣٤٢ ـ ٤٣.

ميرانشاه بحملة إلى البصرة عام ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣ ـ ١٣٩٤م للتنكيل بالعرب الذين كانوا يقطعون طرق قوافل الحجاج[1].

ونحن نعرف بأن آل فضل في البصرة كانوا على عداء مع إمارة العصفوريين في بلاد البحرين؛ لذا بقي أن نتساءل عما إذا كان قريش هذا ، قد اتخذ من جهات البصرة قاعدة لهجومه على قوافل الحجاج هذه؟.

ومهما يكن من أمر ، فالذي نراه أن هجوم قريش هذا لم يمر دون أن يترك خلفه أصداء واسعة ـ نظراً لضخامته وللخسائر التي رافقته ، واستهدفت أحد الشرايين الحيوية للحياة الاقتصادية لبلاد البحرين؛ لذا لا يمكن أن نكون قد ابتعدنا عن الصواب ، فيما لو اتخذنا من هذا الهجوم سبباً مقبولاً لسقوط إمارة العصفوريين ، إن لم يكن دليلاً على سقوطها قبل هذه الحادثة بقليل ، كما يمكن أن نقول: إن هذه الواقعة قد مهدت السبيل لصالح بن حولان (جولان) لأن يبسط نفوذه السياسي على البحرين ، إضافة إلى البصرة؛ لينتهي هذا النفوذ بهجوم جيوش تيمورلنك على البصرة ٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م ، والذي نتج عنه مقتل صالح[2].

إن فترة الفراغ السياسي الذي حدث في البحرين في نهاية القرن الثامن/ الرابع عشر ، أي: في حدود فترة التغيرات ، والأحداث التي أشرنا إليها؛ هي الفترة التي نرجح فيها قيام سعيد بن مغامس بن سليمان ، أو جروان المالكي بالاستيلاء على السلطة في تلك البلاد.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أننا كنا قد بينا الأسباب التي حملتنا على تخطئة التاريخ؛ الذي أورده ابن حجر العسقلاني ، وهو عام ٧٠٥هـ/ ١٣٠٥ ـ ١٣٠٦م ، كبداية لقيام حكومة جروان في بلاد البحرين[3] ، ويمكننا أن نضيف الآن تساؤلاً آخر هو: كيف يمكن الاطمئنان إلى صحة التاريخ؛ الذي أورده ابن

---

(١) ظفر نامة ، (طهران، ب.ت) مجلد أول ، ٤٦٧.

(٢) إمارة العصفوريين ، ١١٣ ، ١٢٠ ـ ١٢١.

(٣) المصدر نفسه ، ١١٩ ـ ٢٣.

حجر ، مع أنه يجهل ما وقع لهذه الإمارة من أحداث خلال حياته؟ فهو يعرف من ذلك أن إبراهيم بن ناصر بن جروان كان ما يزال حاكماً للقطيف عام ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م فحسب ، ولا يعرف عما وقع له ولإمارته بعد هذا التاريخ ، مع أن ابن حجر عاش حتى عام ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م.

ويبدو لنا أن مدة حكم أسرة جروان المالكي في بلاد البحرين لم تتجاوز نصف قرن ، على أننا سوف نحاول على ضوء ما لدينا من أدلة تحديد التاريخ التقريبي لنهاية حكومة آل جروان على يد الجبور ، بعد أن كنا قد رجحنا تاريخ قيامها في حدود عام ٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م ، أو بعده ببضع سنوات[1].

* * *

المصدر السابق: ١٢٣.

قيام إمارة الجبور

يجدر بنا قبل الحديث عن قيام إمارة الجبور أن نبدي بعض الملاحظات ، حول الصلة بين العصفوريين والجبور ، فنقول: إنه إذا كانت صلة النسب والانحدار القبلي بينهما أمر لا خلاف فيه؛ نظراً لانتسابهما جميعاً إلى قبيلة عامر بن عقيل ، فإن الذي يصعب تقريره هو مدى الصلة العائلية التي تربط فيما بين الأسرتين ، وهل أن الجبور ينحدرون من النسل المباشر للشيخ عصفور أم لا؟

علينا أولاً أن نعترف بأن المخطط التقريبي لسلسلة القرابة بين أمراء العصفوريين ، الذي كنا قد رسمناه ، لا يساعدنا في الإجابة على هذا السؤال[1] ، على أنه يجب أن نقرر بأن سلسلة نسب أمراء الجبور لم تصلنا بشكل كامل ودقيق ، بل إنها تثير في كثير من الأحيان بعض الإشكالات حول درجة القرابة العائلية فيما بينهما ، فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد أن المصادر تذكر بأن الجبور ينتسبون إلى جدهم الكبير جبر ، لكن هذه المصادر لم تسعفنا في الإجابة على تساؤلنا عن موقع اسم جبر ضمن سلسلة نسب هذه الأسرة.

إن عبارة جدهم جبر هي غير كافية للإجابة على هذا السؤال ، فالعرب كثيراً ما اعتادوا عند إشارتهم إلى الرؤساء والشيوخ والحكام والأمراء ، بل وحتى إلى أبناء الأسرة المتميزة ، إلى الاكتفاء بذكر الجد البارز الذي ينتسبون إليه فقط ، ويستمرون في إطلاق ذلك على الأبناء والأحفاد أيضاً؛ فيصبح اسم هذا الجد وكأنه هو البداية لسلسلة نسب الأسرة ، ويسكتون في أغلب الأحيان عما

(١) المصدر السابق: ١٢٥.

يلي هذا الجد من أسماء ، الأمر الذي ينتج عنه الإشكالات حول الانحدار العائلي لهذا الجد الكبير خصوصاً في حالة ندرة المصادر[1] ، وهذا ما حدث بالضبط بالنسبة لأمراء الجبور؛ إذ كان يكتفي بإطلاق اسم «ابن جبر» أو ابن زامل أو ابن أجود ، ويبدو أن مثل هذه التعابير كانت شائعة في عهد إمارتهم؛ حيث إن البرتغاليين عند دخولهم للخليج العربي قد وجدوها متداولة بين السكان ، فتحدثوا في تقاريرهم عن ابن جبر ، وبلاد ابن جبر .

لقد سقنا هذه الأمثلة ، وأثرنا هذه النقاط؛ ليلتمس لنا القارئ العذر في عدم تمكننا من الجزم حول درجة صلة القرابة العائلية ما بين العصفوريين وبين الجبريين ، بالرغم من أننا نميل إلى وجود مثل هذه الصلة بين الأسرتين؛ إذ إنه على الرغم من عدم وجود المبدأ الوراثي الثابت لتولي المشيخة ، فإن هذه المشيخة تبقى في القبائل العربية محصورة عادة في أفراد أسرة معينة .

إن عدم وجود هذا المبدأ الوراثي الثابت هو نفسه قد يكون أحد العوامل التي قد تساعد على بروز زعامات جديدة ، فالأب قد يخلفه ابنه أو أخوه ، وربما عمه أو ابن أخيه . . . إلخ .

وكل هذه الأمور تعتمد على القابلية الشخصية لكل فرد من أفراد البيت الذي تنحصر فيه المشيخة والظروف المحيطة به ، وكذلك على عدد المنضوين تحت لواء كل زعيم من زعمائها ، سواء كانوا من أفراد عشيرته أم من أتباعه الآخرين ، ومهما يكن من أمر ، فإن ما أثرناه حتى الآن يبقى بعيداً عن الإجابة عن الكيفية التي برزت فيها زعامة جبر أو بنيه ، وتوليهم المشيخة في بني عامر (الجبور) ، وكذلك تبقى تساؤلاتنا بعيدة عن الكشف عن صلة النسب؛ التي تربطهم بنسل الشيخ عصفور بن راشد العامري العقيلي .

(١) إن الأمثلة على ذلك بارزة ومتداولة حتى يومنا هذا؛ إذ يكتفى بإطلاق اسم ابن رشيد أو ابن مسعود ، أو ابن صباح ، أو ابن ثاني ، أو ابن هذال ، أو ابن دجلوي . . . إلخ؛ على الأبناء والأحفاد ، بدل من ذكر أسمائهم الأولى . كما تطلق أيضاً على البلاد والأراضي الخاضعة لنفوذهم وسلطتهم . فيقال : بلاد أو ديرة ابن رشيد ، أو ابن مسعود ، أو ابن صباح ، أو ابن سعدون . . .إلخ .

بقي علينا أن نحاول تحديد الفترة الزمنية؛ التي ظهر فيها نشاط بني عامر (الجبور) بزعامة بني جبر ، واستطاعوا بعدها انتزاع السلطة في شرق الجزيرة العربية ، بعد أن كنا قد قطعنا بعدم وجود صلة بين نشاط (قريش الطائي) وبين الشيخ زامل بن حسين بن ناصر بن جبر .

وجدير بنا بادئ ذي بدء أن نعيد إلى الأذهان القول بأن كلاً من القطيف والأحساء كانتا منذ بداية النصف الثاني من القرن الثامن/ الرابع عشر تدينان بالتبعية لمملكة هرموز العربية ، المتأثرة كثيراً بالمحيط الفارسي؛ والتي كانت قد تركت الحكم فيها لأمراء من العرب ، في حين أن جزيرة البحرين كانت قد أخذت تحكم من قبل حكام يعينون مباشرة من قبل ملوك هرموز[1] .

ولقد احتفظ ملوك هرموز بألقابهم التي تنم عن تبعية تلك البلاد إليهم ، فقد كان قطب الدين فيروز شاه الذي حكم حتى عام ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م ، يلقب بملك هرموز والبحرين والأحساء والقطيف ، كما أن سيف الدين مهار الذي حكم حتى عام ٨٣٩هـ/ ١٤٣٥م ، قد وصف بأنه صاحب هرموز والبحرين ، وبأنه كان يبعث بالحكام من قبله إلى كل من قطيف والبحرين[2] .

ويبدو أن قوة نفوذ ملوك هرموز وهيبتهم كانت سبباً إلى حد ما في تثبيت الأوضاع السياسية في بلاد البحرين ، إلا أنه في نهاية الربع الأول من القرن التاسع/ الخامس عشر أخذت مظاهر الضعف ، واضطراب السياسة تبرز في مملكة هرموز ، فكان الصراع بين أفراد الأسرة الحاكمة فيها مظهراً وسبباً في آن واحد لحالة الضعف هذه ، مما شجع العرب على طول الساحل الشرقي لجزيرة العرب للتحرك بهدف التخلص من التبعية لمملكة هرموز ، ولعل ما حدث في بلاد البحرين خير مثال على ذلك ، كما سوف نرى .

في صيف عام ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م قام سيف الدين مهار بالتمرد على أبيه

(١) إمارة العصفوريين ، ١٠٦ ـ ١١٣ .
(٢) المصدر نفسه ، ١١٣ .

تهمتن الثالث فيروز شاه ، وأرغمه على التنازل عن العرش ، فولد هذا التغيير توتراً واسعاً في مملكة هرموز[1]. ويبدو أن هذا الوضع المتوتر كانت له انعكاسات في بلاد البحرين ، فالمؤرخ الهرموزي البهمني نيمديهي يذكر لنا بأن البدو في بلاد البحرين قد انتفضوا عام ٨٢٠هـ/ ١٤١٨م ، بحيث أصبح من المتعذر على القوافل سلوك الطريق ما بين البحرين والحجاز[2].

والسؤال الذي يطرح نفسه هو : هل البدو الذين أشار نيمديهي إليهم قد قصد بهم الجبور؟ وهل انتفاضتهم هذه قد أدت إلى الاستيلاء على الأحساء ، وانتزاعها من بني جروان؟

إن الذي يحملنا على هذه التساؤلات هو :

١ ـ إن السخاوي حين ترجم للسلطان أجود بن زامل ، قال : إنه ولد في بادية الأحساء في رمضان عام ٨٢١هـ تشرين الأول ١٤١٨م[3] ، وهذا الأمر يحملنا على الافتراض بأن الجبور كانت لهم في هذه الأثناء السيطرة على هذه البوادي .

٢ ـ إن ابن حجر العسقلاني حين ترجم لإبراهيم بن ناصر بن جروان وصفه بأنه صاحب القطيف ، ولم يضف إلى لقبه غير هذا الإقليم ، وكان هذا الوصف له في حدود عام ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م ، في الوقت الذي كان ابن حجر نفسه قد وصف جروان ـ جد المترجم له ـ بأنه الحاكم على كافة بلاد البحرين[4] ، فعبارات ابن حجر هذه تحملنا على الافتراض بأن الجبور كانوا قد انتزعوا الأحساء من إبراهيم بن جروان ، ولم يبقَ في يده غير القطيف ، وأن ابن حجر حين حدد هذه السنة بالذات ، فإنه لا بد أن يكون قد وقعت فيها أحداث ـ في

(١) المصدر نفسه ، ١١٣.

(٢) كنز المعاني ، مخطوطة عشير أفندي رقم ٨٨٤ ، نقلاً عن Aubin,Op. cit, 124,note ٢٩٠.

(٣) الضوء اللامع ، ١/ ١٩٠ ، لقد ورد في مقالة الشيخ حمد الجاسر بأن أجود بن زامل قد ولد في رمضان سنة ٨٨١هـ ، والذي يبدو لنا بأنه قد حدث هذا نتيجة خطأ مطبعي .

(٤) الدرر الكامنة ، (القاهرة ، ١٩٦٦م) ، ١/ ٧٥.

جهات بلاد البحرين ـ كانت مناسبة لأن يعرف عن آل جروان بعض المعلومات .

٣ ـ إن كلاًّ من البحرين ، والقطيف ، وعمان ، وقلهات ، وهرموز وغيرها ، كانت قد ذكرت ضمن المناطق الخاضعة لنفوذ ملك هرموز سيف الدين مهار ، بداية حكمه عام ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م ، بينما لم يرد ذكر الأحساء ضمن ذلك ، في حين أن اسم الأحساء كان يذكر ضمن المناطق الخاضعة لنفوذ والده قطب الدين فيروز شاه ، والذي انتهى حكمه مع بداية حكم ولده سيف الدين[1].

إن هذه النقطة تحملنا هي الأخرى على الافتراض بأن الأحساء كانت قد خرجت قبيل عام ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م ، عن دائرة التبعية لملوك هرموز مثلما خرجت من أيدي بني جروان .

على أننا ـ ونحن نرصد أحداث بلاد البحرين ـ يجدر بنا أن نوجه انتباهنا أيضاً إلى ما كان يقع في المناطق المجاورة لها من أحداث ، خصوصاً ونحن نعرف دقة الترابط الوثيق بين تاريخ بلاد البحرين ، وما يجاورها من أقاليم عبر العصور المختلفة ، فعلى سبيل المثال نجد أن القبائل العربية على الحدود الشمالية لبلاد البحرين ؛ قد استطاعت بقيادة الشيخ مانع بن شبيب انتزاع البصرة من الدولة الجلائرية ، وذلك منذ مطلع القرن التاسع/ الخامس عشر ، ليحكمها هو وأولاده من بعده[2].

إن هذا الحدث قد يكون له دور محفز ليدفع بني عامر (الجبور) للتحرك من

(١) إمارة العصفوريين ، ١١٣.

(٢) على الرغم من أن هذه الإمارة قد تعرضت للسقوط عدة مرات ، إلا أنها قد نجحت في النهوض في كل مرة ، وكان الشيخ راشد بن مغامس قد استطاع في العقد الثاني من القرن العاشر / السادس عشر الاستيلاء على البصرة ، وانتزاعها من آل عليان ، وتمكن بعد ذلك من ضم البحرين إلى إمارته بعد أن قضى على إمارة الجبور فيها . راجع : الصيرفي ، نزهة النفوس والأبدان ، (القاهرة ١٩٧١) ٢/ ٢٩٩ . نعمان بن محمد بن العراق ، معدن الجواهر بتاريخ البصرة والجزائر ، إسلام آباد ١٩٧٣ ، ٣٤ ـ ٣٧ ، ٧٣ ، تحفة المستفيد ، ١٢١/ جاسم حسن شبر ، تاريخ المشعشعين النجف ، ١٩٦٥ . ٨١ ـ ٨٢ المؤلف نفسه . مؤسس الدولة المشعشعية (النجف ، ١٩٧٣) ١٢٢ ـ ٢٣.

جديد؛ من أجل إعادة هيمنتهم على بلاد البحرين مثلما كانوا في السابق.

ومهما يكن من أمر، فإن الطريق ما بين البحرين والحجاز؛ الذي كان قد قطع عام ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م قد أصبح مطروقاً عام ٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م، ولكن بقيادة بني عامر (الجبور) ـ فالسخاوي يذكر بأن قافلة بني عقيل قد غادرت الحجاز في هذه السنة بعد انتهاء موسم الحج عائدة إلى بلاد البحرين[١].

على ضوء ما تقدم يمكن الافتراض بأن الجبور كانوا قد انتزعوا واحات الأحساء من بني جروان، وأن ذلك قد حدث في حدود عام ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م، ثم اتخذوا منها قاعدة لتوسعاتهم في المستقبل.

إن هذه الفرضية لا تتعارض وما لدينا من أدلة، بل إن الأدلة التي أشرنا إليها آنفاً ـ بالرغم من أنها أدلة غير قطعية ـ تعزز هذه الفرضية. أما ما ذكره المستشرق الفرنسي جان أوبين من أن سيف بن زامل ربما كان قد استولى على واحات الأحساء عام ٨٦٤/ ٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م[٢]، فهو اجتهاد يعوزه الدليل ويصعب قبوله، كما سوف نرى.

إن الأحداث التي وقعت على ساحلي الخليج العربي ضمن حدود مملكة هرموز، كانت فرصة مواتية للجبور لتثبيت إمارتهم وتوسيعها.

ففي عام ٨٣٩هـ/ ١٤٣٥ ـ ١٤٣٦م ثار الأمير فخر الدين تورانشاه الثاني حاكم ميناء قلهات العماني ضد أخيه سيف الدين مهار ملك هرموز، وكانت ثورته بتحريض ومساندة فعالة من العرب، وكان لبلاد البحرين دور فعال في هذه المساندة؛ إذ زود منها بالسفن، كما أمدته الأحساء بالخيول، وأقرضه تجار تلك البلاد الأموال اللازمة لتغطية تكاليف حملته.

إلا أن الحرب بين الأخوين قد طالت مدتها وتعقدت؛ إذ استمرت لمدة أربع سنوات، ويعزى سبب ذلك إلى تدخل السلطان شاهرخ (٨٠٧هـ/ ١٤٠٥م ـ

(١) الضوء اللامع، ٩/ ٢٥٦ـ٥٧.

(٢) Aubin, Op.cit.124.

٨٥٠هـ/ ١٤٤٧م) حفيد تيمور، ووقوفه إلى جانب سيف الدين مهار، وإمداده بالجند.

ومهما يكن من أمر، فإن هذه الحرب قد انتهت أخيراً لصالح فخر الدين تورانشاه عام ٨٤٣هـ/ ١٤٣٩م، وفاز بكرسي المملكة[١].

إن الذي يهمنا من ثورة فخر الدين تورانشاه هي أنها قد أدت إلى تعزيز الدور؛ الذي أخذ يلعبه عرب السواحل الشرقية للخليج في الحياة السياسية لمملكة هرموز؛ كما أنها كانت فرصة للزعماء الطموحين لاستغلال هذه الاضطرابات للتحرك لتحقيق طموحاتهم.

ويبدو أن الجبور كانوا من المنتهزين لهذه الظروف، فجان أوبين ينقل لنا عن المؤرخ الفارسي جعفري ـ المعاصر للأحداث والقريب من موقع حدوثها ـ قوله بأنه في سنة ٨٤٣هـ/ ١٤٣٩ ـ ١٤٤٠م، أي: في السنة نفسها التي انتهى فيها الصراع بين الأخوين سيف الدين مهار، وفخر الدين تورانشاه، قام البدو بالاستيلاء على القطيف ونهبها[٢].

والذي نميل إليه أن التاريخ المذكور أعلاه يمكن أن يكون تاريخ استيلاء الجبور على القطيف، بعد أن كانوا قد استولوا قبلها على واحات الأحساء.

إن هذه الفرضية التي نميل إليها تعززها الأدلة التالية، وهي:

أولاً: إن نص الجعفري الذي سبق أن ذكرناه بالرغم من أنه لا يصرح باسم البدو الذين قاموا بالاستيلاء على القطيف، فإننا نميل بشدة إلى أن المقصود بهم هم بنو عامر بزعامة آل جبر، إن معلوماتنا تشير إلى أنه في حدود هذه الفترة كان بنو عامر يشكلون القوة القبلية الرئيسية، والنشطة في بلاد البحرين.

(١) ابن حجر، إنباء الغمر، القاهرة ١٩٧٢م، ٣/ ١٠٢ الضوء اللامع، ٢/ ٤٥، ١٠/ ١٧٣ إمارة العصفوريين، ١١٣.

J.Aubin, Les princes Dmomuz Du XIll «Au Xv». «Aiecle, in, Journal Asiatigue,

Tome 241 (oaris, 1955). 77137 esp. 119: idem, Le Rotaume D,Ormus, 131 - 33.

(٢) Leroyaume D,Ormuz, 124, note 290.

ثانياً: إن حالة الاحتراب بين المتنافسين على عرش مملكة هرموز، ثم انتصار تورانشاه في نهايتها؛ لا بد أن تكون فرصة مناسبة ومشجعة للمعارضين للملك المهزوم سيف الدين مهار للانقضاض على أعوانه، والحكام التابعين له في كل مكان، وطردهم من مواقعهم.

ثم إن العرب عموماً، وسكان بلاد البحرين خصوصاً، كانوا ممن قدموا مساعدات كبيرة لتورانشاه في صراعه ضد أخيه، ومن المحتمل أن مثل هذه المساعدات قد تمت وفق شروط معينة، يمكن من خلالها الحصول على تعويضات مقابلة لها، وقد يكون التنازل عن القطيف، بما تغله من واردات، هي ثمن المساعدات، ونحن لا نغرق في الخيال والتصور عندما نقول ذلك، فلدينا دليل تاريخي يدعم ذلك، وهو شروط التعاون ما بين الشيخ أجود بن زامل، وبين سلغور ـ والتي سوف نذكرها في حينه ـ ولربما يكون هذا الاتفاق قد اعتمد على واقعة سابقة أشرنا إليها سابقاً.

ثالثاً: إن ابن حجر العسقلاني حينما ترجم لإبراهيم بن ناصر بن جروان المالكي ذكر بأنه كان ما يزال يحكم الأحساء في عام ٨٢٠هـ/١٤١٧م. إن تحديد ابن حجر لهذه السنة بالذات؛ على الرغم من أنه قد مات بعدها بفترة طويلة نسبياً؛ إذ إنه توفي عام ٨٥٢هـ/١٤٤٨م؛ يعني: أنه يجهل ما وقع في بلاد البحرين بعد هذا التاريخ من أحداث، أو أنه يعرف أنه قد حدثت تغيرات هناك بعد هذا التاريخ، إلا أنه لا يملك عنها معلومات كافية. إن هذا الأمر قد يسمح لنا بالافتراض بأن نهاية إمارة جروان قد حدثت خلال حياة ابن حجر نفسه.

رابعاً: إن السخاوي حينما ترجم لفخر الدين تورانشاه قد نعته بصاحب هرموز فقط[1]، ولم يضف إلى ألقابه ما يفهم منه بتبعية أي جزء من أجزاء بلاد البحرين، في الوقت الذي كان فيه السخاوي قد أضاف إلى ملوك هرموز؛ الذين سبقوا فخر الدين، نعوتاً يفهم منها تبعية بلاد البحرين، أو جزء منها

(١) الضوء اللامع، ٢/ ٤٥.

لمملكتهم، إن هذا الأمر يسمح لنا أيضاً بالافتراض بأن بلاد البحرين، أو معظم أجزائها على الأقل كانت قد خرجت من دائرة التبعية لملوك هرموز، ولبني جروان في آن واحد.

خامساً: إن ابن بسام حينما أورد ذكر قيام زامل بن حسين الجبري بغزو الخرج من نجد عام ٨٥١هـ/١٤٤٧م نعته بأنه ملك الأحساء والقطيف[1]، وإن هذا الوصف للأمير زامل يقتضي أن يكون قد امتلك كلاً من الأحساء والقطيف قبل التاريخ المشار إليه سابقاً.

وقد يعترض البعض على استنادنا على رواية ابن بسام هذه، على أساس أن عصر ابن بسام بعيد عن عصر زامل (توفي ابن بسام في حدود عام ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧ ـ ١٩٢٨م) وردنا على ذلك هو أن تاريخ ابن بسام من المصادر الموثوق بها إلى حد كبير عن تاريخ نجد للفترة ما بين القرنين التاسع والثاني عشر/ الخامس عشر والثامن عشر، حتى أن جورج رينتز ـ المتخصص بتاريخ نجد ـ وصف هذا المصدر بأنه لا يوازيه مصدر آخر لدراسة هذه الفترة[2]، ومهما يكن من أمر، فإن ابن بسام لا بد أن يكون قد وقعت بين يديه مصادر نادرة لم تصل إلينا ـ على أن نص ابن بسام لا يتعارض ـ في تقديرنا ـ مع ما ذكره السخاوي من أن سيفَ بن زامل هو الذي استولى على ما بيد بني جروان من بلاد البحرين[3]؛ إذ قد يكون سيف هذا قد قام بهذا العمل في حياة والده زامل، وبتوجيه منه، ثم علينا أن نلاحظ بأن السخاوي لم يحدد لنا أي

(١) عبد الله بن بسام، (مخطوطة) تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق، ورقة ١٧أ ـ ب نقلاً عن النسخة الخطية؛ التي نقلها عن الأصل نور الدين شريبة. د. عبد الله الصالح العثيمين، نجد منذ القرن العاشر الهجري، مجلة الدارة (١٩٧٥م) ١/ ٤. ٦٦ ـ ٧١.

(٢) ينقل جان أوبين عن جورج رنتز رأيه في تحفة المشتاق، بقوله: (إنه يحتوي الكثير جداً عن نجد للفترة من ٨٥٠ ـ ١١٥٨هـ/ ١٤٤٦ ـ ١٧٤٥م، أكثر مما وجدته في أي مصدر آخر، وإن مادته تبدو بالتأكيد موثوقة، على الرغم من أن بعض التواريخ ربما لا تكون جميعها صحيحة). راجع: Leroyaume d,Ormuz,123, note ٢٩٠.

(٣) الضوء اللامع، ١/ ١٩٠.

جزء من بلاد البحرين كان لا يزال بيد بني جروان ، فانتزعه منهم سيف ، وفي أي سنة قد تم ذلك؟

سادساً: إن المرحوم سليمان الدخيل قد ذكر بأن قيام دولة بني زويمل ـ أي: دولة زامل ـ كان في حدود عام ٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م[1] ، وهذا التاريخ الذي أورده الدخيل هو مقارب بعض الشيء للتاريخ الذي نميل إلى صحته ، وهو عام ٨٤٣هـ/ ١٤٣٩ ـ ١٤٤٠م.

وخلاصة الأمر أن ما قد ذكرناه أعلاه فيه من الدلائل ما يكفي لرفض فرضية جان أوبين ـ التي سبق أن أشرنا إليها ـ من أن احتلال الأحساء قد تم عام ٨٦٤ ـ ٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م ، كما أن هذه الأدلة قد تعزز ما ذهبنا إليه من أن هذا الاحتلال قد تم قبل التاريخ الذي أورده أوبين بحوالي العقدين من السنين ـ أما فرضية الشيخ حمد الجاسر والقائلة: إن قيام دولة الجبور قد كان في أواخر القرن الثامن عشر/ الرابع عشر[2] ، فلا نعتقد أننا بحاجة لمناقشتها بعد كل ما سبق وأن بيناه.

بقي علينا قبل أن نغادر هذه النقطة أن نذكر بأننا نميل إلى اعتبار زامل بن حسين بن ناصر بن جبر هو مؤسس إمارة الجبور ، سندنا في ذلك هو نص ابن بسام الذي سبق أن ذكرناه ـ ونحن بذلك نخالف ما ذهب إليه كل من محمد العبد القادر وحمد الجاسر؛ اللذين يميلان إلى اعتبار سيف بن زامل هو مؤسس الإمارة[3].

ومن الواضح أن سندهما في ذلك هو نص السخاوي؛ الذي أشار فيه إلى قيام سيف بانتزاع ما بأيدي بني جروان من بلاد البحرين ، ولقد كنا قد أوضحنا سابقاً بأن ذلك لا يقتضي قطعاً أن يكون سيف قد قام بهذا العمل بعد وفاة والده ، بل قد يكون قد قام به في حياة والده ، وبتوجيه منه.

---

(١) سليمان صالح الدخيل ، تحفة الألباب في تاريخ الأحساء ، مجلة العرب ، (١٩٧٥م) ١٠/ ٥ ـ ٦. ٤٤٠ ـ ٧٢ خصوصاً ٤٧١.

(٢) الدولة الجبرية في الأحساء ، ٦٠١.

(٣) تحفة المستفيد ، ١٢٠ ، الدولة الجبرية في الأحساء ، ٦٠٣.

ثم إن نصوص ابن بسام صريحة في أن زاملاً كان ما يزال على قيد الحياة ، حتى بعد التاريخ الذي كان قد افترضه جان أوبين كتاريخ لفتح القطيف.

ومهما يكن من أمر ، فإن نجاح زامل بن حسين الجبري في فرض سلطانه على كل من الأحساء والقطيف ، قد رافقه أيضاً بسط نفوذه على أجزاء واسعة من نجد ، وقد يكون لانتشار قبائل عامر وقوة نفوذها في نجد علاقة وثيقة في تحقيق هدفه هذا ، ولعل ما ذكره ابن عنبة نقلاً عن أستاذه ابن معية الحسيني المتوفى ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤ ـ ١٣٧٥م ، من أن الأخيضريين في اليمامة كان يقدر عددهم بألف فارس ، ويدخلون تحت لواء بني عامر (الجبور)[1] ما هو إلا دليل على قوة زعامة بني عامر (الجبور) في اليمامة حتى تاريخ تلك الفترة السابقة لقيام إمارتهم ، ثم إن الرواة ينهون نسب أمراء الجبور بعبارة «النجدي» ، وهذا دليل على الصلة القوية ما بين هذه الأسرة وبلاد نجد ، والتي هي الموطن الأصلي لسكنى قبائل عقيل.

ولعل كثرة الحملات التي قادها زامل بن حسين ، وكذلك أولاده إلى نجد ، وذكرها ابن بسام دليل أيضاً على أن أمراء الجبور كانوا ينظرون إلى تلك البلاد على أنها الظهير؛ التي يمكن الاعتماد عليه في تجنيد المقاتلين لزجهم في المعارك التي كانوا يخوضونها هنا وهناك بين حين وآخر ، كما أن أحد أهدافهم من ذلك هو كسب تأييد سكان واحات نجد عن طريق حمايتهم من اعتداءات البدو ، أو ابتزازهم لهم.

فابن بسام يذكر لنا بأن زاملاً قد قاد جيشاً عظيماً مؤلفاً من البدو والحضر لإخضاع قبائل الدواسر والفضول وعايذ في منطقة الخرج ، وأن هذه الحملات كانت في عام ٨٥١هـ/ ١٤٤٧ ـ ١٤٤٨هـ ، وعام ٨٥٢/ ١٤٤٨م ، وعام ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م ، ثم عام ٨٦٦هـ/ ١٤٦١ ـ ١٤٦٢م ، على التوالي[2] ، ويمكن أن نضيف إلى أسباب هذه الحملات التي ذكرناها أسباباً أخرى ، وهي

---

(١) عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب ، النجف ق ٢ ١٩٦١م/ ١٣٨٠هـ ، ١١٦.

(٢) تحفة المشتاق ، الأوراق ، ٧أ ـ ١٠ ب.

المحافظة على سلامة طرق القوافل التي تربط ما بين بلاد البحرين ونجد من جهة ، ونجد وظفار من جهة أخرى.

ثم يجب علينا ألا ننسى بأن الجبور بعد أن نجحوا في إقامة سلطة سياسية لهم ، لا بد أنهم قد أخذوا يرفضون الاعتراف للقوى القبلية الأخرى بحقها في الانتفاع وإياهم على قدم المساواة ، كما تفرضه الأعراف القبلية ، بالمنافع المادية التي أخذوا يجنونها من وجودهم على قمة السلطة ، وهذا الأمر بالتأكيد يثير في كثير من الأحيان النزاعات القبلية.

مهما يكن من أمر ، فإنه يبدو بأن الشيخ زامل قد نجح إلى حد كبير في فرض هيبته ، وتثبيت نفوذه بين البدو والحضر في كل من نجد ، وبلاد البحرين ، وأقام صلة من الروابط والمصالح المشتركة بين الفئتين.

إن النجاح الذي حققه الشيخ زامل بن حسين ، قد هيأ له بالتأكيد فرصة أكبر لتكوين قوة خاصة إلى جانب القوة القبلية يمكن الركون إليها ، وتدين له بالتبعية مباشرة ، فالعاملون في السفن وفي مغاصات اللؤلؤ ومصائد الأسماك ، وكذلك الرقيق الأبيض ، والأسود المتوفر في أسواق الخليج العربي ، كل هؤلاء عناصر يمكن الاستفادة منها في تكوين مثل هذه القوة الخاصة ، والبعيدة عادة عن التأثر بالولاءات القبلية السائدة في مثل ذلك المحيط.

والواقع أن عملية تكوين السلطة السياسية تعتمد على التطور الحاصل في الأداة الوحيدة للقوة ، وهي القوة العسكرية ، ولم تظهر سلطة سياسية دون ظهور قوة عسكرية إلى جانبها ، على أن التركيب الاجتماعي للقوة العسكرية ما هو إلا نتاج البيئة الاجتماعية والاقتصادية ، ولعل فيما ذكره ابن بسام من أن السلطان زامل كان يقود جيشاً عظيماً مؤلفاً من البدو والحضر ، يعبر عن الطبيعة الاجتماعية لتركيب هذا الجيش[1].

ومن المفيد ، ونحن نتحدث عن الظروف التي ساعدت الجبور على الاستيلاء على كل من البحرين ، والقطيف ، ونجد ، أن نستعرض العوامل التي

(١) المصدر السابق.

ساعدت على تثبيت دعائم هذه الإمارة.

لقد تزامن ظهور قوة الجبور مع انتشار الفوضى والاضطرابات ، والتخريب والدمار الواسع في كل من العراق ، وإيران ، وديار بكر ، والأناضول ، وشمالي بلاد الشام ، فمنذ بداية العقد الثاني من القرن التاسع/ الخامس عشر شهدت تلك المناطق صراعات وحروب حول السلطة ، والنفوذ فيما بين الدولة التيمورية ودولة قرة قوينلو ، وكذلك ما بين الدولتين المذكورتين ودولة آق قوينلو ، ثم أخيراً ما بين الدولة الأخيرة والدولة العثمانية.

ولم تسلم الدولة المملوكية في مصر والشام من التورط بجانب من هذه الصراعات. يضاف إلى كل ذلك الصراعات الداخلية الدامية حول السلطة في داخل كل من هذه الدول.

كما يجب أن لايغيب عن بالنا الاضطرابات الفلاحية والقبلية في وسط العراق وجنوبه ، والتي رافقت ظهور حركة المشعشعين؛ التي انتهت بتأسيس إمارة عربية لهم[1].

كانت مراكز الإنتاج الصناعي ، والأسواق التجارية ، ومحطات القوافل في هذه الساحة الواسعة هي من مناطق الاضطراب الرئيسية ، فكان من نتائج كل ذلك أن أصيبت الحركة التجارية ، وحركة القوافل ما بين الخليج العربي ، وهذه المناطق بنوع من الشلل والكساد[2] ، فانكمش النشاط التجاري في موانئ الخليج العربي ، في الوقت الذي كانت فيه موانئ البحر الأحمر ، وعلى

(١) من أجل الاطلاع على معلومات وافية عن هذه الاضطرابات في هذه الفترة ، راجع: عبد الله ابن فتح الله البغدادي (توفي بعد ٨٩١هـ/ ١٤٨٦م بقليل). التاريخ الغياثي. تحقيق: طارق الحمداني. بغداد ١٩٧٥م/ عباس العزاوي: العراق بين احتلالين جـ ٣ ، بغداد ١٩٣٩م محمد هليل الجابري: تاريخ المشعشعين. رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة بغداد ١٩٧٣م.

R.M.Savory, The struggle for supremacy in Persian after the death of Timur, Derlslam, XL (1964), 35-65; j.woods, the Agguyunlu, Minneapoles, U.S.A. 1976.

(٢) حول ذلك راجع J ,«Aubin», Art «lrak», El2 (C).

الخصوص ميناء جدة ، تشهد انتعاشاً تجارياً كبيراً[1].

وعلى ضوء الصورة التي رسمناها لأوضاع المناطق المجاورة لبلاد البحرين؛ لا بد أن نتوقع أن التجار قد أخذوا يتطلعون للمناطق الأكثر ازدهاراً وأمناً من أجل نقل نشاطهم التجاري إليها ، وحيث إن الحجاز أصبحت منطقة جذب بالنسبة إليهم فيقتضي عليهم أن يجتازوا بتجارتهم بلاد البحرين ، ونجد ، وتسليم قيادة القوافل إلى بني عامر (الجبور) العقيليين الذين هم أقدر على قيادتها.

إن بروز هذا النشاط التجاري ما بين سواحل بلاد البحرين والحجاز ، لا بد أنه قد عزز مركز إمارة الجبور ، وزاد من قوتها ، كما علينا أن لا ننسى بأن زيادة الطلب من قبل المماليك العثمانيين واق قوينلو على أهم سلعتين تجاريتين إستراتيجيتين تشتهر بها بلاد البحرين ، وهي الخيول والجمال قد أدى إلى أن يجني بنو عامر فوائد مادية كبيرة من ذلك.

إن حرص أمراء الجبور على أن يرافقوا القوافل التجارية لم يكن إلا تعبيراً على حرصهم على سلامة هذه القوافل؛ لأنها مصدر مهم تجني منها إمارتهم فوائد مادية كبيرة.

توسع الجبور في ممتلكات هرموز ، والصراع بينهما:

إن الجهود التي بذلها زامل بن حسين الجبري لإقامة سلطة سياسية لقبيلته وقدرته على الاستفادة من الظروف المحيطة به؛ كانت ـ كما بينا ـ قد أثمرت عن امتداد نفوذه على منطقة واسعة من جزيرة العرب ، تاركاً لخلفائه من بعده مهمة تدعيم بنيانها ، وتوسيع رقعتها.

وتذكر المصادر بأن لزامل هذا ثلاثة أولاد ، هم هلال وسيف وأجود ،

(١) حسنين ربيع ، بحر الحجاز في العصور الوسطى. مجلة كلية العلوم الاجتماعية. الرياض. ١٩٧٧م ، ١/٣٩٩ ـ ٤١٦ خصوصاً ٤٠٧ ـ ٨. الصيرفي ، نزهة النفوس القاهرة ١٩٧٤م. ٣/٣١٢.

A.Lewis. Maritime Skill in Indian Ocean, History of the Orient, Xvl (1971), 238-64, esp. 259 - 610.

فسيف هو الذي كان قد لعب دوراً بارزاً في حياة والده؛ مما جعل بعض الباحثين المحدثين إلى اعتباره مؤسس إمارة الجبور ، وقد سبق لنا أن ناقشنا هذه الفرضية ، ورجحنا أن والده زامل هو المؤسس الحقيقي لإمارة الجبور.

لكن السؤال الذي تصعب الإجابة عليه هو : أيكون سيف هذا قد توفي في حياة والده ، أم أنه عاش بعد وفاة والده فترة من الزمن ، وهل خلفه في السلطة؟

إن ما نميل إليه أن سيفاً هذا قد خلف والده في السلطة لفترة قصيرة؛ ليخلفه بعد ذلك أخوه أجود؛ الذي حكم الإمارة لفترة طويلة.

إن معلوماتنا عن عهد أجود هي أفضل منها نسبياً عمن سبقه ، أو تلاه ، ويبدو أن أجود هذا قد ساهم في حروب والده وأخيه ، ومارس قسطاً من السلطة ، فبرزت مواهبه العسكرية والسياسية ، وكسب شهرة وبروزاً؛ مما أهَّله لتولي إمارة الجبور دون منازع.

إن الظروف التي كانت تمر بمنطقة الخليج ، قد أهَّلت أجود بن زامل ، لأن تبرز قابلياته القيادية على نطاق واسع ، وأن تتجاوز شهرته حدود جزيرة العرب ، وهذا ما سوف نراه في الصفحات اللاحقة[1].

إن حالة الضعف والانحلال والاضطراب؛ التي أخذت تعاني منها مملكة هرموز ، والأخطار التي كانت تتهدد وجودها باستمرار من قبل دولة آق قوينلو في إيران ، كل ذلك جعل هذه المملكة مشلولة الحركة تجاه بروز الجبور ، وتعاظم قوتهم في شرق الجزيرة العربية ، والأخطار المحتملة من قبلهم على نفوذ المملكة في تلك الجهات.

إن هذا الوضع السائد في حوض الخليج العربي في الثلث الأخير من

(١) إننا لا نعرف عن هلال الابن الثالث لزامل إلا من خلال أولاده ، وأحفاده الذين قد برزوا في أواخر إمارة الجبور ، كما أنهم أخذوا يلعبون أدواراً خطيرة في الحياة السياسية لعمان ، وقد عرفوا في المؤلفات العمانية باسم الهلاليين. راجع: سالم السيابي. إسعاف الأعيان في أنساب أهل عمان ، (بيروت ١٩٦٥م) ٥٥ ـ ٥٦ ، كذلك بحثنا «نفوذ الجبور في شرق الجزيرة العربية بعد زوال سلطتهم السياسية» سوف ينشر هذا البحث في مجلة كلية الآداب جامعة البصرة ، العدد ١٧.

القرن التاسع/ الخامس عشر ، قد هيأ لزعيم الجبور الطموح أجود بن زامل الفرصة للتوسع ، وعند وفاة فخر الدين تورانشاه خلف أربعة أولاد ، وهم مقصود وشهاب الدين وسلغور وشاه ويس ، وقد دار بين هؤلاء الأخوة صراع حول العرش ، فقد خلف مقصود أباه في العرش لكن أخاه شهاب الدين لم يدعه يتمتع طويلاً بالسلطة ؛ إذ ثار عليه وانتزع العرش منه ؛ إلا أن شهاب الدين هو الآخر لم تستقم لـه الأمور طويـلاً ؛ إذ أطاح بـه أخوه سلغور.

ولم يكن حظ سلغور بأفضل من حظ أخويه السابقين ؛ إذ ثار ضده أخوه الأصغر شاه ويس ، وانتزع الملك من يديه ، فما كان من سلغور إلا أن أخذ يفتش عن نصير يساعده على إعادته إلى عرشه ، والانتقام له من أخيه .

وعليه فقد لجأ إلى والد زوجته سليمان بن سليمان النبهاني حاكم عمان الداخل ، إلا أن سليمان هذا لم يقدم له المساعدة المطلوبة ؛ نظراً لأنه كان حاكماً عاجزاً وضعيفاً ومتردداً ، لم يكن أمام سلغور غير التوجه إلى الأحساء من أجل طلب الدعم والمساعدة من زعيم الجبور الأمير أجود بن زامل ، وقد وجد السلطان أجود في لجوء سلغور إليه فرصة ثمينة للتدخل المباشر في شؤون مملكة هرموز ، ولتوسيع إمارته على حسابها ، عن طريق إملاء شروطه على سلغور لقاء هذه المساعدة .

وعليه فقد أظهر أجود بن زامل استعداده لمساعدة سلغور شرط أن يتنازل الأخير له عن حقوقه كافة ، وادعاءاته في القطيف وجزر البحرين ، وأن تعود ملكيتها لإمارة الجبور .

لم يكن أمام سلغور غير الموافقة على شروط أجود هذه ، ولم يطالب بغير أن يترك له ملكية بعض البساتين في جزيرة البحرين ، فأجيب طلبه ، وتم توقيع اتفاق مكتوب بموجب هذين الطرفين ، وتنفيذاً لهذا الاتفاق قام أجود بن زامل عام ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م ، بحشد قواته في جلفار «رأس الخيمة» .

ومن المحتمل جداً أن أجود قد أسند قيادة قواته إلى ولده زامل ؛ إذ تذكر المصادر البرتغالية أن سلغور قد طلب المساعدة من ريس زامل حاكم سلوة ،

وربما كان زامل يحكم من هذا الميناء شبه جزيرة قطر ، والمنطقة الساحلية لبلاد البحرين نيابة عن والده .

مهما يكن من أمر ، فإن هذه القوات قد انطلقت على ظهر سفن لغزو جزيرة جسرون (هرموز) يرافقها سلغور ، وتمكنت من احتلالها ، والقبض على شاه ويس ، ووزيره خواجه عطار[1] ، وتنصيب سلغور ملكاً على هرموز .

وكنتيجة لذلك أصبح كل من القطيف ، وجزر البحرين أجزاء من إمارة الجبور[2] ، ومما هو جدير بالذكر هنا أن الأستاذ حمد الجاسر قد ذكر بأن حكم

---

(١) لقد ورد رسم اسمه في المصادر البرتغالية هكذا Cojeater ، وعنهم أخذه أوبين ، وقد قرأه عباس إقبال خواجه عطار ، وهي القراءة الأقرب للصحة . وخواجه جمع خوجة ، وتعني : المعلم والمربي ، كما تأتي كلقب تبجيل تمنح لكبار التجار والأثرياء .

(٢) قال أحمد بن ماجد النجدي وهو يصف جزيرة البحرين : (وهي في تاريخ الكتاب ـ أُلِّفَ في حدود عام ٨٩٥هـ/ ١٤٩٠م ـ لأجود بن زامل بن حسين ، أعطاه إياها هي والقطيف السلطان سرغل بن تورشاه ـ سلغور بن طورانشاه ـ على أن يقوم بنصرته على إخوته ويملكه جزيرة هرموز .

وكتب بها عليه حجة واستثنى بعض بساتينها ، ففعل له ذلك وقام بنصرته وملكه هرموز ، وأخذ القطيف والبحرين في عام ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م . راجع كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد ، تحقيق : إبراهيم خوري ، وعزة حسن (دمشق ١٩٧١م) ، ٣٠١ ـ ٣٠٢/ راجع أيضاً : السخاوي ، الضوء اللامع ، ١٠/ ١٩٠ . ويلاحظ أن نص السخاوي الذي ترجم فيه لأجود وأورد فيه أيضاً الإشارة إلى ضمه للبحرين هو نص مضطرب لا يخلو من الغموض ويصعب فهمه بدقة ، فقد جاء فيه قوله : (بل اتسعت له مملكته بحيث ملك البحرين وعمان ، ثم قام حتى انتزع مملكة هرموز ابن أخ لصرغل (سلغور) كان قد استقر بعد موت أبيه وضيق على الابن المشار إليه ، وصار سرغل (سلغور) يبذل له ما كان يبذله له أخوه أو أزيد . .) ومما تجدر الإشارة إليه أن الشيخ عبد القادر الجزيري قد تابع السخاوي ، وربما نقل عنه ما أورده ، راجع : درر الفوائد المنظمة ، النسخة الخطية ـ المكتبة التيمورية رقم ٩٣٦ تاريخ ، ورقة ٣١٦ نقلاً عن تحفة المستفيد . ومن أجل الاطلاع على مقتبسات مما أورده المؤرخون البرتغاليون باروس Barros ، وكوتو Couto راجع : رحلات تكسيرا .

The Travels of Pedro Teixeira with «His Kings of Harmuz», Trans and annotated by W.F. Sinclair, The Hakluyt Society, Series 11, vol. lx, (London, 1902), p. 189, note 2: Caskel, op. cit, 67: Aubin, Le-Royaume D Ormuz, 124, 134-38.

الشيخ أجود قد شمل بلاد هرموز[١] ، وربما يعني بقوله هذا: أجزاء كانت في السابق من مملكة هرموز كالقطيف والبحرين ، أما إذا كان يقصد أجزاء غيرها ، فهذا خطأ محض أوقعته فيه رواية السخاوي المشوشة عن علاقة أجود بسلغور شاه.

قبل التحدث عما وقع من أحداث في أعقاب ما أشرنا إليه ، يجدر بنا نثير سؤالاً هاماً ، وهو: هل يفهم من الاتفاقية ما بين سلغور ، وأجود أن كلاً من القطيف والبحرين لم تكونا قد دخلتا ضمن نفوذ الجبور ، قبل عام ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م؟

للإجابة على ذلك يمكننا القول: إن التدقيق فيما أورده ابن ماجد ، والمصادر البرتغالية لا يؤيد ذلك بشكل قاطع ، بل إن الذي يمكن أن يفهم منها أن هذين الإقليمين ، كانا قد أصبحا فعلاً بيد السلطان أجود قبل ذلك ، وأنه كان يعترف بتبعيتهما لمملكة هرموز ، ويدفع لقاء ذلك مبالغ سنوية من وارداتها ، كذلك يمكن أن تفسر هذه النصوص على أن أجود بعد استيلائه على هذين الإقليمين لم تعترف له مملكة هرموز بأحقيته في الاستيلاء عليهما ، وأن هذه الاتفاقية قد جاءت لكي تتنازل مملكة هرموز عن كل حقوقها في هذين الإقليمين.

مهما يكن من أمر ، فإننا في صفحات سابقة رجحنا أن القطيف كان قد تم الاستيلاء عليها عام ٨٤٣هـ/ ١٤٣٩ ـ ١٤٤٠م في عهد الشيخ زامل بن حسين ، كما أن الأحداث التي كانت قد وقعت في مملكة هرموز على أثر وفاة فخر الدين طورانشاه ، هي بالتأكيد فرصة مناسبة لأجود للاستيلاء على جزر البحرين ، ومن المستبعد أن يترك أجود هذه الفرصة للتوسع تفلت من يديه ، خصوصاً إذا ما عرفنا أن البحرين غنية جداً ، إذا ما قورنت ببقية مناطق الخليج ، كما أنها مركز تجاري هام ، ثم إن استيلاء الجبور على القطيف كان لا بد أن يتبعه الاستيلاء على البحرين؛ إذ إن القطيف منفتحة على نجد عن طريق البحر ،

(١) الدولة الجبرية ٦٠٣. راجع الضوء اللامع ١/ ١٩٠.

ورأس قنطرة للطريق التجاري ما بين مناطق الخليج العربي والحجاز ، إنها صورة تتكرر عبر مختلف العصور التاريخية ، فمن يملك ساحل القطيف كان لا بد له أن يعمل على ضم جزر البحرين إليه.

إن مما يؤيد ـ أيضاً ـ ما ذهبنا إليه هو أن النزاع المسلح الذي وقع بعد ذلك بين أجود وسلغور ، حول جزيرة البحرين؛ كان يدور أساساً حول رفض أجود أن يدفع إلى مملكة هرموز أية مبالغ مما يحصله من واردات البحرين ، ولم تكن الخلافات بينهما قائمة على أساس شرعية الوجود السياسي للجبور فيها.

ومهما يكن من أمر ، فإن هذه الخلافات بين القوتين قد أثارت حروباً طويلة ، سوف نتعرض إليها في الصفحات التالية.

وعندما نجح الأمير سلغور شاه في الوصول إلى العرش بدعم من الشيخ أجود بن زامل ، ندم على تنازله عن حقوق مملكته في البحرين ، خصوصاً وأن واردات هرموز كانت تعاني انخفاضاً كبيراً؛ نتيجة لانكماش تجارة الخليج العربي بعد ازدهار تجارة البحر الأحمر ، وأن ما تغله كل من البحرين والقطيف من واردات لهرموز ، سوف يخفف بالتأكيد من العجز الذي تعاني منه خزانتها.

* * *

الصراع على السلطة في دولة الجبور

توطئة:

شهدت المنطقة العربية خاصة ، ومنطقة الشرق الأوسط عامة ، عبر مسارها التاريخي الطويل ، صراعات مستمرة بين الدولة والقبيلة ، وبين البدو والحضر ، كما شهدت أيضاً قيام دول وكيانات سياسية كان للقبائل دور أساس في إنشائها ، وقيام أسر حاكمة فيها ، فكان لكل ذلك أثر كبير في تاريخها ، يتجاوز مثيله في بقاع كثيرة من العالم ، ولذا فإن دراسة العامل القبلي تحتل في الواقع أهمية بارزة في تعميق فهم حقيقي لتاريخها.

ولقد تنبه ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٦م) قبل غيره من المفكرين ، بفترة طويلة إلى أهمية العامل القبلي ، فاحتل جزءاً رئيسياً من نظريته الاجتماعية ، وأن الدراسات الحديثة حول المسألة القبلية قد انطلقت في الحقيقة من الرؤيا الخلدونية ، من دون أن تستطيع من جهة أخرى أن تزعزع أسسها.

ولكي لا نبعد كثيراً عما نبتغيه بخصوص الصلة بين الدولة والقبيلة ، والتمازج ما بين البداوة والتحضر ، فإنه يحسن توضيح بعض الألفاظ والمفاهيم والمفاصل الرئيسة بهذا الخصوص.

فمفهوم الدولة ، التي ترد في البحث يقصد بها تلك الأشكال التي سادت قبل فترة التحديث ، حيث تعني: ذلك الكيان الذي يتوافر له عنصران ، وهما: **أولاً**: الحدود الإقليمية ، بصرف النظر عن وضوحها جغرافياً. **وثانياً**: السلطة المركزية ، بصرف النظر عن الأصل والمنشأ[1].

وإذا ما كان ابن خلدون قد قسم الدول ـ عموماً ـ إلى ثلاثة أشكال؛ وذلك

(١) ريتشارد تابر: الأنثربولوجيا والمؤرخون والقبيلة ، مجلة الاجتهاد ، ١٧/ ٤ (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م) ، ١٠٨.

وفقاً لطبيعة السلطة فيها ، وهي: دولة القبيلة ودولة الشخص المستبد ودولة الموالي[1] ـ فإننا نجد أن المستشرق تابر TAPER ركز اهتمامه فقط على الدول القبلية ، فقسمها إلى ثلاثة أشكال وهي: سلالة قبلية حاكمة تسيطر على منطقة يقيم فيها بشر من أصول متعددة ، ثم سلالة حاكمة غير قبلية تحمل إلى السلطة بمعونة قبلية ، وتستمر في الاعتماد عليها ، وأخيراً سلالة حاكمة على رأس تجمع قبلي يقيم على مساحة محدودة ، هي جزء من أراضي دولة مركزية ، وتماثل في سلطتها سلطة تلك الدولة ، لكنها دولة ثانوية[2].

ومما ينبغي التنبيه إليه هو عدم الخلط بين التنظيم القبلي والبداوة ، أو الربط بينهما ، فالتنظيم القبلي هو في الواقع موجود لدى البدو والحضر سواء بسواء ، يضاف إلى ذلك أن التقسيمات القبلية إلى عشائر ، وبطون ، وأفخاذ ، وأحياء ، وطوائف ، إضافة إلى تعابير «بنو» و«آل» و«بيت» ، تدل جميعاً على اختلاف ألفاظه ، على مستويات معينة في التسلسل الاجتماعي القبلي ، وذلك وفقاً لقربها من الجد الأصل ، أو بعدها عنه؛ لذا فإنه لا يصح أن يتخذ من هذه التعابير دليل على البداوة أو على نمط العيش[3].

ولما كانت السلطة ، كما يقول جورج بالاندييه: صفة ملازمة لكل مجتمع[4] ، فإن الوحدات الاجتماعية المشار إليها آنفاً ، هي التي تغدو صاحبة السلطة والسيادة ضمن هذا التقسيم القبلي ، وليست القبيلة نفسها ككل[5].

(١) تاريخ ابن خلدون (المقدمة) ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٢م ، ١/ ٢٧١ ـ ٢٧٧ ، ٢٩٣ ـ ٣١٣ ، ٣١٦ ـ ٣٠. وانظر أيضاً: محمد عابد الجابري ، «نظرية ابن خلدون في الدولة العربية» ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، ٢٧/ ٢٨ (١٩٨٣م) ، ٣٠ـ٤١.

(٢) الأنثروبولوجيا والمؤرخون ، ١٣٨.

(٣) فؤاد إسحاق الخوري ، السلطة لدى القبائل العربية ، (لندن ، دار الساقي ١٩٩٢م) ، ٧ ـ ٢٣. انظر أيضاً: عاطف عطية ، «الدولة المؤجلة» ، مجلة الاجتهاد ، ١٧/ ٤ (١٩٩٢م) ، ٢٢١.

(٤) الأنثروبولوجيا السياسية ، ترجمة: جورج أبو صالح (بيروت ، معهد الإنماء العربي ، ١٩٨٦م) ، ٣٨ ، ٥٨.

(٥) فؤاد الخوري ، المرجع السابق ، الصفحات نفسها. ١٧٧/ ٤. (١٩٩٢م) ، ٢٢١.

ويعلل ابن خلدون ذلك بقوله: «بأن العصبيات الخاصة هي أشد التحاماً من النسب العام لهم، لقرب اللحمة»[١].

ولقد اختلف الباحثون في تحديد مفهوم العصبية التي يعنيها ابن خلدون، ولكنه من الواضح أنه قد استعملها في معان عدة، وأن المعنى الأقرب لمقصده؛ هو ميل الناس إلى الترابط والتعاون فيما بينهم، أي: أنها إذا كانت في الأصل تعني النسب من الأقرب (بيت أو عشيرة) إلى الأبعد (مجموعة عشائر وقبائل)، فإن معناها هذا يتسع ليشمل مختلف أشكال الجماعة من القبيلة إلى التشكيل السياسي (الدولة)، بل وحتى الأمة التي تجمع كل المسلمين[٢].

ومهما يكن من أمر؛ فإن بنية النسب تسمح بإقامة علاقات سياسية أساسها المساواة بين جميع أفراد القبيلة، بما فيهم شيخهم؛ نظراً إلى أن المشيخة في القبيلة تظل اعتباراً وليس امتيازاً، لكننا نستدرك فنقول: إن هذا لا يعني أبداً الانتفاء الكلي لعلاقات السيطرة والخضوع، إذ لكل شخص مقامه، ومع المقام تأتي السلطة والامتياز التي تفضي إلى سيادة حقيقية يمارسها الشيخ، وتتماشى مع تطور العصبية[٣].

وفي كل الأحوال، فإن هذه التصورات والمفاهيم من المفيد استحضارها في دراستنا؛ لعلها تساعدنا في إذكاء فهم أفضل لطبيعة السلطة في دولة الجبور؛ التي هي هدف هذا البحث، ثم انعكاساتها على الأوضاع السياسية فيها، وذلك باستقراء النصوص وإضاءتها، على الرغم من ندرتها.

---

(١) المصدر السابق ص٢٣٠.

(٢) جورج لابيكا، السياسة والدين عند ابن خلدون، تعريب: موسى وهبة وزميله، (بيروت، ١٩٨٠م)، ٩٠ ـ ٩١؛ عبد الغني مغربي، الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون، ترجمة: محمد الشريف، (الجزائر، ١٩٨٦م)، ١٤٣ ـ ١٤٦؛ عزيز العظمة، ابن خلدون وتاريخيته (بيروت، ١٩٨١م)، ٥٢ ـ ٦٠. كذلك من المفيد مراجعة: محمد الجابري، العصبية والدولة: معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، (بغداد، ب. ت)، ٢٤٥ ـ ٢٩٥.

(٣) تركي علي الربيعو، «إناسة لدراسة المجتمع البدوي»، مجلة الاجتهاد، ٤/١٧ (١٩٩٢م)، ١٧١، وكذلك راجع: عبد الغني مغربي، المرجع السابق، ١٥٤ ـ ١٥٥.

قيام بداية دولة الجبور وتركيز السلطة فيها:

قامت دولة الجبور في الأحساء في حوالي منتصف القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد، ثم ما لبثت أن اتسعت رقعتها، وامتدت حدودها، وتنامت قوتها، وزادت في نفوذها لتصل إلى الحد الذي بلغته قبلها دولتا القرامطة والعيونيين، إن لم تكن قد جاوزته في ذلك، ويعود فضل إقامة ذلك الكيان إلى بني جبر، وهم بطن من بطون قبيلة بني عامر الجبورية النجدية؛ الذين كانوا مقيمين في بادية الأحساء والقطيف، حيث تتوافر الواحات، التي تقع ـ على الأرجح ـ في مناطق الجوف والستار (وادي المياه)[١]. ولعل السخاوي كان يشير إلى تلك المناطق عندما قال: إن أجود بن زامل الجبري، ولد سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) في بادية الأحساء والقطيف[٢].

وعلى أية حال، فإن الجبور قد تهيأت لهم فرصة لتدعيم قوتهم، وتوسيع نفوذهم، وذلك بالاستفادة أولاً من ضعف دولة الجروانيين في الأحساء، والتي كانت قد قامت سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ ـ ١٣٥٠ م)[٣]، وثانياً: ضعف مملكة هرموز، والتي كان يشمل حكمها معظم سواحل الخليج العربي، حيث تشكل القطيف جزءاً منها[٤].

---

(١) حمد الجاسر، المعجم الجغرافي للمنطقة الشرقية. (الرياض ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧١ م ـ ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢ م). مادة: الجوف، ١/ ٣٤٩ ـ ٥٠: مادة الستار، ٢/ ٨٢٣ ـ ٤٢، مادة: وادي المياه، ٤/ ١٧٨٠ ـ ٨٧.

(٢) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع. (بيروت، دار مكتبة الحياة، ب. ت) ١/ ١٩٠.

(٣) المقريزي، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق: محمد كمال الدين علي، (بيروت، ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢م) ١/ ١٢٨؛ كذلك انظر: ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (حيدر أباد، ط٢، ١٣٩٢م) ١/ ٨٣، ومن الجدير بالذكر أن كتاب ابن حجر قد ورد فيه، بأن قيام تلك الدولة كان سنة ٧٠٥ هـ، مع العلم أن مصدره في ذلك هو المقريزي، مما يرجح جداً بأن هناك تصحيفاً في التاريخ الذي ورد عند ابن حجر. هذا وقد عرف من بين حكام تلك الدولة جروان المؤسس، وابنه ناصر، وحفيده إبراهيم، والذي كان لا يزال في الحكم سنة ٨٢٠ هـ، حيث يرجح أن الدولة سقطت فيما بعده.

(٤) حول علاقة مملكة هرموز بكل من البحرين والقطيف والأحساء، راجع: عبد اللطيف الناصر الحميدان، «إمارة العصفوريين ودورها السياسي في شرق الجزيرة العربية»، مجلة كلية =

ومن الجدير بالذكر أن كوبر KUPPER أوضح أن أي شيء يؤدي إلى ضعف الحكومة في مناطق الاستقرار ، فإنه يؤدي إلى تغلغل البدو في تلك المناطق[1] ، كما أن بارث BARTH أثبت بأن الذين يميلون إلى الاستقرار من البدو ، هم الأكثر غنى ، وكذلك الأكثر فقراً[2].

وعلى أية حال ، فإن مثل هذا التغلغل يثير أحياناً خوف السلطة منه ، وأن الجروانيين وجدوا أنفسهم مضطرين -نتيجة لضعفهم- إلى الاستعانة بشيخ الجبور زامل بن حسين بن ناصر الجبري العامري العقيلي النجدي ، وأن يمنحوه بعض الامتيازات المالية المجزية ، وذلك مثلما فعل قبلهم العيونيون حينما منحوا مثل تلك الامتيازات للعصفوريين[3].

وقد استفاد زعيم الجبور من تلك الثروة؛ التي توافرت له ، ومن الارتباط الذي نشأ بين الدولة وسلطته ، لاستمالة عدد من القبائل والموالين ، ودمج عصبياتهم مع عصبية بني جبر ، وتكوين رابطة واحدة تنتسب للعشيرة الأساس ، وتسمى باسمها ، ويميزها أساساً العامل السياسي الذي ينطوي ، دون شك ، على اعتبارات اقتصادية[4].

وعلى أية حال ، فإن تنامي قوة زعيم الجبور هذا ، قد أثارت ، إلى حد

= الآداب بجامعة البصرة ، (١٩٧٩م) ، ١٥/٦٩ ـ ١٤٠ خصوصاً ، ١٠٨ ـ ١١٣. كذلك راجع للباحث نفسه: «التاريخ السياسي لإمارة الجبور في نجد وشرق الجزيرة العربية». المرجع نفسه ، (١٩٨٠م) ١٦/ ١٣ ـ ٦٣.

(١) J.R.Kupper, in JESHO, (1939), 113f: M-b- Rowton, «The role of water courses in the grouth of) Mesobotamain civilization. «In Altar Orient uns Altes testament, Bd- 7 - 1069, p.16- esp. 311- 12.

(٢) نقلاً عن: M.B- Rowton, «Autononmy and Nomad - ism in Westem Asia «in Orientalia, 42 nova Series, fasc - 12, (Rome), 1973, p. 247 - 58, esp. 244-54.

(٣) الحميدان ، «إمارة العصفوريين». المرجع السابق ، ٨١ ـ ٨٥. وحول الدولة العيونية ، راجع: عبد الرحمن المديرس ، الدولة العيونية في بلاد البحرين ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة الملك سعود ، (١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤م).

(٤) عزيز العظمة ، المرجع السابق ، ٥٥.

كبير مخاوف الجروانيين؛ الذين كانوا قد ساهموا كثيراً في ترقيته وبروزه ، مما حملهم على محاولة كسر شوكته ، إلا أن تلك المحاولة باءت بالفشل الذريع ، وكانت وبالاً عليهم ، حيث يذكر السخاوي أن حاكم بني جروان خطط لقتل سيف بن زامل الجبري ، الساعد الأيمن لوالده زامل ، لكن تلك المؤامرة سرعان ما اكتشف أمرها ، وأدت إلى ثورة الجبور في وجه الجروانيين ، حيث أغاروا على مركز حكمهم في الأحساء ، وقتلوا الحاكم الجرواني ، وأزالوا كيانه ، فكان هذا الحدث بداية لقيام دولة الجبور[1].

وهكذا فإن الالتحام الاجتماعي من جهة ، وعلاقة التبعية ، وزعامة الرئيس ، وسيطرته من جهة أخرى ، شكلت عصبية قوية نجحت في إقامة دولة الجبور؛ التي كانت في تركيبها الاجتماعي عند بدايتها مزيجاً من البداوة والتحضر ، كما هو الحال في الدولة التي قامت قبلها في المنطقة. ولعل ابن بسام يصور لنا تلك التركيبة خلال وصفه لجيش الشيخ زامل الجبري مؤسس الدولة ، وكذلك لجيش ولده أجود ، حينما يقول: إنه «مؤلف من البدو والحضر»[2] ، فكان من الطبيعي أن يكون لهذه الخصائص ، حضرية كانت أم بدوية ، الأثر الفاعل في البناء السياسي والاجتماعي والاقتصادي للدولة؛ إذ من الثابت أن الأنظمة السياسية ، ومفاهيم السلطة فيها ، تتنوع بتنوع البنية الاجتماعية ، وطبيعة تركيبها.

إن أون لاتيمور Owen Lattimore ينظر إلى الوضع الذي ينشأ نتيجة لاجتياح زعماء القبائل البدوية مناطق الاستقرار ، بأن سلطتهم على أتباعهم سوف تتغير ، من الوشائج القرابية المتسقة مع الروابط القبلية ، إلى أتباع وفق الأسس الإقطاعية ، فهؤلاء الأتباع يتحولون إلى مزارعين ورجال سلطة

---

(١) الضوء اللامع ، ١/ ١٩٠.

(٢) عبد الله بن بسام (ت ١٣٤٦هـ/ ١٩٤٨م) ، تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق ، مخطوطة نقلها عن الأصل نور الدين شريبة سنة ١٣٧٥هـ ، انظر: حوادث سنة ٨٥١هـ ، وسنة ٨٥٥هـ. أما وصفه لجيش السلطان أجود ، فانظر: حوادث سنة ٨٨٧ هـ و٨٩٣هـ ، وسنة ٩٠٠هـ ، الأوراق ٧أ ـ ١٦أ.

حكومية ، ويفقدون قابليتهم للابتعاد عن زعيمهم؛ مما يشكل وضعهم الجديد تمييعاً للنظام الاجتماعي القبلي البدوي ، واندماجاً بسلطة الدولة[١].

وعلى أية حال ، إن لفظتي الحضر والبدو تعنيان في الواقع تقسيم السكان اجتماعياً ، وفق نمط الحياة على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، إضافة إلى مستوى البنية الذهنية[٢].

ويضاف إلى ذلك أن الفاصل بين التحضر والبداوة من الممكن أن يتراجع ويتقلص بتغيير أوليات عناصره ، فالبداوة هي في الواقع عند مستويات عدة ، تتراوح بين التوغل في القفار والاعتماد على الإبل كمصدر رئيس للعيش ، وبين الاستقرار في الواحات والجبال ، والاعتماد على الزراعة كمصدر للعيش[٣] ، وعند الوضع الأخير تكون مهيأة لأن تنتقل إلى طور التحضر كنمط معيشة ، وكتنظيم اجتماعي أكثر تعقيداً مما سبق ، أساسه القبيلة ، وكممارسة للسلطة السياسية القائمة على العصبية والحلف والولاء والاستتباع والتوازن المضاد ، وحتى القسر ، وكبنية ذهنية أيضاً[٤] - وعلى العكس من ذلك ، فإن التحضر

(١) انظر :

S.L.Pastner, «Lords of the desert border», Int. J.Middle East Sts. 10 (1979). Pp. 93-106.

(٢) عاطف عطية ، المرجع السابق ، ٢٢١.

(٣) قسَّم ابن خلدون البدو إلى ثلاثة أصناف ، أولاً: البدو الأقحاح ، وهم الموغلون في البادية ، وعماد معيشتهم على الإبل. وثانياً: أنصاف البدو أو الشاوية ، وهم الذين يعيشون على أطراف البادية ، ويعتمدون في معيشهم على الأغنام والماعز ، وأحياناً البقر. وأخيراً: أولئك المستقرون في الواحات والأرياف والجبال والوديان ، ويعتمدون في معيشتهم أساساً على الزراعة. والنصف الأخير هم المهيؤون لإقامة دولة ، كما أنهم أكثر استعداداً للتحضر من الصنفين السابقين. تاريخ ابن خلدون (المقدمة) ، ١٠/ ٢١٢ ـ ١٣.

(٤) عاطف عطية ، المرجع السابق ، الصفحة نفسها. وحول مفهوم القبيلة والمجتمع القبلي لنماذج غير عربية راجع :

M.H.Fried, «on the concepts of tribe and tribal society», in June Helm, (ed) Essays on the problem of tribe (seópattle, 1968) pp. 3-19.

كنمط معيشة ، وكتنظيم اجتماعي وسياسي لا يتحول إلى البداوة ، وهذا ما تنبه له ابن خلدون منذ عهد بعيد[١].

وعلى أية حال فإن زامل الجبري ، المؤسس لدولة الجبور[٢] ، كان لا بد أن ينتهي به التفكير إلى من سيخلفه في السلطة ويقودها من بعده ، لكن هذا الأمر ، فيما يبدو ، كان محسوماً سلفاً؛ إذ كان أكبر أولاده سيف هو الأبرز بينهم ، لما أظهره من مواهب قيادية ، من خلال مشاركته النشطة في تأسيس تلك الدولة في عهد والده[٣] ، فاختيار سيف إذاً لتولي الحكم خلفاً لوالده ، فيه تدعيم للحملة العصبية ، من دون أن يكون فيه خروج على الأعراف السائدة.

ثم نجد أنه على أثر وفاة سيف ، خلفه أخوه أجود ، في حدود سنة ٨٧٥هـ/ ١٤٧٤م ، والذي كان هو الآخر قد شارك والده في بناء الدولة ، مثلما شارك أخوه سيف من بعده ، وأظهر خلال ذلك مواهب أكسبته الاحترام والهيبة. وقد تأكد ذلك الاحترام ، وازدادت تلك الهيبة بعد توليه السلطة ، حينما نجح في دفع حدود مملكة الجبور ، ومناطق نفوها إلى بقاع واسعة ، وذلك بضمه البحرين وأجزاء واسعة من نجد؛ ليصبح بذلك أقوى زعماء جزيرة العرب وحكامها ، وعلى وجه الخصوص عند سواحل الخليج العربي[٤].

إن ابن خلدون عندما استحضر ما حدث لقوى قبلية ، نجحت في إقامة كيان سياسي لها في الماضي ، لعله كان يحاول أيضاً أن يستشرف المستقبل ، ويتصور ما سيحدث لقوى قبلية أخرى قادمة ، وذلك عندما قال: «إن القبيل

(١) تاريخ ابن خلدون ، ١/ ٢١٤ ، ٣٠١ ـ ٢ ، ٣ ، ٣٠٤.

(٢) يفهم بأن زامل هو المؤسس من خلال ترجمة نجم الدين الغزي (ت ١٠٦١ هـ/ ١٦٥١م) لصالح بن سيف بن زامل حينما قال: إنه «من بيت السلطنة هو وأبوه وجده». راجع: الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة. تحقيق جبرائيل جبور (بيروت ، ط٢ ، دار الآفاق ١٩٧٩م) ١/ ٢١٥. كذلك راجع: ابن العماد الحنبلي ، (ت ١٠٨٩ هـ). شذرات الذهب في أخبار من ذهب. (بيروت ، دار الفكر ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م) ، ٨/ ١٧٢ ـ ١٧٣.

(٣) راجع الحميدان ، «التاريخ السياسي لإمارة الجبور في نجد» المرجع السابق.

(٤) الحميدان ، المرجع نفسه ، كذلك راجع للباحث نفسه «مكانة السلطان أجود بن زامل الجبري في جزيرة العرب». مجلة الدارة ، ٧/ ٤ (١٤٠٢هـ) ، ٥٦ ـ ٧٦.

الواحد ، وإن كانت فيه بيوتات متفرقة وعصبيات متعددة ، فلا بد من عصبية تكون أقوى من جميعها ، تغلبها وتستتبعها وتلتحم جميع العصبيات فيها ، وتصير كأنها عصبية واحدة كبرى» .

ثم يضيف قائلاً : «ثم إذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها ، طلبت بطبعها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها ، وإن غلبتها طلبت غاية في التغلب والتحكم أعلى من الغاية الأولى وأبعد ، وهكذا دائماً حتى تكافئ بقوتها الدولة ، فإن أدركت الدولة في هرمها ، ولم يكن لها ممانع من أولياء الدولة وأهل العصبيات ، استولت عليها ، وانتزعت الأمر من يدها ، وصار الملك أجمع لها»[1] .

وقد لا نشتط كثيراً إذا قلنا : إن الصورة هذه التي رسمها ابن خلدون تساعدنا إلى حد كبير في تصور ما حدث للجبور ، منذ بدايتهم حتى نجاحهم في إقامة كيان سياسي واسع .

وعلى أية حال ، إن الملك الواسع الذي تحقق لأجود لا بد أن يكون قد قاده للتفكير في المحافظة عليه ، وأن استقرار أداة الحكم وتنظيمها ، هي أهم ما يجب أن يلتفت إليه ، خصوصاً بعد أن طال به العمر وطعن في السن[2] ؛ لذا فإن وراثة السلطة من بعده لا بد أن تكون قد احتلت جانباً من تفكيره ، كما يجب أن نشير إلى أنه ربما كان يخشى من وقوع الشقاق على السلطة فيما بين أولاده من بعد وفاته ، مثلما كان يخشى أيضاً من ذوي الطموحات والنفوذ من أمراء الجبور أنفسهم ، خصوصاً وأن اتساع الدولة ، والانسياق كثيراً نحو الملك ، لا بد أن يكون قد رافقه ضعف في الروابط العصبية التي قامت زعامة الأسرة الحاكمة على دعائمها ، الأمر الذي يستلزم إخضاع الجماعة لنظام هرمي قوي ، وتحويل العصبية إلى قوة محركة بوجود زعيم مهاب على رأس هذا الهرم .

(١) تاريخ ابن خلدون ، ١/ ٢٤٥ .

(٢) ولد أجود بن زامل الجبري ، وكما ذكرنا ، في رمضان سنة ٩٢١ هـ/ تشرين الأول سنة ١٤١٨ م .

وعلى كل حال ، فإن السلطان أجود ما لبث أن انتهى إلى تقسيم البلاد بين أولاده الثلاثة ، وهم سيف ومحمد وعلي ، وقد وصف مؤرخ الحجاز عبد العزيز بن فهد (ت ٩٢١هـ/ ١٥١٥م) محمد بن أجود عند وصوله إلى مكة سنة ٩١٠هـ/ ١٥٠٥م ، على رأس قافلة حجاج الجبور ، «بأنه المتقدم عن أبيه في مملكته والمشار إليه»[1] ـ ولعل ذلك يدل على أن السلطان أجود ، كان قد نقل السلطة الفعلية لأولاده قبل هذا التاريخ .

وعلى كل حال ، فإن توريث أجود بن زامل السلطة لأولاده الثلاثة ، ضمن قيادة مشتركة ، هو بلا شك ، مراعاة للأعراف القبلية مثلما هو تدعيم لمظاهر الملك الذي هو غاية العصبية ـ كما يقول ابن خلدون[2] ، فأجود كان يحاول ـ فيما يبدو ـ المواءمة ما بين مظاهر الملك والأعراف القبلية ، والتي هي عند ابن خلدون «سؤدد ، وصاحبها متبوع ، وليس عليهم قهر في أحكامه ، أما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر»[3] .

ولعل تنوع الألقاب التي كانت تطلق على أجود بن زامل ، يحمل في مضامينه العديد من الدلالات ، فعند السمهودي (ت ٩١١هـ/١٥٠٦م) هو «ريس أهل نجد ورأسها ، سلطان البحرين والقطيف»[4] ، كما أن السخاوي أطلق عليه مثل هذه الألقاب أيضاً ، حينما وصفه بـ«ريس نجد»[5] ، فكلمة «الريس» ذات مدلول قبلي ، وتعطي معنى الشيخ أيضاً ، كما يمكن أن يلاحظ أن أجود وحكام الجبور من بعده ، كانوا يحملون لقب «السلطان الشيخ» في آن

(١) انظر : بلوغ القرى في ذيل إتحاف الورى بأخبار أم القرى . مخطوطة مصورة في مكتبة جامعة الملك سعود ، رقم ٧٣/ ١ ، (أخبار سنة ٩١٠هـ) . لقد أخطأ ابن فهد حين اعتبر علياً ولداً لمحمد بن أجود . بينما الصحيح أنه كان أخاً له ، ويبدو أن ابن فهد نفسه قد تدارك خطأه في أخبار سنة ٩١٢هـ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ، ١/ ٤٤٦ .

(٣) المصدر نفسه ، ١/ ٤٤٤ .

(٤) وفاء الوفا بأخبار المصطفى . تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، (القاهرة ، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م) ، ٣/ ١٠٩٣ .

(٥) الضوء اللامع ، ١/ ١٩٠ .

واحد ، فلقب الشيخ هو ذو مدلول قبلي؛ إذ تعرف القبيلة عادة باسم شيخها؛ لأنها ليست تنظيماً سياسياً؛ لذا فإن لقب ابن جبر ـ الذي كان يعتز أجود بحمله ، ثم أوصى ولده الأكبر بحمله من بعده ، كما سوف يأتي ـ هو دليل قوي على المفهوم القبلي لسلطة الجبور .

وأخيراً ، وضمن هذا السياق ، علينا الانتباه إلى أن عبارة «بنو جبر» لا يقصد بها الإشارة إلى البيت الحاكم فحسب ، بل إن استعمالها كان يتسع ، مع اتساع سلطة ذلك البيت ، أو العشيرة ، وتأسيس عصبية كبرى ضمت في كنفها القبائل والبطون والعشائر والبيوتات الكبيرة ، على امتداد رقعة جغرافية واسعة ، فهي الهوية للكيان الجديد ، (التبعية).

ومثلما يقال عن دلالات عبارة «بنو جبر» يمكن أن يقال عن عبارة «بلاد بني جبر» ، أو سلطنة بني جبر ، أو مملكة بني جبر .

بقي الإشارة إلى لقب «السلطان» فإنه يحمل حقيقة الدلالة على مركزية السلطة ، وهي صفة من صفات الحكم في الدول ، كما يحمل في طياته دلالات على شرعية السلطة الحاكمة ، ولعل أجود استطاع اكتسابها من خلال ارتباط كيانه الوثيق بحكومتين تحملان صفة الشرعية ضمن العالم الإسلامي ، وتكتسبان احترامهما في هذا الخصوص ، وهما حكومة الأشراف في الحجاز ، ودولة المماليك في مصر حيث مقر الخلافة العباسية هناك .

وعلى كل حال ، فلم تمضِ سوى فترة قصيرة على إنشاء أجود قيادة مشتركة بين أولاده «الثلاثة» حتى توفي ، وذلك في حدود سنة ٩١١هـ/ ١٥٠٥ ـ ١٥٠٦م ، تاركاً بصماته القوية على الهوية السياسية للسلطة في دولة الجبور العظمى .

* * *

سلطة الجبور بعد التأسيس

عقب وفاة السلطان أجود بسنتين تقريباً ، دخل الأسطول البرتغالي مياه الخليج العربي لأول مرة ، وذلك في أواخر صيف عام ٩١٣هـ/١٥٠٧م ، يقوده الفرنسو البوكيرك (ت ٩٢١هـ/ ١٥١٥م) ، ولقد دونت كل نشاطات هذا القائد وأعماله في البحار الشرقية ، فاختص الخليج العربي بقدر كبير نسبياً من الاهتمام؛ لذا فإن المعلومات التي احتواها سجلُّ أعماله ذات قيمة تاريخية ثمينة ، ولقد ورد فيها بالطبع ذكر للجبور ، حيث قال:

«إن العرب يطلقون على الأجزاء الداخلية من تلك البلاد اسم جزيرة العرب؛ لأن مياه البحر الأحمر والبحر الفارسي (الخليج العربي) تحيط بها ، وهذه البلاد تحكم جميعاً من قبل ملك يسمى «ابن جبر» ، وكان لهذا الرجل ثلاثة أولاد جعلهم يقتسمون البلاد عند وفاته؛ على أن يبقى الكبير من بينهم محتفظاً على الدوام بلقب «ابن جبر» كما كان والده ، وإن على أخويه أن يعترفا به على أنه عاهل دولتهم»[(١)].

وقد حاول البوكيرك أيضاً تحديد أراضي تلك المملكة ، فقال: إن مدينة مسقط هي جزء من مملكة هرموز.

أما باتجاه الشمال فإنها تمتد بمحاذاة سواحل بحر فارس ، ثم تنعطف لتصل إلى جوار مكة ـ إن هذه البلاد مقسمة فيما بين هؤلاء الإخوة[(٢)] ـ ثم إن البوكيرك يحدد كل قسم من تلك الأقسام التي يحكمها الإخوة ، حيث يقول: «ويَحْكُمُ ـ ابن جبر ـ كلاً من الفرتاق ، وظفار ، وقلهات ، ومسقط حتى تصل حدوده

(١) The Commentaries of The Great Afonso Dal Boquerque. Trans By W.de Gray Birch. (New York, repinted 1970) Vol. 1,p. 84.

(٢) 6I bid. pp. 83 - 84.

إلى بلاد شيخ عدن ، والكويت ، وقطر ، والبحرين»[١].

ومن المؤكد أن البوكيرك يشير بذلك إلى المناطق التي كان يحكمها سيف بن أجود ، والذي سبق له أن قام في حياة والده سنة ٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م ، بإخضاع أجزاء واسعة من عمان ، وتولى الحكم فيها[٢] ، وهذا يعني أن أجود كان قد قرر إبقاء سيف في حكم عمان، وأن الأخير كان قد رضي بذلك، كما أنه يفهم أيضاً من قول البوكيرك بأن سيف كان هو الأكبر من بين أولاد أجود؛ الذين هم على قيد الحياة ، وبأنه هو المقصود بحمل لقب «ابن جبر» خلفاً لوالده.

وعلى كل حال فإن البوكيرك يستمر في حديثه عن بقية أقسام المملكة ، والتي يحكمها أخوا «ابن جبر» حيث يقول: «أما الاثنان الآخران فإنهما يقيمان عند ساحل البحر الفارسي [الخليج العربي] ، وأن أحدهما كان قد انتزع جزيرة البحرين والقطيف والكويت من ملك هرموز»[٣].

وإشارة البوكيرك هذه لا بد أن يكون المقصود بها كلاً من محمد بن أجود وعلي بن أجود ، أما الذي انتزع البحرين والقطيف فالمقصود به محمد؛ إذ إنه هو الزعيم البارز أثناء ذلك الوقت ، والذي يملك السلطة والنفوذ في تلك الجزاء ، كما يفهم من قول ابن فهد المشار إليه آنفاً.

وأخيراً يفهم من ذلك أيضاً بأن استيلاء الهرموزيين على البحرين والقطيف قد وقع في حدود ٩١١ هـ/ ١٥٠٦ م ، أي: قبيل وفاة السلطان أجود أو بعدها بقليل؛ إذ إن الهرموزيين لا بد أنهم كانوا يراقبون أوضاع الجبور عن كثب ، لكي ينفذوا ما كانوا يتطلعون إليه دائماً ، وهو إخضاع تلك البلاد لسلطنتهم[٤].

(١) يلاحظ أن في هذا الوصف مبالغة كبيرة فيما يتعلق بامتداد نفوذ الجبور. .Op. Cit. p.

(٢) الحميدان ، التاريخ السياسي لإمارة الجبور ، المرجع السابق ، ٥٥ ـ ٥٦.

(٣) ..Op. Cit, p,84 ومما تجدر الإشارة إليه أن نص البوكيرك قد اقتبسه Miles مايلز حرفياً واستخدمه بشكله الصحيح. أما الترجمة العربية لكتاب مايلز ، فقد تصرفت بهذا النص حتى بعدت به عن معناه الأصلي ، انظر: الخليج بلدانه وقبائله ترجمة: محمد أمين عبد الله ، (القاهرة ، ١٩٨٢ م. منشورات سلطنة عمان) ، ٣٥٧.

(٤) لقد تم تداول السيطرة على البحرين والقطيف بين الهرموزيين والجبور عدة مرات ما بين عامي ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م ، و٩٢٧هـ/ ١٥٢١م.

وعلى كل حال ، فليس هناك معلومات عن سيف (ابن جبر) وعن أحوال عُمان في عهده؛ لذا فإن الحديث سوف ينصب على إخوته ومنطقة حكمهم ، فلقد انتقلت السلطة السياسية في تلك الأجزاء الحيوية من المملكة ، وهي البحرين وقطر والكويت والقطيف والأحساء ونجد ، إلى محمد بن أجود ، في حدود سنة ٩١١هـ/ ١٥٠٦م ، حيث توجهت إليها أنظار المؤرخين ، وأهملوا عمان.

فلقد وصف ابن فرج (ت ١٠١٠هـ/ ١٦٠٢م) ، محمد بن أجود عند وصوله إلى مكة سنة ٩١٢هـ/ ١٥٠٦م على رأس قوة كبيرة ، وبرفقته مقرن بن زامل ، وصالح بن سيف ، بأنه «سلطان البحرين والحسى والقطيف»[١] وهذه الألقاب لم يضفها عليه المؤرخ المكي ابن فهد المعاصر للأحداث ، والقريب منها ، إلا أن مثل ذلك لا ينقض تلك الصفات التي أطلقها ابن فرج عليه؛ لأن البوكيرك الذي دوَّن الأحداث عن قرب أيضاً ، قد صرح بوفاة السلطان أجود وانتقال السلطة لأولاده ، وأن أحدهم ـ وإن لم يذكر اسمه ـ كان يحكم في المناطق الواقعة عند الساحل الشرقي ، وبأن البحرين والقطيف من ضمن ممتلكاته.

وقد يتساءل المرء عن الابن الثالث لأجود ، والذي لم تذكر منطقة نفوذه ، وللإجابة عن ذلك ، نقول بأن المؤرخين مثلما تجاهلوا ولده الأكبر ، فإنهم قد أغفلوا أيضاً الإشارة إلى ولده الأصغر علي ، والذي يبدو أن السلطة الفعلية كانت بيد أخيه محمد ، وأن علياً كان يشارك في السلطة بقدر ما.

وعلى أي حال ، فإن من المحتمل أن محمد بن أجود لم يكن يملك تلك

(١) السلاح والعدة في تاريخ بندر جدة. حققه: د. أحمد الزيلعي وزميله ، ونشر في بريطانيا ، ١٩٨٤م ، انظر: ٣٤ ـ ٣٥ ، كما حقق هذا المخطوط أيضاً: محمد صالحية ، (بيروت ١٩٨٣م) ، انظر: ٥٦ ـ ٥٧. ومن الجدير بالإشارة أنه ورد في هذا المصدر أن محمد بن أجود قد صادف وصوله إلى مكة وصول الكسوة إليها في ١٧ ذي الحجة. والواقع أن المحققين لم ينتبهوا إلى أن هذا التاريخ يقع بعد انتهاء شعائر الحج؛ مما يجعل احتمال وقوع خطأ في هذا التاريخ أمراً ممكناً. وعلى أية حال ، فإن ابن فهد في تاريخه حدد يوم وصول السلطان محمد بن أجود ، وهو التاريخ المرجح ، إلا أن المحققين لم يطلعوا ، مع الأسف ، على هذا المصدر. بلوغ القرى ، (حوادث عام ٩١٢هـ).

الشخصية القوية ، ولا المهابة التي كان يملكها والده؛ لكي يستطيع بها مواجهة الطامعين في السلطة من أمراء البيت الحاكم ، ويفرض إرادته عليهم؛ لذا فإنه لم يستطع ، وكما يبدو ، تعيين أخيه عليٍّ خلفاً له ، ولا ولده ناصر لوراثة السلطة ، فالأعراف القبلية ـ كما يبدو ـ هي التي تغلبت في اختيار خليفته ، حيث فاز بها صالح بن سيف بن زامل؛ مما يعني انتقال السلطة إلى أسرة سيف ، الأخ الأكبر لأجود؛ الذي سبق له أن لعب دوراً رئيساً في تأسيس كيان الجبور السياسي ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

والواضح أن الأميرين صالح بن سيف ومقرن بن زامل هما الشخصيتان البارزتان في البيت الحاكم خلال تلك الفترة. وإذا ما تميز مقرن بالشجاعة ، والمشاركة بدور كبير في قيادة الحملات العسكرية وقوافل الحجيج ، جنباً إلى جنب مع السلطان محمد بن أجود[1] ، فإنه من المحتمل جداً أن صالحاً ، بالإضافة إلى أنه أكبر سناً ، فإنه أوسع علماً وثقافة ، وخاصة في علوم الدين ، كما سوف نرى.

إن النص القيم والوحيد الذي يشير إلى تولي صالح السلطنة ، هو الذي أورده المؤرخ الغزي ، حين ترجم له ، ووصفه بأنه: السلطان بن السلطان ، متملك بلاد بني جبر ، كان من بيت السلطنة هو وأبوه وجده[2].

انشقاق البيت الحاكم:

استلم السلطان الجديد صالح بن سيف السلطة في ظل أوضاع تحمل في طياتها الكثير من المخاطر والمتاعب ـ فكان لظهور البرتغاليين في المحيط

(١) ابن فهد ، المصدر السابق ، حوادث عام ٩١٢هـ.

(٢) الكواكب السائرة ، ١/ ٢١٥ ، كذلك راجع: شذرات الذهب ، ٨/ ١٧٢ ـ ٧٣. ومن الجدير بالذكر أن صالحاً حضر إلى دمشق بعد أن نزعت السلطنة منه بفترة من الوقت ، وتلقى فيها بعض الدروس على يد جد المؤلف وعلى يد والده أيضاً. وأن اسم والد صالح قد ورد عند الغزي على أنه يوسف وليس سيف ، في حين أن ابن العماد الحنبلي ، المصدر السابق ، الذي نقل الترجمة حرفياً عن كتاب الغزي أورد اسمه صحيحاً ، مما يرجح وقوع تصحيف في اسم سيف في الكتاب الأخير.

الهندي والبحار العربية ، قبيل توليه الحكم ، تأثيره الكبير في مجمل الأنشطة الاقتصادية في تلك المناطق. وقد تولد هذا التأثير نتيجة لسعي البرتغاليين المتواصل لتحطيم النظام التجاري القديم المحكم؛ الذي كان سائداً في المنطقة منذ أقدم العصور والأزمان ، ثم التحكم في النشاط التجاري فيه عن طريق العنف والابتزاز.

كان طبيعياً أن يولد ذلك حالة خوف وفزع في النفوس ، وعلى وجه الخصوص في نفوس المسلمين ، بعد أن تحول هذا العدو الدموي الذي يمثل بث وجه أوروبة الجديدة القادمة لافتراس القلب المسلم ، إلى متحدٍّ لوجودهم ، ومستفز لمشاعرهم ، فكان أن ظهرت عدة محاولات من كيانات إسلامية للتصدي له ، إلا أنها باءت بالفشل[1].

وعلى أية حال ، فإن تجارة الخليج العربي قد شهدت ارتباكاً كبيراً ، ولفترة من الوقت ، خاصة وأن هذه الأحداث قد تزامنت مع ظهور دولة شيعية في إيران ، ذات أطماع توسعية ، تلكم هي الدولة الصفوية ، الأمر الذي زاد في تعقد الأوضاع في الخليج.

ولم تكن دولة الجبور ، بالطبع ، بمعزل عن تلك التحديات ، بل واجهت ما هو أسوأ ، وذلك بتعرضها لغزو هرموزي جديد؛ أدى إلى انتزاع البحرين والقطيف فقد قام ملك هرموز ، كما يقول المؤرخ البرتغالي كستنيدا ـ Castanheda (ت ٩٦٦هـ/ ١٩٥٥م) ، بحملة بحرية ضد الجبور سنة ٩١٧هـ/ ١٥١١م ، نجح خلالها في الاستيلاء على البحرين والقطيف[2]. ويحتمل أن هذا الغزو وقع بعد وفاة السلطان محمد بن أجود مباشرة. وإذا ما صح هذا الاحتمال ، فإنه يمكن أن يتخذ من هذا الحدث نفسه كبداية لحكم السلطان صالح.

(١) انظر:
B.W. Diffie & G.D. Winius, Foundations of the Portuguese Empire., (Univ. of Minnesota Press, 1977), pp. 230 - 42, 288 - 300.

(٢) Historia do descobrimento & Conquista do India pesos Poruqueses. ((COimbro, 1928) Tomo, 11, Livro, 111. Cap. Lxxi, P.178.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا ، أن ابن فهد المكي ، لم يشر إلى قافلة خاصة بالجبور ، وذلك حينما ذكر الحجاج القادمين في موسم حج سنة ٩١٧هـ (١٥١١ ـ ١٥١٢م) ، وإنما قال: حج جماعة من بلاد ابن جبر[١] ، من دون أن يذكر أن لهم أميراً يقودهم: إن قلة القادمين للحج من بلاد الجبور في ذلك العام تجعلنا نرجح بأنه كان مرتبطاً بالحدث المار ذكره ، والذي وقع في العام نفسه.

على أية حال ، فإن الظروف والتحديات التي أشرنا إليها تتطلب سياسة هدفها حشد الجميع في خندق واحد ، وجبهة متراصة لمواجهتها ، فهل استطاع السلطان الجديد تحقيقها؟ إن الجواب على ذلك يحتاج إلى التعرف على سياسته.

الواقع أن السلطان صالح كان قد نشأ نشأة دينية ، شغوفاً بعلوم الدين ، ومتعلقاً بجملته ، فقد وصفه الغزي أنه: «كان مالكي المذهب ، فقيهاً متبحراً بالفقه والحديث ، وله مشاركة جيدة في الأصول والنحو ، ومحباً للعلماء والصلحاء...»[٢]. ولعلنا لا نشتط كثيراً إذا ما قلنا: إن توجه السلطان صالح الفكري هذا قد أثر في سياسته العامة ونهجه في الحكم؛ إذ يرجح أنه قرَّب علماء الدين إليه ، وأدناهم منه ، حتى نجحوا في كسب ثقته الزائدة بدهائهم ، وحسن تصرفهم ، فاعتمد عليهم في الحكم ، واتخذ منهم مستشارين له ، وهذا يعني أنهم قد استأثروا بالمكانة التي كان عليها أفراد البيت الحاكم ، والزعامات التي ساهمت بدور بارز في بناء الدولة.

ويضاف إلى ذلك أن السلطان كان طبيعياً أن يحتاج إلى الأموال بصورة مستمرة؛ من أجل إغداقها على المرتبطين بخدمته ، لكن مثل هذا الأمر ليس من السهل تحقيقه؛ نظراً للظروف الاقتصادية التي تحيط بالبلاد ، والتي أشرنا إليها سابقاً ، خصوصاً بعد خروج البحرين والقطيف من سلطة الجبور.

وهنا لا بد أن يكون السلطان قد أطلق يد موظفيه وأزلامه لمعالجة النقص

(١) بلوغ القرى ، (حوادث سنة ٩١٧هـ).
(٢) الكواكب السائرة ، ١/ ٢١٥.

في الخزينة ، عن طريق جمع الأموال والضرائب من السكان ، وأن مثل هؤلاء الأشخاص ، حين قيامهم بجمع الأموال من السكان ، لا بد أنهم قد تصرفوا وفق مفاهيمهم الخاصة ، أي: بالنظر إلى ثروة البلاد على أنها حق موروث للسلطان ، وأنهم في تصرفاتهم ، فوق الإدارة العامة ، وفوق القانون[١] ، الأمر الذي أوقعهم ، دون شك ، في تجاوزات ومظالم أثارت الاستياء العام.

ويبدو أن السلطان صالح لم يكن ليدرك تمام الإدراك الآثار السلبية لسياسته؛ التي كان ينتهجها في حكم البلاد ، ووقعها في نفوس السكان عامة ، وفي نفوس أفراد الأسرة الحاكمة والزعامات العسكرية خاصة.

وقد يكون من المفيد هنا استحضار صورة كان قد رسمها ابن خلدون لما قد يحدث للكيان السياسي القبلي ، أثناء مرحلة التأسيس ، حيث تسود فيه المساواة في الأعباء والمغانم ، ثم ما ينتهي إليه بعد أن يحرز الانتصار الكامل ، وتستقر أوضاعه ، فينجو بالسلطة نحو الاستبداد والاستئثار بالمغنم ، حيث يقول ابن خلدون: «ولما كان المجد مشتركاً بين العصابة ، وكان سعيهم له واحداً ، كانت هممهم في التغلب على الغير ، والذَّبِّ عن الحوزة ، وإذا انفرد الواحد منهم بالمجد ، وقرع عصبيتهم ، وكبح أعنتهم ، واستأثر بالأموال دونهم ، تقبل على مناحي الضعف والهدم»[٢].

وعلى أية حال ، فهناك مسألة أخيرة يحسن النظر إليها ، وهي أن انتزاع الهرموزيين لأغنى ممتلكات الجبور ، البحرين والقطيف ، ثم بقاؤها بأيديهم ، من دون أن يستطيع السلطان صالح استردادها ، قد وضعه ، دون شك ، في موقف سياسي واقتصادي حرج ، بل ربما كان ذلك من بين الأسباب الهامة التي أثارت الاستياء من حكمه ، بين قطاعات هامة من السكان.

وعلى أية حال ، فإنه بعد مرور ثلاث سنوات ، وبالذات في حدود منتصف عام ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م ، توفي ملك هرموز ، كما توفي أيضاً وزيره القوي

(١) فؤاد الخوري ، المرجع السابق ، ٣١ ـ ٤٧.
(٢) تاريخ ابن خلدون ، ١/ ٢٣٩ ـ ٢٤١.

خواجه عطا ، فقام عرب البحرين إثر ذلك بثورة ضد حكم الهرموزيين ، واستطاعوا تحرير بلادهم ، ومن ثم إعادتها إلى حظيرة الوطن الأم ، شرق جزيرة العرب[١].

ويبدو أنه عقب هذا الحدث ، تم تسوية هذا النزاع بين ملك هرموز الجديد وبين سلطان الجبور ، وفق الاتفاقيات السابقة بينهما ، والتي كانت تتضمن التزام سلطان الجبور بدفع مبلغ سنوي محدد لملك هرموز ، لقاء احتفاظه بحكم البحرين والقطيف[٢].

ويستدل على التوصل إلى مثل هذا الاتفاق ، من خلال رسالة سلطان الجبور التي حملها مبعوثه إلى جزيرة جرون (هرموز) ، في أواخر صيف عام ٩٢١هـ/ ١٥١٥م ، للترحيب بالحاكم البرتغالي للهند البوكيرك؛ الذي وصل إلى هناك على رأس أسطول ضخم ، حيث تضمنت الرسالة إلى الأخير قوله : إن العلاقة بينه وبين ملك هرموز هي حسنة جداً ومتينة[٣].

على أية حال ، فإن المصادر لا تذكر ـ مع الأسف الشديد ـ اسم سلطان الجبور أثناء ذلك ، لكن من المرجح أنه كان صالح بن سيف ، وبأن التسوية التي عقدها مع ملك هرموز ، قد أثارت استياء عدد من زعماء البلاد؛ الذين نظروا إليها على أنها إهانة لهم ولبلادهم ، خاصة وأن السلطان أجود بن زامل كان قد توقف عن دفع أي مبلغ لملك هرموز ، ومثل ذلك فعل ولده السلطان محمد ، فكيف يتم الآن مثل ذلك ، بعد أن تم انتزاع البحرين والقطيف بقوة السلاح من ملك هرموز ، والذي هو في الواقع قد فقد معظم سلطانه ، بعد أن ارتهن بلاده للبرتغاليين[٤].

---

(١) National Archives of Rhodesia. Documents of the portuguede in Mo-zambijue and Central Africa. (Lisboa, 1965), Vol. Iv, pp. 225-59, esp. 245.
(رسالة البوكرك بتاريخ ٢٢ سبتمبر . أيلول ، سنة ١٥١٥ م).

(٢) الحميدان ، التاريخ السياسي لإمارة الجبور ، المرجع السابق ، ٤٧ ـ ٥٢ .

(٣) (رسالة البوكيرك) National Archives of Rhodesia.

(٤) الحميدان ، التاريخ السياسي لإمارة الجبور . المرجع السابق ، ٧١ ـ ٧٢ .

ومهما يكن ، فإن العلاقة بين السلطان صالح ومعارضيه؛ قد تأزمت حتى وصلت إلى حد الانفجار عند بداية سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م ، حيث أطيح به .

الإطاحة بالسلطان صالح:

هناك رأيان مختلفان حول فترة حكم السلطان صالح بن سيف ، وتقييم سياسته ، يعبر عن الأول منهما الغزي ، حينما يصف صالحاً بأنه كان : «شجاعاً مقداماً ، عادلاً في ملكه ، صالحاً كاسمه»[١]. في حين يعبر عن الثاني شاعر نجدي ، هو الكليف أو الجليف في قصيدته النبطية التي امتدح بها مقرن بن زامل[٢] بعد توليه السلطنة خلفاً لصالح ، حيث يصف فترة الحكم السابقة ، من دون أن يذكر اسم حاكمها ، بأنه عهد تفشى فيه الظلم[٣].

وعلى أي حال ، إن كلا الرأيين يحملان المبالغ في الوصف والتحيز ، إلا أن مما لا شك فيه ، هو ظهور استياء لدى قطاعات هامة من السكان ، ووجود تململ من حكم صالح ، وقد يكون ذلك قد حدث في أواخر عهده ، وبأن الأحداث التي سوف نذكرها ، ربما تؤيد ذلك .

---

(١) الكواكب السائرة ، ١/ ٢١٥ .

(٢) إن ناشر هذه القصيدة يذكر بأنها في مدح مقرن بن غضيب (قضيب) ، وهو شخص لا نعرف عنه أي شيء ، ولم نعثر له على ذكر ، ولا بد أن يكون هناك خطأ وقع في اسم والد مقرن. وعلى أية حال ، فإن محتوى القصيدة يتطابق مع فترة الصراع بين صالح ومقرن ، انظر : عبد الله بن خالد الحاتم ، خيار ما يلتقط من شعر النبط . (دمشق ، ط٢ ، ١٣٨٧ هـ) ، ١/ ٣٩ ـ ٤٣ . ومن الجدير بالذكر أن الأستاذ أبا عبد الرحمن بن عقيل ، تابع الحاتم في القول بأنها في مدح ابن غضيب (قضيب) ، وبنى عليها تصورات يصعب قبولها. انظر : أنساب الأسر الحاكمة في الأحساء ، الرياض ، (١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م) ، ١/ ٢٤٢ ـ ٢٦٠ .

(٣) وذلك حينما قال :

ورست بأمر الله بعد تزلزل   طابت معيشتها وزان ظلالها
وجرى بها الحق المبين أقلامه   وفر منها الجور وزاح أغلالها

ثم يقول :

ولي إمام في الديار وقد طمى   بالعدل يجري عقب جور خلالها
بالعدل وإصلاح العشيرة بعدما   كثرت وشاة السوْ بين رجالها

الحاتم ، خيار ما يلتقط ، ١/ ٤٠ ـ ٤٢ .

وإن مما يجدر ذكره ، هو أن حالة القلق والخوف عندما تسود بلداً ما ، تدفع ، من دون شك ، بالسكان للبحث عن مخرج لأزمتها ، والتطلع إلى زعيم قوي قادر على التصدي لها ، وانتشال البلاد والعباد من وهدتها ، فضروب النشاط الاقتصادي المختلفة تتطلب توافر الأمن والاستقرار ، فمصلحة بعض السكان ذات صلة بمصلحة السلطة السياسية القهرية ، ويبدو أن هذا هو ما كان واقعاً في دولة الجبور.

وأنه كان طبيعياً ، في ظل الأوضاع الاجتماعية السائدة فيها ، أن يتم الالتفات إلى وسائل سياسية تقوم على أساس استخدام القرابة العائلية ، ضمن إطار البحث عن زعيم جديد بين الأرستقراطية العشائرية الحاكمة ، خاصة وأن المفاهيم القبلية السائدة لا تعطي للقسم الذي يؤدَّى للرئيس أو الحاكم صفة ملزمة للتقيد به؛ حيث من الممكن فسخه ، والتحلل منه.

اتجهت الأنظار ، فيما يبدو ، إلى الأمير مقرن بن زامل ، والذي وصفه المؤرخ البرتغالي باروش Barros بأنه ذو شهرة واسعة بين العرب كفارس شجاع[١] ، وكان مقرن قد عبر ، هو الآخر ، عن عدم رضاه عن السياسة التي كانت تمارسها الهيئة الحاكمة ، والتجاوزات التي صدرت من بعض كبار أسرته ، وذلك بالانزواء والانسحاب من الحياة العامة.

وقد عبر الشاعر الكليف عن ذلك مخاطباً الأمير مقرن بقوله:

تـل العشيـرة مقـرن زاكـي الـوفـا حمال من أجل الخطوب أثقالها
قـد شـاف بـالأعمـام مـالا يـرتضـى بـالـدار واقفـي زاهـد بـأعمـالهـا
متضـايـل عـن ديـرتـه وأصحـابـه خوف القطيعة بالصديق وقالها[٢]

وعلى أي حال ، يفهم من أبيات الشاعر أن الوفود أخذت في التردد على مقرن تبث إليه بشكواها من الأوضاع ، وتحثه على المجاهرة بالاعتراض عما

(١) J,de Barros, Da Asia. (Lisboa, Reprinted, 1973) Decada 111 Liv. Vi Cap. V. p.46.

(٢) الحاتم ، المرجع السابق ، ومن الجدير بالإشارة هنا أن كلمة الأعمام الواردة في القصيدة ، قد تعني: من هم أكبر منه سناً من أقربائه ، مثلما تعني: إخوة أبيه أو إخوة جده.

كان يجري في البلاد ، بل ولربما حرضوه حتى على حمل السلاح؛ مظهرين استعدادهم للوقوف إلى جانبه.

وقد عبر الشاعر عن هذا المعنى ، بقوله:

حتى بقـي الطـراش يتعـب بعضهـم بعض وتشتكي ما جرى في حالها
ويقـال يـا سـتـر العشيـرة قـد بقـي قطـع بـأيدي الظـالمين خـلالهـا[١]

استجاب الأمير مقرن ، فيما يبدو ، إلى إلحاح المستائين ، فخرج من صمته ، وعمد إلى المطالبة بالإصلاح ، ثم ما لبث أن حمل السلاح من أجل ذلك ، والتف حوله الأنصار والمريدون بأعداد كبيرة ، فكان ذلك إيذاناً ببداية مرحلة جديدة في تاريخ دولة الجبور ، والتي اتسمت بالصراع الدامي داخل البيت الحاكم ، ووقعت أحداثها ، على الأرجح ، عند بداية عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م[٢].

ويصف الغزي ، المتعاطف مع صالح ، المعارك الدامية؛ التي دارت في الأحساء بين الأمير مقرن وخاله السلطان صالح ، بقوله: «وقد وقع بينهما وقعة عظيمة تشهد لصالح بالشجاعة التي لا توصف»[٣] ، ثم ينتقل لوصف إحداها ، وضخامة عدد المنضوين تحت لواء الأمير مقرن ، والتي قد تكون أولى تلك المعارك ، فيقول: إن صالحاً «قد كر على مقرن وعسكره ، وكانوا جماً غفيراً

(١) ويقول الشاعر أيضاً:

وإن كـان تبغـي حكـم هجـر صـادق فـاضـرب بحـد السيـف روس رجـالهـا
فـإن الممـالـك مـا تجيـك بـراحـة إلا بشـي تـاعـب محتـالهـا
والـداران رجفـت وحـل خـذولهـا وسـاءت وشـاة السـو فـي منـزالهـا
مـا تـركـد إلا عقـب ضـرب جمـاجـم بـالسيـف وإيمـان هفـت بـوصـالهـا

الحاتم ، المرجع السابق ، ١/ ٤٠ ـ ٤٢.
الطراش: هم المندوبون أو المبعوثون. راجع: عبد الكريم الحقيل ، ألفاظ دارجة ومدلولاتها (مادة: الطراش) ، الرياض ، ١٤٠٩هـ.

(٢) راجع الصفحات ١٤ ـ ٢٢ ـ ٢٣ من هذا البحث.

(٣) الكواكب السائرة ، ١/ ٢١٥.

بنفسه ، وكان خارجاً لصلاة الجمعة ، لا أهبة معه ولا سلاح ، فكسرهم»[١] .

أما الشاعر الكليف ، فإنه يصف استجابة الأمير مقرن لدعوة المستائين ، وقيامه بالثورة ، وشدة المعارك التي دارت ، والشجاعة المتميزة التي أظهرها الأمير مقرن[٢] .

وعلى الرغم من أن الغزي لا يتعرض لذكر المعارك التي أعقبت المعركة التي ذكرها ، وما انتهت إليه ، إلا أنه يضطر بصورة غير مباشرة إلى الاعتراف بأن النتيجة لم تكن لصالح صالح ، حيث يصفه حين حضوره لدمشق ، وإقامته فيها سنة ٩٢٧هـ/ ١٥٢١م ، «بأنه كان متستراً بها ، متخفياً ، غير منتسب إلى سلطنة»[٣] .

أما الكليف ، فإنه يجلجل بالانتصارات التي تحققت لممدوحه مقرن ، ويطري شجاعته النادرة التي تكللت بانتزاعه الملك[٤] .

ويفهم من قول الغزي : «ثم كانت الحرب بينهما سجالاً إلى أن توفي»[٥] ،

---

(١) المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .

(٢) فأجاب كالحر القطامي جارد   في شوفته زريقه يدعى لها

ثم يصف المعارك بقوله :

قامت جياد الخيل تحجر بينهم   روس القنا وتطاحنت بأبطالها

فجواد عياف الدنايا مقرن   كره بقاضي والكتام جلالها

الحاتم ، المرجع السابق ، ١/ ٤٠ ـ ٤٢ . كذلك راجع أبا عبد الرحمن بن عقيل ، المرجع السابق . لقد أخذنا بتصويبات ابن عقيل حول هذه القصيدة .

(٣) الكواكب السائرة ، ١/ ٢١٥ .

(٤) زهت الديار بحسنها وجمالها   واستبشرت بالعز روس رجالها

ثم يقول :

حوى محل الملك وانقادت له   أهل الشروق وغربها وشمالها

والسيف حل الداركرهاً والقنا   وبنى بيوت المجد فوق أطلالها

الحاتم ، المرجع السابق .

(٥) الكواكب السائرة ، ١/ ٢١٥ . لقد توفي السلطان مقرن سنة ٣٢٧هـ/ ١٥٢١م ، في حين أن وفاة صالح بن سيف ، أورد حولها الغزي تاريخين محتملين وهما سنة ٩٣٠هـ ، وسنة ٩٣١هـ/ ١٥٢٥م . ويبدو أن التاريخ الأخير هو الأكثر احتمالاً ، إن لم يكن بعده بقليل .

بأن الحرب لم يتوقف أوارها بين المتخاصمين ، حتى بعد أن كسب مقرن الجولة الرئيسية ، وفاز بالسلطة .

استمرار النزاع بين مقرن وصالح:

يحسن ابتداء تحديد تاريخ وصول مقرن إلى السلطة ، قبل الانتقال إلى نقطة جديدة ، وذلك بتفحص بعض الوقائع التي ربما تقربنا من ذلك .

إن الشكاوى التي كان ملك هرموز يثيرها لدى البرتغاليين ضد سلطان الجبور ، بعد عام ٩٢١هـ/ ١٥١٥م ، نجد أن اسم مقرن يتردد فيها ، وبأنه متهم بالتمرد ضده ، لرفضه دفع أي مبلغ إليه من إيرادات البحرين[١] .

ويؤكد المؤرخ البرتغالي باروش ، موقف مقرن هذا ، بقوله : إن مقرن بن زامل حفيد أجود ، لم يكن يرفض دفع الأتاوة إلى ملك هرموز فحسب ، بل إنه يرى بأن إيرادات البحرين ، إذا ما دفعت ، فإنها ستؤول إلى الريس شرف الدين الغالي ، المتحكم الحقيقي بمملكة هرموز ، في حين أنه أحق بالبحرين وبما تغله من إيرادات ؛ لأنها جزء من بلاده التي ورثها عن آبائه[٢] .

وعلى كل فهناك إشارة أخرى تدل على أن قافلة الجبور ، قد استأنفت رحلاتها إلى الحج ، بقيادة سلطانها سنة ٩٢٢هـ/ ١٩١٦م[٣] ، بعد توقف دام عدة سنوات ؛ حيث لم يعد يشار لتلك القافلة المهمة ، والتي ربما يعزى توقفها إلى الأوضاع العامة غير المستقرة في عهد السلطان صالح ، وإن (مقرن) قد يكون استأنف تسييرها ، وقادها بنفسه ، حالما تسلم السلطة ، وذلك إدراكاً منه للفوائد الكبيرة ؛ التي سيجنيها والأهداف العديدة التي ستتحقق من تسيير تلك القافلة ، وإذا ما صح هذا الاستنتاج ، فإن مقرن قد يكون قد تسلم السلطة في العام نفسه .

وعلى أي حال ، فإن وصول مقرن بن زامل إلى السلطة في سنة

---

(١) Barros, Op. cit. Deca, III Liv. Cap. III p.26.

(٢) Ibid., p. 27.

(٣) R. Bishop Smith, Joao de Meira Portuguese Text.. Voyage to Basra in 1517 and 1521. (Lesboa, 1963), P.14.

٩٢٢هـ/ ١٥١٦م ، لم يكن ليحسم النزاع بينه وبين خاله صالح بن سيف ، حيث يشير الغزي ، وكما سبق أن ذكرنا ، إلى أن صالح لم يتوقف عن مقاتلة مقرن ، عقب انتزاع السلطنة منه(١)؛ لذا فإن السؤال المطروح هو: بمن استعان صالح في مقاومته لمقرن؟ سوف نحاول ما أمكن الاقتراب من الجواب الصحيح ، فصالح حينما مني بالهزائم ، اضطر إلى ترك الأحساء ، واللجوء إلى نجد بحثاً عن منطقة آمنة ، قد يجد فيها المؤازر والحليف ، فهناك منطقتان مرشحتان أكثر من غيرهما ليتجه صالح بن سيف إليهما ، أولاهما منطقة العارض؛ التي وردت الإشارة إليها في قصيدة الجعيثن اليزيدي؛ الذي امتدح انتصار مقرن على زعمائها من بني يزيد ومزيد(٢):

حمى بالقنا هجراً إلى ضاحي اللوى إلى العارض المنقاد نابي الفرايد

ثم يقول:

وسـادات حجـر مـن يـزيـد ومـزيـد قـد اقتـادهـم قـود الفـلا بـالقـلايـد

أما المنطقة الثانية فهي نحو الشمال من نجد عند أطراف إقليمي الأحساء والقطيف ، حيث يقيم فيها بطون بني لام ، والتي تحمل أحياناً اسم القبيلة الأم نفسها ، أو بطن من بطونها ، كالفضول والذين من أشهر عشائرها آل غزي ، ثم آل كثير ، وآل سعيد ، وآل حسين ، والظفير(٣) ، ويجاورهم أيضاً بنو خالد ، وكانت مناطق سكنى هؤلاء ، وتجوالهم تمتد في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر على الأرجح من منطقة الحجرة ووادي الباطن وأطراف الدهناء ، حتى بوادي البصرة والسماوة في العراق(٤).

(١) الكواكب السائرة ، ١/ ٢١٥.

(٢) حمد بن لعبون ، تاريخ حمد بن لعبون ، (القاهرة ، ١٤٠٨هـ) ٣٩ ـ ٤٠. ومن الجدير بالذكر أن كلمة هجر لم ترد عند ابن لعبون ، فجاء الوزن مختلاً ، فأخذنا بقراءة غيره. راجع: ابن عقيل ، المرجع السابق: ١/ ٢١٨ ـ ١٩.

(٣) كاظم محمد علي شكر ، قبيلة الفضول اللامية ، (النجف ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م). حول قبيلة الظفير ، راجع: Blngham, Bedoun of Northern Arabia - Al Dhafir (London, 1986), pp. 8-20.

(٤) ليس هنا مجال لذكر الكثير من الأدلة حول مناطق إقامتهم وانتشارهم ، وسنكتفي بما أورده=

وعلى كل حال ، إن بني لام وبني خالد كانوا يجاورون قبيلة المنتفق؛ التي كان يحكم أمراؤها من آل فضل والبصرة ، فقامت بين تلك القبائل تحالفات وثيقة ، ومصالح اقتصادية مشتركة.

إن الافتراض بأن صالح بن سيف قد اتجه إلى جهة الشمال ، يعني أنه دخل في دائرة التحالفات المشار إليها آنفاً ، وفي هذه الحالة إما أن يكون قد احتمى بهذه القبائل فآزرته ، أو أنه ذهب مباشرة إلى البصرة ، وطلب من سلطانها الدعم والمساعدة لاستعادة عرشه المسلوب ، وأن سلطانها قد وجد في ذلك فرصة سانحة لتحقيق ما كان يطمح إليه ، خاصة وأن الأعراف القبلية توجب في حالة «الدخالة» الحماية ، بل المساندة أحياناً ـ فأوعز لتلك القبائل بتقديم السند الضروري له والمؤازرة ـ وهنا يكون النزاع بين مقرن وصالح قد دخل مرحلة خطيرة ، فإن أسوأ أوجه النزاعات الداخلية ، وأكثرها تعقيداً هي عندما تتسع وتتشعب؛ لتسمح بتدخل خارجي جراء انزلاق أحد أطرافها في ذلك الاتجاه.

وفي كل الأحوال ، فإن مثل هذا الدعم لا بد أن يكون قد استفز السلطان مقرن الجبري ، وشكل خطراً عليه ، فقاتل تلك القبائل وأخضعها ، كما يفهم من قصيدة الجعيثن النبطية المار ذكرها ، حينما قال:

ونجـد رعـى ربعـي زاهـي فـلاتهـا على الرغم من سادات لام وخالد(١)

مهما يكن من أمر ، فإن كل ما ذكر هو احتمالات بحاجة إلى أدلة أوضح وأقوى ، يحاول هذا البحث استكشافها؛ فمع استمرار نزاع مقرن مع خاله صالح ، نجد أن مقرن يقوم بالمباشرة ببناء أسطول مزودة سفنه الكبيرة بالأسلحة النارية؛ التي أدخلها لأول مرة إلى شرق الجزيرة ، فعرفها العرب

= ابن بسام ، المرجع السابق ، (حوادث ٩٢٩هـ ورقة ٢١ أ) إذ يذكر أن أجود قاد حملة ضد الفضول في حفر الباطن. على أن ابن بسام قد أخطأ في نسبه قيادة الحملة لأجود؛ إذ كان قد توفي قبل هذا التاريخ بحوالي ربع قرن ، كما يرجح وقوع خطأ في تاريخ الواقعة أيضاً.

(١) حمد بن لعبون ، المصدر السابق ، ٣٩ ـ ٤٠.

هناك ، ثم أوعز لأسطوله بمهاجمة السفن التجارية الذاهبة إلى البصرة ، واعترض طريقها[١].

وهنا يرد سؤال حول السبب الذي دفع مقرن للقيام بهذا العمل؟ وهل كان ذلك مرتبطاً بالنشاط المعادي له في الشمال ، والذي قامت به قبائل بني لام وبني خالد؛ التي يمر من ديارها طريق الحج البصري ، وأن سلطان البصرة له صلة بذلك؟ أم أنه جزء من سياسة كان يتبعها مقرن ، ذات أبعاد اقتصادية ، ومرتبطة بها أسباب سياسية؟

ليس هنالك جواب لهذه الأسئلة سوى القول بأنه كانت هناك منافسة تجارية بالتأكيد بين تلك القوتين المتجاورتين ، وأن نشاط صالح بن سيف المعادي لمقرن ربما أضاف إليها بعداً سياسياً جديداً ، على أن سلطان البصرة لم يقف مكتوف الأيدي تجاه ما كان يقوم بـه مقرن ، فشرع هو الآخر ببناء قوته البحرية ، وتدعيمها بالأسلحة النارية والمدفعية ، وهو يعلم بأن مثل ذلك سوف يثير البرتغاليين؛ الذين كانت سياستهم تقوم على عدم السماح بظهور قوة بحرية في منطقة الخليج قد تهدد وجودهم فيه؛ لذا فإنه خطا خطوة دبلوماسية ماكرة حينما اتصل بالبرتغاليين ، وطلب منهم الاعتراف بتبعية البحرين والقطيف لبلاده ، وبأنه عازم على أخذها ، وأنه في مقابل هذا سوف يقوم بدفع مبلغ كبير من المال سنوياً إليهم ، إضافة إلى الاعتراف بتبعيته لملك البرتغال[٢].

وإذا توفرت القناعة بأن سلطان البصرة هو الذي كان يسند صالحاً ، فإن ذلك يعني بأن سلطان البصـرة كان يعمل في كل الاتجاهات ، وبنشـاط؛ لإلحاق الضرر بمقرن ، والوصول إلى أهدافه التي سوف تتحقق ، وبأن الانشقـاق داخل البيت الحاكم قـد مهد السبيل لذلك ، وإن لم يكن هـو السبب وحده فيما سوف يحصل ، بل هو نتيجة أيضاً ، لما أصاب مجتمع

---

(١) Barros, Op. Cit Deca. III Liv, Vll, pp. 27 - 8, 32 - 33.

(٢) Smith, Op. Cit, p. 26 - 7: idem, First Age of the Portuguese Dmbas-sies, Navigations, and Persia, (Bithedas, Maryland, 1970), pp. 59 -0 62.

الجبـور من مؤثـرات وتحولات يـجدر تناولها.

التحولات في حياة الجبور ، وأثرها على السلطة:

سبق أن ذكرنا في مطلع البحث أن النظام السياسي ومفاهيم السلطة ، تتأثر بالتركيبة الاجتماعية وبنائها الثقافي ، ونضيف إلى ذلك بأن التنظيم الاجتماعي قابل لأن يتنقل إلى صورة أكثر تعقيداً ، نتيجة لقيام الدولة ، وما تولده من تحولات في محيطها الاجتماعي.

وإذا ما كان حديثنا قد انصب سابقاً على التحولات في السلطة ، من خلال مجموعات قرابية تنفرد باحتكارها ، فإن علينا أن ندرك أن ما حدث في طبيعة تلك السلطة ، ما هو إلا نتاج لتحولات اقتصادية ، واجتماعية ، وثقافية ، رافقت قيام دولة الجبور ، وأن من الجدير تسجيل تلك التحولات بقدر ما تسمح به طبيعة هذا البحث ومصادره الشحيحة.

أخذ الجبور ، منذ ضعف دولتي الجروانيين والهرموزيين ، بالتوغل التدريجي في أرياف وقرى ومدن ، الأحساء والقطيف ، وجزر البحرين ، وخالطوا ساكنيها ، وتمازجوا بقاطنيها ، ثم ما لبثوا بعد سيطرتهم على تلك البلاد ، أن استقروا فيها بصورة أو بأخرى ، واتخذوا منها مقراً لهم ومجالاً لنشاطهم ، فبنوا الدور والقصور والحصون والقلاع والمساجد والجوامع ، وحيث إن إحدى مصادر الثروة في تلك البلاد ، تعتمد إلى حد كبير على النشاط التجاري ، فإنهم استفادوا منها إلى درجة كبيرة في الحصول على الأموال ، وتراكم الثروة.

وبالرغم من أن تجارة الخليج العربي قد أصابها الارتباك نتيجة لظهور البرتغاليين ، فإنه مع هذا قد استفادت من زيادة الطلب على السلع فيها ، على أثر قيام البرتغاليين بالعمل على إغلاق البحر الأحمر في وجه التجارة ، مع إبقاء الخليج العربي مفتوحاً في وجه التجارة التي تسير تحت رقابتهم. وهنا لا بد أن نشير إلى أنه لا صحة لما يردده البعض ، من أن البرتغاليين قد مارسوا تجاه تجارة الخليج العربي السياسة نفسها ، التي مارسوها تجاه تجارة البحر

الأحمر ، وبأنهم عمدوا أيضاً إلى غلق الخليج العربي في وجه التجارة[1].

وعلى أية حال ، فإن زيادة الطلب في الحجاز على بعض السلع ، وخاصة الهندية منها ، وبالتالي زيادة أثمانها ، أدّى إلى قيام قوافل الجبور بنقل تلك السلع الثمينة من سواحل الخليج إلى هناك ، في مواسم الحج على وجه الخصوص[2] ، ومثل ذلك فعلت أيضاً القوافل المنطلقة من البصرة.

نتج عن هذا النشاط التجاري الواسع ، مع ارتفاع الأسعار ، فوائد مادية كبيرة لدولة الجبور ، وزيادة الثروة؛ فانعكس ذلك في زيادة تداول السلع ، وانتشار استخدام النقود في التبادل التجاري ، مع ارتفاع في القوة الشرائية ، كما صاحب ذلك أيضاً اتساع في الملكية العقارية ، وفي عدد السفن ، وزيادة عدد العبيد والأجراء والصناع والعمال والخدم؛ الذين استخدموا في المزارع والبساتين ، وفي بناء السفن ، والنقل البحري والغوص ، وحراسة القوافل ، وفي الجيش ، إضافة إلى البيوت وبعض الحرف والصناعات.

وكان أن ظهرت نتيجة لكل ذلك فئة غنية مترفة ، من بين تجار اللؤلؤ والخيول والتوابل والحرف وأصحاب السفن والبساتين والصناعات[3] ، حيث اعتنت هذه الفئة بدور سكناها ومتاعها ولباسها ، وفي استغلال أوقات فراغها فيما يدخل البهجة والسرور في نفوسها ، وكان الصيد إحداها ، وخاصة في الصحراء ، مما حملهم على تربية الصقور التي ارتفعت أثمانها وراجت تجارتها ، كما اعتنوا بكلاب الصيد (السلوقيات) وتدريبها[4].

---

(١) أحمد بوشرب ، «مساهمة الوثائق البرتغالية في تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب والبحر الأحمر والخليج العربي». مجلة المناهل ، (المغرب) ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ، ٢٦/ ٧٧ ـ ٧٩.

(٢) ابن إياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق: محمد مصطفى ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٣م ، ٥/ ٤٣١.

(٣) Documents on the Portuguede in Mozambiquem Iv, pp. 225 - 59: Barros,Op, Cit, Deca de, lll, Liv, Cap. Vl. Cap. lv, p 40:
بوشرب ، (مساهمة المصادر البرتغالية في كتابة تاريخ البحرين). نشر ضمن مجموعة أبحاث مؤتمر البحرين عبر التاريخ ، (البحرين ، ب. ت) ١/ ١٢١/ ٢٣.

(٤) The Commentaries, p. 84.

ومن الطبيعي أن يكون سلاطين البلاد والبيت الحاكم وأزلامهم في مقدمة الذين اغتنوا ، واندفعوا في الدعة ومظاهر السطوة والملك ، وأن الفئة الغنية من بين السكان قد حاكتهم في ذلك المسلك.

وعلى أي حال ، هناك إشارات لمبان عدة أقامها الجبور ، فهناك رسوم قصر في الأحساء يطلق عليه حتى اليوم ، اسم قصر أجود[1]؛ إذ قد يكون أحد قصوره فعلاً ، خاصة وأن وجود مقر يناسب مكانته كان موجوداً في الأحساء ، حيث أقام به سرغول (سرغل) ، ملك هرموز المخلوع ، عندما جاء إلى الأحساء مستنجداً بالسلطان أجود بن زامل لإعادته إلى عرشه ، وأقام مَعه في الأحساء فترة من الوقت[2].

ويفهم من ترجمة الغزي ، للسلطان صالح بن سيف ، بأن له قصراً في الأحساء قريباً من الجامع الذي بناه الجبور أيضاً[3] ، ولعله هو المعروف حتى اليوم بجامع الجبري[4] ، ويضاف إلى ذلك وجود إشارات لمبان وقصور اتخذها الجبور في جزيرة البحرين ، والتي أصبحت هدفاً لنهب الهرموزيين؛ لما تحتويه من أموال وكنوز ، وذلك على أثر استشهاد السلطان مقرن بن زامل الجبري هناك في صيف عام ٩٢٧هـ/ ١٥٢١م ، وقد استخدم الجبور أيضاً قلعتي البحرين والقطيف التاريخيتين ، لأغراض عسكرية وسكنية ، بعد أن أجروا فيها بعض الإضافات والترميمات؛ لتقويتها وتدعيمها[5] ، ويضيف ميرزا حسن خان ـ الذي ألف كتابه عند مطلع هذا القرن ـ إلى ذلك أسماء عدد من

---

(١) محمد بن عبد الله العبد القادر ، تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد. (الرياض ، ط٢ ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م) ١٢٠. وقد حدد المؤلف مكان القصر بالقرب من قرية المنيزلة التابعة للهفوف.

(٢) أحمد بن ماجد ، الفوائد في أصول علم البحر والقواعد ، تحقيق: إبراهيم الخوري وزميله (دمشق ، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧١م) ، ٣٠١ ـ ٣٠٢: De Barros., Da Asia, Deca. ll Liv. ll Pp. ١١٦ ـ ١٧.

(٣) الكواكب السائرة ، ١/ ٢١٥.

(٤) عبد الرحمن بن عثمان الملا ، تاريخ هجر ، (الأحساء ، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م) ، ٢/ ٦٥٦.

(٥) De Barros., Da Asia, Deca. lll. v,pp. 47 - 84.

القرى والقصبان القريبة من الهفوف ، والتي كانت مزدهرة إلى ما قبل عصره بثلاثة قرون[1].

وعلى أية حال ، إن التحولات في مصادر الدخل وأساليب العيش ، إضافة إلى ما تمارسه الحياة الحضرية نفسها على أهل البادية ، كانت إحدى المؤثرات الهامة في تغير المفاهيم والروابط ، ومن المفيد التذكير بقول ابن خلدون : «إن عوارض الترف والغرق في النعيم كسرت من سورة العصبية التي بها التغلب»[2].

ويحسن الآن الانتقال إلى عامل هام ، له تأثيره الكبير في المفاهيم ، وفي النظر الثقافي الذي يعيش السكان ضمن أجوائه .

لقد انتبه سلاطين الجبور إلى الناحية الفكرية ، منذ وقت مبكر ، وأعطوها جل اهتمامهم؛ لإدراكهم بأنه سيترتب على رعايتها ، خاصة الناحية الدينية منها ، تعزيز لكيانهم ، وتلاحم في وحدتهم الداخلية ، وكسب الاحترام لأسرتهم الحاكمة ، خاصة إذا ما علمنا بأن دولتهم قامت على أنقاض دولة الجروانيين الشيعية؛ التي كانت ترعى ، بالطبع ، ذلك المذهب ، وتقرب علماؤه[3].

إضافة إلى ذلك فإن المنطقة نفسها؛ التي قامت دولة الجبور عليها ، كانت قد تعرضت فيها العقيدة الدينية ، ولفترة طويلة سابقة ، لكثير من التشويه والتحريف والإهمال ، ويمكن أن نضيف إلى ذلك أن قيام دولة الجبور قد رافقه قيام دولة شيعية مغالبة مجاورة لدولتهم ، في كل من خوزستان والبصرة ، وهي دولة المشعشعين[4] ، والتي ربما ولَّد قيامها خشية لدى الجبور ، من

---

(١) تاريخ ولاية البصرة ، ترجمه عن الفارسية : محمد وصفي أبو مغلي ، (البصرة ، ١٩٨٠م) ، ٨٩ ـ ٩٠ . وهذه المواقع هي بيرق وبني شافع ورقيمة .

(٢) تاريخ ابن خلدون (المقدمة) ، ١/ ٢٤٧ .

(٣) Juam R.l. Cole, «Rival Empires of. Trade and Imami Shi, ism in East-ern Arabiam 1300- 1800,» Int, J, Middle East Sts. 19. (1987) pp.177-2-4. Esp. 179 - 180.

(٤) حول المشعشعين ، راجع: عباس العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين. (بغداد ، ١٩٣٩م) ، ٣/ ١٠٧ ـ ١١٨ : انظر أيضاً: محمد هليل الجابري ، إمارة المشعشعين ، =

ظهور تعاطف نحوها لدى قطاع من السكان ، بحكم التوجهات المذهبية والعلاقات البشرية والتجارية ؛ التي تربط بين سكان كلا الدولتين .

ويحسن عدم التوسع في التصور أكثر من هذا ، كما فعل المستشرق نيومان Newmn ، عندما تخيل قيام ثورة في الأحساء متعاطفة مع المشعشعين بعد تنكيل الشاه إسماعيل الصفوي بقادتهم عام ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م[1].

لقد لخص السخاوي ، جهود السلطان أجود في ميدان الحياة الدينية بقوله : «وله إلمام ببعض فروع المالكية ، واعتناء بتحصيل كتبهم ، بل استقر في قضائه ببعض أهل السنة منهم ، بعد أن كانوا شيعة ، وأقاموا الجمعة والجماعة ، وأكثر من الحج في أتباع كثيرين يبلغون آلافاً ، مصاحباً للتصدق والبذل (لأهل الحرمين) وغيرهم»[2].

ومن الجدير بالذكر ، أن المستشرق الأمريكي رينتز Rentz؛ الذي استند إلى النص أعلاه ، قال : إن بعض قضاة المالكية الذين عينهم أجود ، كانوا قد تحولوا عن المذهب الشيعي[3] ، وهو من دون شك فهم خاطئ لنص

= (رسالة ماجستير غير منشورة) ، جامعة بغداد ، ١٩٧٣م.

p. Luft, art «Musha ,sha, E12»

(١) A.J. Newman, «The myth of the clerical migri-tion to Safawid», Die welt des Islam, 33 (1993), pp. 66- 112, esp. 73.

من الواضح أن نيومان كان يظن بأن الأحساء في تلك الفترة هي جزء من دولة المشعشعين. كما أن نيومان تابع جاسم شبر في قراءته الخاطئة لمخطوطة حول المشعشعين ، حيث إن كلمة «انتقضت» قرأها نيومان «انتفضت». راجع : تاريخ المشعشعين ، (النجف ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م) ، ٢١٦ ـ ٢١٧ . وحول التعريف بذلك المخطوط ومحتوياته ، راجع: الحميدان ، مخطوطة علي الموسوي: المجلة التاريخية المغربية ، (تونس) ، ١٩٨٣م ، ٢٩ ـ ١٦٧/٣٠ ـ ١١٩ خصوصاً ١٧٥ ـ ١٨٢ .

(٢) الضوء اللامع. ١/ ١٩٠ : الجزيري ، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطرق مكة المكرمة. تحقيق: حمد الجاسر (الرياض ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م). ٣/ ١٧٢٩ . إن مما يجدر التنبيه إليه أن الجزيري الذي نقل ترجمة أجود عن السخاوي ورد في نهاية عبارته «لأهل الحرمين» ، في حين أننا لا نجد هذه العبارة في كتاب السخاوي المطبوع مما يرجع أنها كانت موجودة في الأصل المخطوط ، وخصوصاً وأن المعنى يكتمل بوجودها.

(٣) G. Rentz,art, «Djabrids», El. 2 Supplement, 3 - 4 ونص عبارته هي: Some of=

السخاوي؛ في حين نجد أن المستشرق كول Cole كان قد فهم نص السخاوي جيداً ، إلا أنه عاد مرة أخرى ليتابع رينتز ، وذلك عندما قال: إن الجبور أرغموا بعض قضاة الشيعة على أن يصبحوا سنيين[1].

وهكذا ابتعد كلا المستشرقين عن معنى النص ، وأوحيا للقارئ بأن النص يدل على ممارسة أجود الاضطهاد ضد الشيعة عامة ، وعلمائهم خاصة. والغريب في الأمر ، أن كول ، لم يجد أي سند يدعم قوله السابق ، بعد استعراضه لأوضاع الشيعة خلال عهد الجبور ، بل إنه يؤكد عكس ذلك؛ إذ إن التسامح المذهبي كان هو السائد في تلك الجهات[2].

وعلى أية حال ، فإن بعض العلماء الذين استعان بهم السلطان أجود ، كانوا من ذوي المكانة العلمية المعروفة ، بدليل ورود أسماء بعض منهم في كتب التراجم - فالسخاوي ترجم لاثنين من المغاربة المالكية ، وهما: خليفة بن عبد الرحمن المتناني البجائي[3] ، وعبد الله بن فارس البرنوسي التازي[4] ، كما ترجم كل من السخاوي[5] والشيلي اليمني[6] ، لمحمد بن عبد العزيز بن إسماعيل البصري المعروف بابن الزقزق (ت ٩٣٥هـ) ، وأخيراً ، فإن ابن بشر ذكر أسماء ستة من قضاة الجبور ، وهم: عثمان بن زيد وعبد القادر المشرفي

= Mali;i Judges whom he appointed were converts from the Shi,a».

(١) Riva; Empires... etc Op - Cit. p. 181.

إن نص عبارة كول هي:

6They Forced some Shi,ljudges to become Sunnis.

(٢) ibid. pp. 181 - 182.

(٣) الضوء اللامع ، ٣/ ١٨٦.

(٤) وجيز الكلام في ذيل دول الإسلام ، مخطوطة جامعة إكسفورد (مكتبة بودليان) ، الجزء الثاني.

OxFord Univ. Bodlian Lib. Ms. March 611. Fol. 150b.

(٥) الضوء اللامع ، ١/ ٧.

(٦) السناء الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر. مخطوطة دار الكتب المصرية ، رقم ١٥٨٦ تاريخ. ومنها نسخة مصورة في جامعة الملك سعود بالرياض ، ص ٣٥١ - ٣٥٢.

ومنصور بن مصبح الباهلي ، وأخيه عبد الرحمن وأحمد بن فيروز بن بسام وسلطان بن مغامس[1].

ويمكن أن يضاف إلى هؤلاء الذين كان لهم تأثير في الحياة الفكرية ، عدد من العلماء ، ممن نجهل أسماءهم ، حيث يحتمل لجوء البعض إلى الأحساء هرباً من المشعشعي ، إضافة إلى أولئك الذين قدموا من جنوب إيران إلى الأحساء بقصد أداء فريضة الحج.

ونود الإشارة هنا ، إلى أن مناطق شرق الجزيرة العربية ، كالأحساء والقطيف والبحرين ، لم تكن أيضاً بمعزل عن التيارات الصوفية واتجاهاتها ، شأنها في ذلك شأن بقية المناطق الإسلامية الأخرى ، حيث كان الكثير من علماء الدين متصوفة ، أو متعاطفين مع هذه الطريقة الصوفية أو تلك ، وبعبارة أخرى ، فإن التصوف كان له وجود بارز في تلك المنطقة ، بدليل أن الطريقة الكوازية التي نشأت في البصرة عند بداية القرن العاشر / السادس عشر ، كانت قد جاءت أصلاً من الأحساء عن طريق الشيخ أحمد بن موسى المنباوي ، المغربي الأصل ، وأحد كبار شيوخ الطريقة الشاذلية ، والذي أقام في الأحساء فترة من الوقت في أواخر عهد الجبور ، ومنها انتقل إلى البصرة[2].

كما أن الطريقة الصوفية؛ التي أنشأها الشيخ إبراهيم الرديني في البصرة ، في حدود تلك الفترة ، كان مؤسسها قد انتقل من الأحساء أيضاً ، واتخذ من البصرة مقام له[3] ، ويرجح أن الرديني هو من أحفاد الشيخ أحمد بن محمد الرديني المتصوف اليماني ، المتوفى سنة ٨٢٧هـ[4].

(١) عنوان المجد في تاريخ نجد ، تحقيق: عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ (الرياض ، ط ٤ ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م) ، ٢/ ٣٠٣.

(٢) يحيى بن إبراهيم البصري ، تمايم الدرر في مناقب السادة الغرر ، عن نسخة د. أحمد السمدان ، المصورة عن الأصل المخطوط في مكتبة باش أعيان بالبصرة ، الصفحات: ٣٦ ، ٤٣ - ٤٥ ، ٥١ - ٥٧.

(٣) المصدر نفسه ، ٧٧.

(٤) الشرجي ، طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص. (بيروت ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م) ، ٨٤ - ٨٥.

وعلى أية حال ، فإن ما قدمناه عن جوانب من الحياة الفكرية ، يبرز القول بأن جهود سلاطين الجبور قد أثمرت بالاتقاء بالدراسة الدينية والثقافية ، وجعلت من الأحساء ، مركزاً دينياً وثقافياً مزدهراً يستقطب الدارسين ، ويؤثر فيما حوله ، كما حظي المذهب المالكي والدراسات المتعلقة بفقهه رعاية خاصة ، مما ساعد على انتشاره ، فيما حوله ، بشكل واسع .

ولعل فيما قدمناه خلال الصفحات السابقة ، ما يكفي للقول بأن التحولات التي نتجت عن المؤثرات الاقتصادية والثقافية ، قد أدت ، من دون شك ، إلى خلق مشاعر جديدة ، ورؤيا فكرية أوسع ، وروابط تتجاوز الروابط القديمة ، وبالتالي أضعفت من الروابط المبنية على القرابة النسبية؛ التي ارتكزت عليها سلطة الجبور .

سقوط بني جبر وقيام بني فضل:

بلغت دولة الجبور أوج قوتها العسكرية ، وازدهارها المادي ، في عهد السلطان مقرن بن زامل ، والذي استطاع الصعود إلى السلطة ، وقيادة دفة الحكم بشكل متميز ، وسط ظروف دقيقة وصعبة ، ومخاطر عديدة ومتنوعة ، كانت تحدق بالجبور مثلما كانت تحدق بالمنطقة على اتساعها ، فكان أن خلق السلطان مقرن لنفسه شهرة واسعة ، وأنصاراً عديدين ، عقدوا عليه الآمال العريضة ، ومنحوه الثقة والاحترام . ومثل ذلك خلق لنفسه الكثير من الأعداء الذين كانوا يتربصون به ، ويناصبونه العداء؛ لذا فإن سقوط مقرن شهيداً وسط المعركة التي خاضها في البحرين ضد البرتغاليين والهرموزيين في صيف عام ٩٢٧هـ/١٥٢١م ، قد ولد الحزن العميق والخوف الواسع في نفوس العرب وعموم المسلمين ، في حين أنه استقبل بالفرح والسرور من جانب البرتغاليين وحلفائهم ، إضافة إلى المتربصين[1] .

ومثلما يحدث دائماً في مثل هذا الظرف ، فإن سقوط قائد مقدام وزعيم

(١) الحميدان ، إمارة الجبور ، المرجع السابق ، ٦٨ ـ ٨١؛
Barros, Op. Cit. Dec, III, Liv. Cap. V. pp. 164 - 670.

جسور ، واختفاءه عن الموقع القيادي بسرعة ، يولد فراغاً سياسياً كبيراً وارتباكاً وحيرة واسعة في النفوس ، ولا يستثنى من ذلك ، أمراء البيت الحاكم؛ الذين تركزت حولهم الأنظار ، وهم يبحثون عن خلف لمقرن .

وهنا لا بد من الإشارة إلى أنه خلال هذا الظرف العصيب ، كان البيت الحاكم تتقاسم الزعامة فيه أربع أسر؛ وهي : أسرة سيف بن زامل بن حسين ، وأسرة هلال بن زامل بن حسين ، وأسرة أجود بن زامل ، ولكل من هذه الأسر الأربع مكانتها ونفوذها .

فأسرة سيف بن زامل كان يمثلها صالح بن سيف ، والذي كان مقيماً في دمشق في السنة نفسها التي قتل فيها مقرن ، ولا بد أنه قد عاد إلى بلاده في إثر ذلك الحدث ، أما أسرة سيف بن أجود (ابن جبر) فيمثلها حسين بن سيف الذي خلف والده في السلطة والنفوذ في عمان ، وكان قد قام بالثورة ضد الزعامة الفارسية المتحكمة في هرموز إثر مقتل ابن عمه مقرن ، فطردهم من صحار ، واضطر البرتغاليون إلى الاعتراف به حاكماً عليها (وزيراً)[1] .

أما أسرة هلال بن زامل التي لم تلعب دوراً مهماً حتى ذلك التاريخ ، فإنه يبدو الآن أنها مهيأة ـ أكثر من غيرها ـ لتلعب ذلك الدور .

بقيت الإشارة إلى أسرة السلطان أجود ، والتي خلال معركة البحرين كانت ـ كما يبدو ـ الأكثر تضرراً بين هذه الأسر ، فقد فقدوا بعض أمرائهم البارزين ، وأعداداً من فرسانهم الشجعان ، إضافة إلى عدد كبير من أتباعهم المخلصين؛ الذين كانوا إلى جانب قائدهم وسلطانهم مقرن[2] ، فكان ذلك دون شك إضعافاً بقوة تلك الأسرة ونفوذها .

وعلى كل ، فإن أكبر أمراء هذه الأسرة وأكثرهم أحقية في الحكم ، كان فيما يبدو ، هو علي بن السلطان أجود الذي سبق له أن شارك أخاه السلطان

(١) الحميدان ، المرجع السابق ، Barros, Ibid.

(٢) Barros, Op. Cit. Dec. II Liv. VI, Cap. V. pp. 48: M. de Faria Sousa, The Portuguese Asia, (England, Reprint, 1984), Vil. 1 pp. 48: M. De Faria Sousa, The Portuguese Asia, (England, Reprint, 1984), Vol. 1. pp. 256 - 58.

محمد في السلطة؛ لذا فإن الاختيار قد وقع عليه ليكون خلفاً لمقرن، لكنه أثبت - فيما يبدو - أنه عاجز عن إدارة دفة الحكم في ظل تلك الأوضاع المضطربة، وعلى ملء الفراغ الكبير الذي خلفه استشهاد السلطان مقرن المفاجئ؛ لذا لم يمضِ على وجوده في السلطة سوى شهرين، حتى أزاحه عنها أخيه ناصر بن السلطان محمد بن السلطان أجود[١].

ومما تجدر ملاحظته، أن خلع السلطان علي بن أجود من السلطة، دليل على تداعي أسس المفاهيم القبلية بخصوص السلطة، كما أنه دليل أيضاً على وجود انحلال في الروابط القرابية داخل الأسرة الواحدة، وتغلب سلطة الملك وسطوته.

وعلى أية حال، فإن الشيخ ناصر بن محمد بن أجود لم يستطع البقاء في السلطة لأكثر من ثلاث سنوات، إذ إنه كان يواجه، فيما يبدو، ضغوطاً شديدة من قبل أسرة هلال بن زامل، ومن تزايد نفوذها؛ لذا فإنه اضطر إلى تسوية الأمر بينه وبينهم سلمياً في حدود منتصف عام ٩٣٠ هـ/ ١٥٢٤ م، وذلك بالتنازل عن الحكم لقطن بن علي بن هلال بن زامل لقاء مبلغ من المال[٢].

وبهذه التسوية تكون أسرة أجود بن زامل قد خرجت نهائياً من دائرة التنافس على السلطة، لكي تنتقل السلطة بعدها إلى أسرة أخيه هلال؛ التي جاء استلامها للسلطة بعد مدة تزيد على النصف قرن من تاريخ قيام دولة الجبور، وليبدأ دورها القيادي في الأحساء ونجد وعمان، منذ ذلك الوقت حتى نهاية دولتهم.

والواقع فإن اتساع القاعدة القرابية، والتفرع إلى عشائر وبطون وأفخاذ وأسر، يؤدي من دون شك، إلى تعقد ممارسة السلطة، وقد رافقها صراع بين الأقرباء، مع عدم استبعاد القسر في ممارستها[٣] وعلينا - عند النظر إلى التنظيم

(١) الجزيري، الدرر الفرائد المنظمة، ٣/ ١٧٢٨.
(٢) الجزيري، المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٣) عاطف عطية، المرجع السابق، ١٩٩.

السلالي لنواة العشيرة - أن نأخذ بالاعتبار نظرية ابن خلدون بخصوص تفرع القرابة إلى أربعة أجيال «لأن نهاية الحسب في العصب الواحد أربعة آباء»[١]، إضافة إلى مقولة العرب الشهيرة: «أنا وأخي على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب» والتي تفصح عن ثنائية واضحة في المواقف تتحكم بالعلاقة السياسية الاجتماعية، على أي مستوى كان داخل الدولة القبلية أو خارجها، خاصة وأن كل مجموعة قرابية لا تعترف بحق أي مجموعة قرابية أخرى، بأن تنفرد دونها باحتكار السلطة والانتفاع بالموارد.

مهما يكن من أمر، فإن فترة حكم السلطان قطن بن علي لا نعرف عنها أي شيء يذكر، حيث لم يدم حكمه سوى سنة واحدة تقريباً، ليخلفه ولده، والذي نجهل حتى اسمه[٢]، لكننا نعرف بأن للسلطان قطن ثلاثة أولاد، وهم ناصر وعلي وقطن. وعلى كل حال فإن ابن قطن هذا قد تخلى عن السلطة لابن عم والده المدعو غضيب (قضيب) بن زامل بن هلال، بعد بقائه في الحكم فترة وجيزة، شعر خلالها بعجزه التام عن إدارة شؤون البلاد، وذلك في حدود النصف الأول من عام ٩٢١هـ/ ١٥٢٥م[٣].

وهنا لا بد أن نذكر بأنه من المحتمل جداً، أن السلطان قطن بن علي مدّ سلطته إلى عمان أثناء فترة حكمه، وذلك على إثر وفاة حسين بن سيف بن زامل، والذي لم نعد نعثر له على ذكر بعد سنة ٩٢٨هـ/ ١٥٢٢م؛ لذا فإنه من المحتمل أنَّ تخلي ابن قطن عن الحكم كان قد تم وفق اتفاق، تم التوصل إليه بين أولاد السلطان قطن وبين غضيب (قضيب)، والذي يتضمن اقتسام البلاد بينهم، مثل ذلك حدث بين أولاد السلطان أجود، فأخذ غضيب (قضيب) الأحساء ونجد، في حين أخذ أولاد السلطان قطن عمان، ويستدل على أن هذا هو ما حدث، من خلال وجود نفوذ قوي، وسلطة واسعة لأولاد قطن في عمان، حيث لعبوا بعد هذا التاريخ بقليل

(١) تاريخ ابن خلدون، ١/ ٢٣٩ - ٢٤١.
(٢) الجزيري، المصدر السابق، الصفحة نفسها.
(٣) المصدر نفسه.

أدواراً خطيرة في الحياة السياسية لتلك البلاد[1].

ويبدو أن أولاد قطن ، حين رضوا بهذه القسمة ، كانوا يشعرون بقرب زوال دولة الجبور في الأحساء.

والواقع أن دولة الجبور قد فقدت مركز ثقلها ، ودرة تاجها ، حينما اقتطعت منها البحرين والقطيف ، خاصة بعد أن اتضح أنها عاجزة عن استردادها ، مما أوقع الجبور في تخبط سياسي ، واضطراب اقتصادي ، فكان طبيعياً أن لا يطول بها العمر بعد كل هذا ، ولعل في الأشهر المقبلة من حكم قضيب بن زامل ، آخر سلاطين الجبور ، فرصة لتلمس ذلك الوضع ، حيث عجز عن انتشال البلاد من وهدتها ، على الرغم من أن بعض الشعراء قد امتدحوا شجاعة هذا الشيخ وفروسيته[2] ، إلا أنها صفات لم تكن كافية وحدها لمواجهة الوضع المتأزم.

ويبدو أن بعض الزعامات في البلاد ، ومن بينهم بعض أمراء الجبور ، إضافة إلى بعض طوائف من السكان ، كانوا يشعرون بالأزمة وخطورتها ، فأخذوا يبحثون عن مخرج منها ، فكان أن اتجه البعض منهم ببصره نحو البصرة ، وإلى ملكها بالذات ، متوسمين فيه القدرة على المساعدة ، وعاقدين عليه الآمال في حل أزمتهم ـ وهنا يشير الجزيري إلى ذلك بقوله : «إن بني جبر استعانوا بالشيخ راشد لضعف حالهم»[3] ـ وكان من الطبيعي أن يرحب سلطان البصرة بهذا الطلب ، إن لم يكن نفسه قد أوحى لهم بذلك ؛ إذ إن في لجوئهم إليه فرصة ثمينة ، ربما تؤدي إلى تحقيق طموحه في تلك البلاد ، والتي سبق أن أشرنا إليها.

والواقع ، فإن الزعيم القوي الطموح ، عندما يسعى إلى السيطرة على منطقة ما ، فإنه يعمل أولاً على استمالة الزعامات والطوائف القبلية منها وغير

(١) الحميدان ، «نفوذ الجبور في شرق الجزيرة العربي بعد زوال سلطتهم السياسية» ، مجلة كلية الآداب (جامعة البصرة) (١٩٨١م) ، ١٧/ ٢١١ـ ٢٤٠.
(٢) الحاتم ، خيار ما يلتقط ، ١/ ٤٤ـ ٤٦ ؛ ابن عقيل ، المرجع نفسه ، ١/ ٢١٩ـ ٢٢٧.
(٣) الدرر الفرائد ، ٣/ ١٧٢٨.

القبلية ، وهنا تجدر الإشارة إلى أن بعض الطوائف من السكان تتميز ولاءاتهم ، عموماً بعدم الثبات ؛ إذ يلجؤون إلى تبديلها تبعاً لمصالحهم الخاصة ، فهم كالجنود الأجراء والعبيد ؛ الذين يهجرون أسيادهم حالما يضعفوا أو يفتقروا.

وهنا يبرز سؤال هام حول الزعامات ؛ التي يحتمل قيامها بطلب الدعم والمساعدة من سلطان البصرة؟

وللإجابة عن ذلك ، لا بد من استبعاد أسرة السلطان غضيب (قضيب) بن زامل بن هلال ؛ لأن السلطة انتزعت منه بالقوة ـ إذ يقول الجزيري : «فأخذها منه بالحرب الشيخ راشد بن مغامس»[1] ، لكن أسرتي أجود بن زامل وسيف بن زامل ، هما الأكثر احتمالاً في طلب تلك المساعدة ، وهنا يمكن أن نعود إلى التركيز على صالح بن سيف ؛ الذي يحظى ببعض المكانة والبروز لكبر سنه وماضيه السابق ، إضافة إلى ثقافته المتميزة ، خصوصاً إذا كان ما ذكرناه ـ فيما سبق من قيام تحالف بينه وبين سلطان البصرة ضد السلطان مقرن بن زامل ـ صحيحاً.

فإن قيامهم بهذا العمل ، في هذا الوقت بالذات ، هو أمر ممكن ، وإذا كان هذا هو ما حدث ، فإن ذلك يعني أن الروابط الأسرية والقبلية بين الجبور ، قد وصلت إلى الحد الذي لم يعد بعدها الوئام ممكناً ، وأن دولتهم كانت تعيش في أزمة عميقة.

على أي حال ، فلم تمضِ سوى فترة قصيرة على وصول جيش البصرة بقيادة الشيخ راشد بن مغامس الفضلي إلى الأحساء ، حتى اصطدم بالشيخ قضيب ، وانتزع منه السلطة في حدود سنة ٩٣١هـ/ ١٥٢٥م[2] ، أما صالح بن سيف فإنه لم يعد له من ذكر ، ولعله توفي في هذه الأثناء.

وباستيلاء الشيخ راشد الفضلي على الأحساء ، تكون صفحة الجبور

(١) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.
(٢) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

السياسية قد طويت من تلك البلاد، مثلما طويت قبلها في كل من البحرين والقطيف، ولم يبقَ لهم من سلطة ونفوذ سوى عمان، بزعامة فخذ منهم وهم بنو هلال[1].

وهكذا تكون قد بدأت صفحة جديدة وغامضة من تاريخ الأحساء والقطيف، في ظل قبيلة أخرى هي قبلية المنتفق، وحكم أسرة تقودها، هي أسرة آل فضل، لنعود نواجه من جديد دولة قبلية تشبه في قيامها، إلى حد ما، قيام دولة الجبور.

كما يجب أن لا يغيب عن ذهننا عامل آخر قد يكون له دور في تأجج الصراع بين هرموز والجبور، ذلك أنه أصبح لأجود شهرة واسعة، ولإمارته مكانة كبيرة، ولا أدل على ذلك من أن أجود أصبح يلقب بسلطان البحرين والقطيف والأحساء، ورئيس أهل نجد[2]، وهي ألقاب كان ملوك هرموز يفخرون في السابق بحملها.

كما أننا نجد من الجهة الأخرى أن مملكة الدكن البهمنية في الهند تسعى إلى صداقته، فراسله وزيرها الشهير محمود كاوان، طالباً منه إقامة علاقة صداقة وتعاون بين الدولتين، وفي ذلك دليل على أن شهرة أجود قد جاوزت حدود منطقة الخليج العربي لتصل إلى الهند[3].

أخذ سلغور شاه يعمل على التذرع بمبررات للتخلص من الاتفاقية التي عقدها مع السلطان أجود، فأخذ يطالب الأخير بأن يدفع له مبالغ سنوية من واردات هاتين المقاطعتين باسم حقوق التبعية، لكن أجود رفض ذلك وتمسك بالاتفاقية المكتوبة بينهما. ولجأ سلغور إلى استعمال القوة لإسناد مطاليبه، فأرسل عدة حملات بحرية ضد جزر البحرين والقطيف، كانت إحدى هذه

---

(١) حول نفوذ بني هلال الجبريين في عمان، راجع: الحميدان «نفوذ الجبور في شرق الجزيرة العربي»، المرجع السابق.

(٢) السمهودي، (ت ٩١١/١٥٠٥ ـ ٦) وفاء الوفاء (القاهرة ١٩٥٥م)، ٣/ ١٠٩٣ السخاوي، ١/ ١٩٠.

(٣) 6Aubin, op. cit, 124 note 292.

الحملات بقيادته، وأخرى بقيادة وزيره ريس نور الدين الفالي، كما قاد إحدى الحملات أيضاً طورانشاه بن سلغور شاه. وقد تصدى الجبور ببسالة لهذه الحملات جميعاً، وأحبطوها بقيادة السلطان أجود بن زامل، مستفيدين من تفوقهم العسكري في البر.

مما تجدر الإشارة إليه هنا أن المستشرق الفرنسي أوبين، يميل للاعتقاد بأن الحملة التي قادها طورانشاه عام ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م، قد نجحت في احتلال البحرين[1].

إن ما ذهب إليه أوبين يصعب قبوله للأسباب الثلاثة التالية:

أولاً: إن ابن ماجد عندما وصف جزر البحرين قال: «بأنها لأجود بن زامل عند تأليفنا الكتاب». وبما أن كتاب ابن ماجد «الفوائد» قد ألف ما بين عامي ٨٩٥ ـ ٨٩٦هـ/ ١٤٨٩ ـ ١٤٩٠م[2] فمعنى ذلك أن أوبين كان على خطأ فيما ذهب إليه.

ثانياً: إنه خلال تلك السنة التي رجح فيها جان أوبين احتلال طورانشاه للبحرين، كانت مملكة هرموز تعاني خوفاً شديداً من أطماع صوفي خليل بك موصوللو رجل دولة آق قوينلو القوي، ولم تستطع هرموز أن تتنفس الصعداء إلا عندما ابتعد خطره عنها عام ٨٩١هـ/ ١٤٨٦م[3] في مثل هذه الظروف التي

---

(١) Ibid, 124 note 292.

(٢) يرى شوموفسكي بأن كتاب الفوائد قد ألفه ابن ماجد ما بين عامي ١٤٧٥ و١٤٩٠م، إلا أننا قد رجحنا بأنه قد ألف ما بين عامي ٨٩٥ ـ ٨٩٦هـ/ ١٤٨٩ ـ ١٤٩٠م استناداً إلى ما ذكره ابن ماجد نفسه في كتابه المذكور من أن أجود قد استولى على عمان عام ٨٩٣هـ/ ١٤٨٨م، وأورد في النص نفسه قوله: «عند تأليفنا هذا الكتاب». ومعنى ذلك أنه كان مشغولاً بتأليفه في ذلك العام. وربما قد أتمه بعده بقليل أو على الأصل ذلك الجزء الخاص بجزيرة البحرين. راجع: ابن ماجد المصدر السابق. وكذلك راجع:
T. SHUMOVSKY, Fifteenth Century Arabian marine Encyclopaedia, ١٢٩Moscow, 1963, Tom ii, ٣٤ ـ ١٢٧.
محاضرة المؤتمر الدولي الخامس والعشرين للاستشراق المنعقدة في موسكو (أ ب ـ ١٩٦٠م).

(٣) لقد كان صوفي خليل بك وصياً على حاكم فارس، والذي هو ابن السلطان يعقوب بن حسن=

تتهدد هرموز ، يصعب قبول فكرة قيامها بحملة قوية ضد البحرين والقطيف .

ثالثاً: إن ابن بسام قد ذكر بأنه في عام ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م وهي السنة نفسها التي ذكر أن البحرين قد احتلها الهرموزيون ، قام أجود بن زامل بحملة تأديبية ضد بعض القبائل في واحات الخرج من أقاليم نجد[١] ، فإذا كانت بلاد البحرين مهددة بغزو وشيك الوقوع ، أو أن جزيرة البحرين قد احتلت في تلك السنة ، فكيف يقوم سلطان الجبور بالابتعاد عن مواقع الخطر بعيداً إلى الغرب؟ .

مهما يكن من أمر ، فإن الذي نميل إليه هو أن مملكة هرموز قد أدركت بأن تسوية الأمر عن طريق تحقيق نصر عسكري حاسم ضد إمارة الجبور غير ممكن ، وإن الوصول إلى تسوية سليمة توفيقية ربما يكون أفضل . كما يمكن القول بأن السلطان أجود لا بد أنه هو الآخر قد أخذ يميل إلى الحل؛ نظراً للأضرار الاقتصادية التي أخذت تصيب إمارته . إن ما ذكره المؤرخ البرتغالي دي باروس من أن النزاع بين الطرفين قد تم تسويته ، عن طريق اتفاقية هو الأقرب إلى الصحة ، وتؤيده الوقائع التالية . إن هذه الاتفاقية قد ذكر بأنها قد نصت على :

أولاً: تكون جزر البحرين تحت إدارة الجبور .

ثانياً: يعترف الجبور بتبعية هذه الجزر لمملكة هرموز .

= الطويل ، وكانت السلطة الحقيقية بيد صوفي خليل الذي أخذ بها جم باستمرار أراضي مملكة هرموز في البر الإيراني ، كما هاجم جزيرة هرموز نفسها ، واغتصب أموالاً كثيرة من الناس ، بالرغم من أن هرموز كانت تدفع الأتاوة إلى سلطان آق قوينلو سنوياً. ثم أخذ خليل بك يعد العدة لغزو الهند ، فبنى السفن في الخليج العربي ، كما شيد القلاع على ساحل بلاد فارس ، إلا أنه عزل من منصبه عام ٨٩١هـ/١٤٨٦م بعد أن كثرت شكاوى الناس من تصرفاته الجائرة. راجع:

V.Minorsky, persia in 1478 - 90, an abridged Trans of Fadlullah b, Ruzbihan Khuniji,s Tarkh Alam - ara - yiamini, London, 1957, 54, 101: J. Woods, the Agguyunlu, 146.

(١) AUBIN, Op. cit, 125 note 300.

ثالثاً: بموجب حقوق التبعية يقوم الجبور بدفع مبالغ سنوية (مقررات) من واردات هذه الجزر .

بقي هذا الاتفاق محترماً إلى حد كبير من قبل الطرفين ، ولسنوات طويلة لاحقة[١] بالرغم من أن مملكة هرموز لم تكن مرتاحة كل الارتياح لهذه الاتفاقية الجديدة؛ لأنها تعكس عجز هرموز وقدرة الجبور . ومهما يكن الأمر فإنه لم تمضِ مدة على هذا الاتفاق حتى أضحت موانئ عمان ـ وهي أجزاء من مملكة هرموز ـ تحت رحمة الجبور؛ لتغلغل قواتهم في عمان الداخل ، الأمر الذي أثار بالتأكيد مخاوف شديدة لدى الهرموزيين . يضاف إلى كل ذلك أن إمارة الجبور لم تكن بالتأكيد تدفع المبالغ المقررة عليها لهرموز ، أو على الأقل تتملص منها في بعض الأحيان .

وعليه كانت مملكة هرموز تنتظر الفرصة المناسبة؛ للتخلص من هذه الاتفاقية الجديدة ، وسحق قوة الجبور ، خصوصاً بعد أن أصبحت مقاليد السلطة الحقيقية في المملكة بيد الوزير المحنك خواجة عطار . وأتت الفرصة أولاً بعد أن توفي السلطان أجود بن زامل ، وثانياً بعد أن انسحب البرتغاليون من الخليج العربي ، على أثر سعي قوات المماليك في مصر؛ لضرب مراكزهم في الهند .

في جمادى الأولى ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م ، أصدر خواجة عطار بياناً وزع في أنحاء مملكة هرموز كافة ، أعلن فيه بأنه لما كان في النية شن الحرب ضد الجبور ، فعلى كافة السكان إلقاء القبض على من يجدونه من البرتغاليين في منطقة الخليج ، وتسليمهم أحياء إلى السلطات ، من أجل زجهم في هذه الحرب ، وإن أي شخص يتماهل في ذلك سوف يكون جزاؤه الموت[٢] .

على أن الأمر الجدير بالملاحظة هنا ، هو أنه على الرغم من أن الوزير خواجة عطار ربما اتخذ من اعتزامه شن الحرب ضد الجبور ذريعة؛ لإبعاد خطر

---

(١) AUBIN, ibid, 124 - 25: Caskel, 67.

(٢) AUBIN, ibid, 126 - 27.

التغلغل البرتغالي عن بلاده ، واستخدم الأسرى البرتغاليين أداة للمساومة معهم ، فيما لو عاودوا المجيء إلى بلاده مرة أخرى .

إلا أن من المحتمل أنه قد قصد فعلاً الاستفادة من القابليات الحربية الجيدة للبرتغاليين في المعارك البحرية .

مهما يكن من أمر ، فإن خواجة عطار لم يقم بحملة ضد الجبور إلا بعد مرور أربع سنوات على بيانه هذا . ففي عام ٩١٧هـ/ ١٥١١م قام شخصياً بقيادة حملة بحرية كبيرة ضد جزر البحرين نجحت في احتلالها ، إلا أن هذا الاحتلال كان لفترة قصيرة؛ إذ قام الجبور باستغلال قوتهم البرية الضربة في عمان ، ودفعوا إليها بقوات أخرى ، وحركوها نحو سواحل عمان ، وهددوا خواجة عطار باكتساح ممتلكات هرموز في الساحل العماني ، والاستيلاء على موانئها ، فيما إذا لم ينسحب من البحرين .

أدرك خواجة عطار قوة موقف الجبور في مواجهة خططه ، ثم النتائج الخطيرة التي قد تتسبب في تهديد مملكة هرموز ، فيما لو نفذ الجبور تهديداتهم هذه ، والتي سوف يكون من نتائجها الواضحة إغلاق الخليج العربي في وجه السفن التجارية المتجه إلى هرموز ، وهذا يعني دماراً حقيقياً لها ، فما كان من خواجة عطار إلا أنه انصاع بسرعة لهذه التهديدات ، وانسحب من البحرين تاركاً حكمها لإمارة الجبور[(١)] .

على أن أطماع هرموز في البحرين وادعاءاته فيها لم تتوقف ، وقد استغل البرتغاليون هذه الادعاءات بعد ذلك؛ ليحتلوا البحرين ، وهو ما سوف نذكره في حينه .

لقد ورد في بعض نصوص علماء النسب ، بأن الجبور انتفضوا في نجد والحجاز ، واستولوا على البحرين بعد أن انتزعوا الأحساء من بني (جروان) ، وقد عُرف نسب هؤلاء الجبور (بالجبريين) نسبتاً إلى جدهم السلطان جبر ، وهم من بني خالد بن السلطان جبر ، وكان الأمير زامل بن حسين الجبري أول

(١) ibid, 127 .

من حكم الدولة الجبرية ، بعد أن قضى على آخر أمراء الجروانية ، وأسرهم المعروفة ، وبدأ بتأسيس الدولة الجبورية ، أو قل الإمارة الجبرية في القرن الثامن الهجري ، فقامت الإمارة ، وازداد نفوذها وقوتها أثناء حملة تيمورلنك المشهورة ، وبعد ظهور الدولة الصفوية في بلاد فارس ، وبعد الصراع القائم في مناطق الخليج بين مملكة هرمز ، وإمارة المشعشعين .

فقد ساعدت الصراعات على تعزيز قدرات الإمارة الجبرية ، حيث إن هذه الإمارة الفتية القوية أصبحت هي المسؤولة عن حماية القوافل البرية ، والسفن البحرية على سواحل البحرين ، وبينها وبين الحجاز ، كما استقوى أمراء وحكام الدولة الجبرية ، من خلال تعميق الصلات بينهم وبين أمراء القبائل المتواجدة على الطريق التجاري ، وخاصة في اليمامة ونجد .

هذا ونفيد ونصحح ما كتبه بعض العلماء فنقول: بعد وفاة الأمير زامل مؤسس الدولة الجبرية ، تولى حكم الإمارة ابنه سيف إلا أن عهده لم يدم طويلاً ، فتولى الحكم أخوه وشقيقه أجود الذي ولد في الأحساء عام ٨٢٠ هجرية في وقت كان للدولة الجبرية السيطرة التامة في نجد ، وشرق الجزيرة العربية ، أي: في مناطق الأحساء وقطيف ونجد منذ عهد جدهم السلطان جبر ، وفي عهد أجود سيطروا على عُمان والبحرين ، وقطر ، والإمارات العربية المتحدة فاتسعت رقعة إمارة الجبور .

وكان الأمير أجود رجلاً محباً ، ذا حنكة ورجولة وشجاعة ، وقيل: إنه عمّر كثيراً حتى قارب التسعين عاماً ، وبعد وفاته استلم ابنه (محمد علي) الإمارة الجبورية ، وقيل: إن شريف مكة استنجد بـه على عبث قطاع الطرق من البدو ، فأنجده بجيش بقيادته يقدر بـ ٥٠ ألف جندي من جنوده الشجعان البواسل .

ومنذ أن ظهرت طلائع البرتغاليين في مياه الخليج ، بدأت إمارة الجبور مرحلة أخرى من تاريخها ، حيث قاد أمراؤها حرباً شعواء ضد الأجنبي الطامع ، وكانت أول المعارك حين وصل البرتغال إلى الخليج سنة ١٥٠٧م فنهبوا وخربوا وعبثوا ، وقتلوا كل من وجدوه أمامهم ، فتصدى لهم الجبور

بشجاعة وبسالة ، وردوهم على أعقابهم. فلجأ البرتغاليون إلى الضغط على الجبور عن طريق ضرب تجارة البحرين ، وقاموا بنهب سفينة في مياه الخليج كانت قادمة من جزيرة البحرين سنة ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م ، وعلى ظهرها حمولة كبيرة وثمينة من اللؤلؤ البحريني.

واستمر الجبور يواجهون حملة شرسة ، وتحدياً كبيراً من مملكة هرمز بعد أن أصبحت تقاليد ومقاليد الحكم بيد (خواجة عطار) الفارسي الأصل الذي قام عام ٩١٧هـ/ ١٥١١م بحملة بحرية قوية ، استطاعت أن تستولي على البحرين ، لكن الجبور ببسالتهم وصمودهم أرغموه على سحب قواته من البحرين مخذولاً بعد فترة قصيرة.

وحين هيمن البرتغاليون على مملكة هرمز تنفس الجبور الصعداء ، وانزاحت عنهم إحدى القوى التي كانت تتربص بهم.

ولكنهـا انـزاحـت إلـى حيـن وحسـب ، وأصبحـوا الآن أمـام الأطمـاع البرتغالية ، وكان الضعف قد بدأ يدب في أوصال الإمارة الجبرية ، ثم جاء الأمير مقرن بن زامل في العقد الثاني من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ، فاستطاع أن يصمد في وجه الأعداء البرتغاليين.

ووحد الصفوف وحافظ على هيبة وقوة الجبور. وعادت محاولات الهرمز لاسترداد البحرين والقطيف من الجبور مهما كلف الأمر. وكان الأسطول البرتغالي المدجج بالسلاح سنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م ، قد استولى على البحرين ، إلا أن الجبور البواسل صدوهم ، وطردوهم.

وأخيراً ، اتفق البرتغاليون والهرمز على غزو البحرين ، حين كان الأمير مقرن يؤدي مناسك فريضة الحج مع الآلاف من أتباعه وجنده ، ففي ١٠ شعبان سنة ٩٢٧هـ/ ١٧ تموز ١٥٢١م ، قام الأسطول البرتغالي يساعدهم ، ويدعمهم أهل هرمز بهجومهم المباغت غدراً على البحرين والقطيف ، بأكثر من مئتي سفينة مدججة بالسلاح والعتاد والجنود المدربين ، فصمد في وجههم ابن أخت مقرن عبد الحميد ، حيث تصدى لهم بكل ما يملك من قوات أثناء وجود خاله في الحج في المرة الأولى ، ثم قام السلطان مقرن بالهجوم والتصدي لهم في

عز الصيف ، وكان مقرن على رأس المعركة ، وهو يقاتل ويحث جنوده على الاستبسال والصمود ، إلى أن جرح جرحاً بليغاً بسلاح ناري في فخذه ، توفي على أثره بعد ستة أيام.

انسحب الجبور ، بعد أن انهارت معنوياتهم ، ونقل جثمان السلطان مقرن؛ ليدفن في الأحساء ، وقطع البرتغاليون رأس البطل الشهيد مقرن وهو ميت ، ولكنهم أحجموا عن احتلال القطيف؛ خشية أن تصاب قواتهم بنكسة بعد أن شاهدوا شجاعة الجبور ، واستبسالهم في البحرين.

وبعد هذه النكسة التي حلّت بالجبور ، دبّ الضعف والتنافس في أوساط الإمارة الجبرية ، وكان أكثر من طرف يتنافس على الزعامة والإمارة في الأحساء وفي عُمان ، واستعان الجبور آخر أيامهم بالشيخ راشد بن مغامس؛ الذي بعد فترة غدر بهم ، وانتزع منهم الأحساء والقطيف عام ٩٣١هـ/ ١٥٢٤م.

السويدان:

هو سويدان بن حسين الهيجي الجبري ، شقيق ملحم ، وجمعة ، وفرج ، وناصر أولاد حسين الهيجلي من جهة ، كما أنه عم فاضل ، وصالح وعروة أولاد ملحم الحسين من جهة ثانية. أولاد سويدان هما عبيد الذي لم ينجب أولاداً ، وعبد الله ، وأولاد عبد الله هم عيد ، رفاعي ، جاسم ، عامر ، بكر ، وأولاد عيد هم حميد ، حبش. ولرفاعي ولدٌ واحد هو صالح. أما جاسم فلم ينجب أولاداً ذكوراً. وأولاد عامر هما: حماد وهليل. أما حماد فله أحمد. وأولاد هليل هم: علي ، رمضان ، حسين ، عبد الله ، صالح ، وأولاد بكر هم: سالم ، وله ثلاثة أولاد هم: فرحان ، يوسف ، راشد.

تركي الجبر:

تركي الجبر من أبناء السلطان جبر ووالدته هي (صبحة الجبر) أيضاً ، وقد أورد بعض علماء النسب أن قسماً من التركمان يعدون من أولاد (تركي الجبر) وسمّوا بالتركمان نسبة إليه ، وهم يتواجدون في محافظة اللاذقية ومناطق حلوة وبجدلة على الحدود التركية السورية من جهة حلب ، ويعد الملا حسن ،

والطوبان من شيوخ ورؤساء عشيرة التركمان ، وهم من أبناء جوبال بن عجل (الجوابنة) وبعض علماء النسب ينسبونهم إلى أحفاد السلطان جبر ، والقول الأول هو صحيح ، والله أعلم.

خالد بن جبر:

خالد الجبر من أبناء السلطان جبر والدته هي (صبحة الشريف) وأتباعه معروفون ببني خالد ، وتواجدهم في مناطق (بكعة والرحال بالسعودية ، والحسا ، والقطيف ، والطائف) وقد شكلوا دولة يقال لها الدولة الجبرية ، كان يمتد نفوذها إلى الحجاز ، وإلى قسم كبير من نجد ، والبحرين ، وقطر ، والإمارات العربية المتحدة ، والكويت ، وعُمان . . . وكان لها أتباع في العراق ، وحمص ، وحماة ، وحلب في سورية ، وفي سهل البقاع وبعلبك في لبنان ، وفي شرقي الأردن ، وفلسطين ، وفي كافة أنحاء الوطن العربي الكبير.

وكان بيت رئاستهم في العريعر ، أخوال الملك سعود بن عبد العزيز رحمه الله ، ويدعي بعض علماء النسب بأن الجبور بطن من قبيلة خالد؛ التي تمتد منازلها على ساحل الخليج العربي ، ما بين وادي المقطع في الشمال ، ومقاطعة البياض في الجنوب ، وتتوغل حتى منطقة الصمان في الغرب ، (من هذا البطن أمراء الأحساء؛ الذين تغلّب عليهم ابن سعود وأخذ منهم الأحساء) حسب كتاب (قلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة ص ١٤٧ ، وتاريخ نجد للألوسي ص ٨٩).

وفي الصفحة ١٥٥ من كتاب فؤاد حمزة: (الجبور عشيرة من الخفران من الصعبة ، من بني عمر المقيمين في العارض) ويقول بيك في كتابه تاريخ شرقي الأردن ص ٢١٣ (الجبور بطن من بني خالد ، إحدى قبائل منطقة بادية شرقي الأردن ، ويتألف من العشائر الآتية: القضاة ، الناصر ، الدعاس ، الضجيم ، السالم ، السليم ، السعيد ، الجديان ، النبيض ، الطرشان).

وأيضاً الجبور: بطن كبير من الكعابنة ، من بني صخر إحدى قبائل بادية شرقي الأردن ، ينقسم إلى عشيرتين ، الفريج والدهام. (تاريخ شرقي الأردن لبيك ص ٢٢١) الجبور: فرقة من مجالي اليوسف ، من المجالي إحدى عشائر

الكرك في شرقي الأردن تقطن بالربة (تاريخ شرقي الأردن لبيك ص ٣٤٩) الجبور: فرع من بني خالد في سورية يعدون ١٨ خيمة بدوية.

Les tribus nomdes et smi. nomdes des etts du 1 er nt p.43

الجبور بطن من بطن علي ، من حرب ، يتفرع إلى الفروع الآتية: الكرشيف ، اللهامق ، الدواغرة ، المشارطة ، الكلخة ، الكتمد ، الفقوع. (عشائر العراق للعزاوي ص ٣٠٦) الجبور بطن من الشملان من السلكة (السلقة) ، من الجبل ، من العمارات ، من بشر ، من غزة. (عشائر العراق للعزاوي ص ٢٧٢) الجبور قبيلة كبيرة نصف متحضرة ، تتجول في الجزيرة بين دجلة والفرات ، ومن مراكزها الميادين الحسجة يعني: الحسكة المجرى الأعلى للخابور ، ثغر جقجق ، عويجة الصفرا ، الحميدي ، الفرسة ، الحلب ، تل حماد ، تل رمان ، ويقال: إن أصل هؤلاء الجبور من اليمن ، وبعد أن تبدوا بنجد ، ظهروا في سورية حوالي القرن الثالث عشر ، أو أوائل القرن السابع عشر الميلادي ، فأقاموا في وادي الفرات ، وطردوا منه شمّر ، ثم أقاموا في وادي الخابور ، وبقوا متمكنين على ضفتي الخابور من تل رمانة حتى البصيرة ، وعلى الضفة اليسرى من الفرات حتى جبل العرسي.

وبسبب نمو عددهم ، وضيق المراعي ، وغزوات الشمر لجؤوا شيئاً فشيئاً إلى الرحيل عن ضفة الفرات اليسرى ، وأصبحت حالتهم لا تطاق ، حيث ضغطت عليهم قبيلة العكيدات؛ التي كانت تزداد قوة وعدداً يوماً بعد يوم ، فرحل كثير من الجبور إلى أقطار بغداد ، والموصل ، وكركوك.

وفي سنة ١٨٠٠م بعد جهاد عنيف ، وقتال شديد مع العكيدات ، اضطروا لإخلاء البصيرة ، ورحلوا إلى ما وراء صوّر ، ودام النزاع حتى سنة ١٨٧٩م حيث استولى الأتراك على بلادهما ، وحسموا النزاع بينهما. وأما حالة الجبور الاقتصادية ففي سنة ١٩٠٨م كان الجبوريون في دير الزور يدفعون نصف ضرائب اللواء ، ثم ثقلت عليهم يد الأتراك.

وأخذت الزروع تقل شيئاً فشيئاً ، إلى أن جاءت الحرب العالمية الأولى ، فازدادت حالتهم شقاوة ، وأصبحوا بسبب بُعد مركزهم عن مقر السلطة تحت

رحمة الجباة ، والموظفين ، فهرب أكثرهم إلى الموصل ، والتحق الباقون بعرب الشمّر ، واستأنفوا عيشة البادية رحيلاً وتنقلاً .

ينقسم الجبور في العراق إلى خمس عشائر:

الأولى: جبور أبي أنجاد ، وعدد خيامهم «٨٠٠٠» ، ويقيمون في جنوبي كركوك.

الثانية: جبور الشويخ ، ويخيمون شمالي غربي الموصل ، وعدد خيامهم «٩٠٠».

الثالثة: جبور الواوي ، ويسكنون شرقي كربلاء ، وعدد خيامهم «٦٠٠٠» خيمة.

الرابعة: جبور القضاة (الكضاة) ، ويقيمون في ضواحي زنبقات شرقي السليمانية ، وعدد خيامهم «٣٠٠٠».

الخامسة: جبور أبي عميرة الذين ألفوا الحضارة ، وتواطنوا ، وتاجروا في بغداد.

أما جبور الدير منهم قوم مسالمون ، لا تتعدى طموحاتهم متابعة حياتهم وأعمالهم بالأمان والراحة ، وليسوا شديدي التعلق بأراضيهم ، بل كانوا يغادرونها ، ويرحلون إلى الصحراء تخلصاً من ضغوط الأتراك.

وفي سنة ١٩٢٣م حين قرر الأتراك تحصيل ضريبة (الأربعين بالمئة) عن قطعانهم ، غادروا قراهم فوجدها الجباة خالية ، خاوية.

ولجبور الديرة أفخاذ ثلاثة الأولى: جبور الهياجل ، وهم تسعة أقسام مشتملة على ألف خيمة. والثاني: جبور العميرات ، وعددهم أربعمئة خيمة ، وهم فرع واحد يدعون «الدندل» والثالث جبور «البوخطاب» ، ولا يزيد عدد خيم هؤلاء عن خمسمئة خيمة.

وأما حلفاء آل جبور فهم أولاد «الشيخ عيسى» و«الشرابيون» ورئاسة الجبور الأميرية في عائلة ملحم ، وإليها ينتمي الفلاحون ، ومناطقهم في الصيف «وادي الخابور» وادي تل الرمان ، شيخ حامد ، وادي الجقجق حتى تل

حمدي. وأما في الشتاء فيتجولون في البادية ، وحول الخابور ، لكنهم في العادة لا يبتعدون كثيراً عن مناطقهم الأساسية ، ومسيرة يومين تكاد تكون الحد الأعظمي لترحالهم.

وحسب ما قال شارل باقي في كتاب (إفادات زراعية) ٢٣٨ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، وفي كتاب (عامان في الفرات): (فهم يتفرعون إلى الملحم ، العلي ، المحاسن ، الحازم ، المعامرة ، الدندل ، ولد الشيخ عيسى ، الصباح ، المحمد ، الحسوني ، الجحيش ، البومانع ، العصوني ، حسون ، البومشاحة ، المعامرة ، بوخطاب ، الفداح ، الحليبين ، والبقة). وفي كتب الأوسط لعبد الجبار فارس ، مذكراتي لفائز غصين ص ٩٨ ، ١٠٣ ، تاريخ حلب للغزي ٦٠٧/١ المعلومات الزراعية مخطوط ص ٣١ ، رحلة في البادية للحايك ص ٧٢ ، ٩٧. نجد (الجبورية): فريق كبير من عباد إحدى قبائل منطقة البلقاء ينقسم إلى العشائر الآتية: «البقور ، الصلاحين ، الزيادات ، الرصافة ، الجيرة ، الفقها ، والزيود».

وفي كتاب (تاريخ شرقي الأردن) ص ٢٦٢ (الجبور فخذ من المفضل من اليحيى ، من البور وقيل: من العبدة ، من شمر الجزيرة إحدى محافظات الجمهورية السورية) وفي كتاب قلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة ص ٢٦٨ ، وفي البادية للراوي ص ٨٦ (الجبور هم الجبيلان ، الصكور ، والسلكة) وحسب الراوي (يقدر عدد بيوتهم بـ ٤٠٠٠ بيت).

وفي كتاب (عامان في الفرات الأوسط) ، وفي كتاب (إفادات زراعية) لشارل باقي: (إن أفراد قبيلة الجبور منتشرون في أماكن عديدة. ويسكن قسم عظيم من هذه العشيرة ، في ناحيتي القاسم ، والمدحتية على قناتي الجربوعية ، وعلاج من فروع شط الحلة ، ويسكن بعض أفراد هذه العشيرة على الشاطئ الأيمن من فرع الحلة فوق مصب الدغارة ، كما يسكن بعضهم الآخر على قناة اليوسفية ، وقد سكن بعضهم على نهر الخابور في لواء كركوك ، وبعضهم الآخر في ديالي ، ويقدر نفوس الجبور الذين سكنوا الفرات بـ ٨٠٠٠ رجل ، إنهم يتفرعون إلى الملحم ، العلي ، المحاسن ، الحازم ،

المعامرة ، الدندل ، ولد الشيخ عيسى ، الصباح ، المحمد ، العصوني ، الجحيش ، البومانع ، حسون ، البومشاحة ، المعامرة ، البوخطاب ، الفداح ، الحلبين ، والبقة (إفادات زراعية لشارل باقي) ص ٢٤٢ ، ٢٤٣.

ونقلاً عن كتاب (قلب جزيرة العرب) لفؤاد حمزة ص ١٤٧ ، و(تاريخ نجد) للألوسي ص ٨٩. الجبور: عشيرة من الخضران ، من الصعبة ، من بني عمر المقيمين في العارض.

* * *

التعقيب

إن الجبور هم أبناء السلطان جبر. وأمه (صبحة الشريف كما هو وارد في نسب الجبور المذكور في هذا الكتاب) وهي من القبائل القحطانية العربية العريقة كانت سكناهم في مكان يقال له (زبيد) فأسسوا دولتهم الجبرية في جزيرة العرب في نجد ، وادي الدواسر ، الأحساء ، القطيف ، ثم البحرين ، قطر ، الإمارات العربية المتحدة ، عُمان ، الكويت ، والمناطق الجنوبية في العراق في الحلة ، والديوانية ، ووصلوا إلى تيماء قرب المدينة المنورة ، حيث حفروا هناك بئر هداج ، ولا يزال قائماً إلى يومنا هذا.

أما حدود الدولة الجبرية الزمنية ، فهي القرون التاسع والعاشر والحادي عشر الهجري. وقبيلة الجبور من أكبر القبائل في الوطن العربي ، وربما توازي قبيلة عنزة ، أو تفوقها عدداً.

تعقيب وتصحيح

كنّا نأمل من الأستاذ فؤاد حمزة في كتابه (قلب جزيرة العرب) ، والألوسي في كتابه (تاريخ نجد) ، أن تكون معلوماتهما عن قبائل الجبور صحيحة. لقد تورط المؤلفان وعرضا أخطاءً كثيرةً ، ونقصاً ، خاصة في الحالات التي تتعلق بقبائل الجبور ، فأرجو الانتباه ، والتنويه ، والتصحيح.

أما قول الألوسي: إن الجبور (بطن من بني خالد) فغير صحيح ، بل العكس هو الصحيح؛ لأن خالد هو ابن السلطان بن جبر ، وأمه صبحة الشريف ، وأن عشائر بني خالد المجيدة تعد بطناً من قبائل الجبور العربية القحطانية العريقة بأصالتها ، وهذا هو الصحيح.

فكان على الكاتب أن يتحقق ويتوثق من المراجع ، والمصادر الصحيحة

التي اعتمدها بهذا الصدد ، قبل أن يورط قلمه بكتابة الأضاليل .

وقد ورد أيضاً في كتاب (قلب جزيرة العرب) لفؤاد حمزة ص ١٥٥ : (الجبور بطن من بني خالد إحدى قبائل منطقة بادية شرقي الأردن ، وتتألف من العشائر الآتية: القضاة ، الناصر ، الدعاس ، الضحيم ، السالم ، السليم ، السعيد ، الجديان ، النبيط ، الطرشان) والصحيح أن عشائر بني خالد هي من العشائر الكبيرة ، والمنتشرة في المملكة العربية السعودية ، والعراق ، وسورية ، وفلسطين ، وفي شرقي الأردن ، وفي لبنان ، وفي جميع أنحاء الوطن العربي الكبير .

وهم بطن من قبائل الجبور ـ كما أوردنا سابقاً ـ وأن خالد هو ابن السلطان جبر جد قبائل الجبور ، وأمه صبحة الشريف ، وقد بيّنت وفصّلت بما فيه الكفاية بنسب الجبور المذكور ، والمكتوب في كتاب (معادن الذهب في معرفة تاريخ أنساب العرب) يرجى الاطلاع على هذا الموضوع .

وورد أيضاً في (تاريخ شرقي الأردن) للمؤلف بيك : (أن الجبور بطن كبير من الكعابنة ، من بني صخر إحدى قبائل بادية شرقي الأردن ينقسم إلى عشيرتين: الفريج ، والدهام) . وأستغرب من أين جاء الكاتب المذكور بهذه المعلومات المغلوطة ، وأفيد وأصحح وأؤكد لكاتبنا بأن (الكعابنة هم فخذ من الجبور ، وهذا شرف عظيم ، وأن قبيلة الجبور تفتخر وتعتز بأن عشائر بني صخر هم من أحفاد السلطان جبر ، وهم من شيوخ قبائل الجبور ، وأن الفريج والدهام هم جبور وبيت الرئاسة ترجع وتعود إلى الفايز) ومنهم العم المرحوم الشيخ عاكف الفايز رحمه الله شيخ بني صخر في شرقي الأردن ، ويعاونه إخوانه وأولاد عمه من آل فايز الكرام .

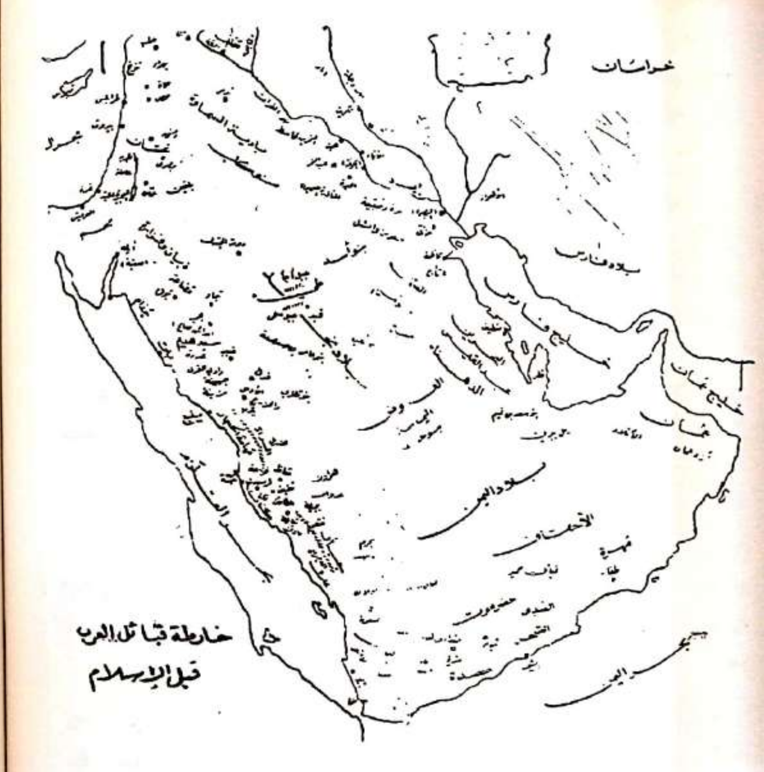
وورد في تاريخ شرقي الأردن لبيك أيضاً ص ٣٤٩ (الجبور : فرقة من مجالي اليوسف ، والمجالي إحدى عشائر الكرك في شرقي الأردن تقطن في الربّة) وأفيد بأن فرقة من مجالي اليوسف من المجالي إحدى عشائر الكرك في شرقي الأردن تقطن في الربّة ، هم فرقة من الجبور ، وأن المجالي هم من أحفاد السلطان جبر ، وهم من شيوخ قبائل الجبور في شرقي الأردن ، ويعد

هذا النسب والحسب شرفاً عظيماً لقبائل الجبور؛ إذ تنتسب إليهم وتعد منهم عائلة المجالي الجبورية الأصيلة الكريمة ، ومن هذه القبيلة ينتسب المشير الركن حابس المجالي رحمه الله ، وكثير من آل مجالي كانوا من ذوي النفوذ الواسع في شرقي الأردن ، وأصحاب المناصب الرفيعة مثل رئاسة مجلس الوزراء ، والنواب ، والديوان الملكي ، وقيادة الجيش في شرقي الأردن بصورة مستمرة .

يقول الأستاذ العزاوي: (يقال: إن أصل هؤلاء الجبور من اليمن) وهو يعلم بأنهم من اليمن ، وهم أبناء السلطان جبر بزبيد اليمن ، لماذا يا أستاذ (يقال)؟ وهو يدري ويعلم بأن قبيلة الجبور في العراق تعد الآن حوالي ستة ملايين نسمة ، كنا نأمل أن تكون معلومات الأستاذ العزاوي ، والأستاذ وصفي زكريا الذي يقول: (يزعم الجبور أنهم قحطانيون . . . إلى آخره) يزعم الجبور هكذا يقول ، كنا نأمل أن تكون معلوماتهم صحيحة ، وأن لا يوجد فيها نقص أو تقصير ، أو افتراء في بعض الحالات؛ لأنها كتابة صفحة في موضوع حياة قبائل الجبور ، فمن هنا لا بد لي أن أشير أن غرضي ليس النقد ، أو التنديد بالمؤلفين ، والاسترابة منهم فيما يكتبونه بلا قيد ولا شرط ، وإنما هو العلم الصحيح بأنساب القبائل العربية العريقة .

* * *

خريطة قبائل العرب قبل الإسلام



توسع إمارة الجبور في عُمان

من المفيد ، ونحن نتصدى للحديث عن عُمان خلال هذه الفترة ، أن نبدي بعض الملاحظات العامة ، لعلها تنير بعض معالم الطريق للباحثين والمتتبعين لتاريخها. وأول ما يجدر التنبيه إليه أن عبارة عُمان كثيراً ما تعني: ميناءها الرئيسي صحار أو البريمي؛ لذا علينا أن نكون دقيقين في التحري عن المقصود بعبارة عُمان ، عندما تمر بنا في المصادر القديمة ، وأن لا نقع في خطأ التعميم. والواقع أنه يمكن لنا القول بأن عُمان إقليم واسع على حدود بلاد البحرين من الشمال ، ويشرف على بحر عُمان والخليج العربي ، في حين أن جهاته الغربية تقع على حدود بوادي نجد ، وبلاد اليمن.

ومما يجدر ذكره هنا أن كثيراً من الجغرافيين يدخلون أجزاء من بلاد اليمن في بلاد عُمان ، والعكس صحيح أيضاً.

إن سعة هذا الإقليم والتباين في تضاريسه الأرضية قد أديا ، كما يبدو ، إلى وجود اختلاف في الطريق الذي سار فيه تاريخ كل جزء من أجزائه في بعض الفترات. ويمكن لنا أن نميز بين قسمين رئيسيين لإقليم عمان ، وهما عُمان الداخل وعُمان الساحل ، واللذين لا يمكن الاتصال بين معظم أجزائهما إلا من خلال الأودية والمسالك؛ التي تخترق جبال عمان.

إن هذين القسمين قد مرا بتغيرات سياسية واقتصادية واجتماعية متفاوتة في أشكالها ومظاهرها ، وكان ذلك بفعل الطبيعة الجغرافية لكل من هذين القسمين والنشاط الاقتصادي الذي يمارس فيها ، إضافة إلى ما تعرضا له من تيارات بشرية ، سلمية كانت أم حربية من داخل الجزيرة أو خارجها.

على أنه يجب ألا يفهم أن التواصل الحضاري، والاجتماعي، والسياسي ،

والاقتصادي ، كان مقطوعاً بين عُمان الداخل وعُمان الساحل ، بل على العكس كان التواصل فيما بينهما قائماً ومستمراً إلى درجة كبيرة.

على أنه يمكن القول: إن عُمان الساحل كانت أكثر تأثراً بالمؤثرات الخارجية ، وأكثر توجهاً نحو السواحل والجهات الساحلية المجاورة لها في الخليج والبحر العربي. بينما كانت عُمان الداخل أكثر تأثراً وتفاعلاً بالمؤثرات القادمة من داخل الجزيرة العربية.

على أن عُمان لم تصل إلى درجة من القوة والنهوض السياسي والعسكري ، إلا عندما كان هذان الجزآن متحدين في سلطة سياسية واحدة. ومهما يكن من أمر ، فإن عمان الساحل خلال الفترة التي نبحث فيها كانت تشكل جزءاً أساسياً من أراضي مملكة هرموز ، بينما كانت عُمان الداخل يخضع جزء كبير منه لسلطة أمراء النبهانيين؛ الذين كانت سلطتهم ونفوذهم خلال هذه الفترة التي ندرسها تعاني الضعف والانحلال.

لقد كان عُمان الشمالي أكثر أجزاء بلاد عُمان انفتاحاً على بلاد البحرين وأقرب المناطق إليها؛ لذا كان من الطبيعي أن تتعرض هذه الأجزاء إلى تغلغل القبائل النجدية في أجزائها ، والذي يبدو لنا أن قبائل بني عامر بقيادة آل جبر أخذت تتغلغل في هذا الجزء منذ عهد الشيخ زامل بن حسين الجبري ، إذ استقر قسم كبير منها هناك. ويرى ولكنسون ـ المتخصص في شؤون عمان ـ أن بني عامر كانوا آخر مجموعة قبلية استقرت في عمان[1].

لقد شهدت عُمان الداخل منذ الربع الأول من القرن التاسع / الخامس عشر محاولة الأئمة الإباضيين استعادة نفوذهم السياسي السابق على عمان ، مستفيدين من النفور والاستياء العام؛ الذي أخذ يظهره السكان نحو النفوذ الهرموزي المتحكم في موانئ عُمان ، وكذلك نحو الحكام النبهانيين؛ الذين اشتد ضعفهم وفسادهم وجورهم.

لذا فقد اشتد الصراع بين النبهانيين والإباضيين ، وأدى إلى تدخل قوى

(1) J. WILKINSON, «The Origins of the Omani state», in the Arabian penin-sula, ed. D. Hopwood, London, 1972 pp. 67 - 83, esp. 83.

خارجية في هذا الصراع. وقد تزايد هذا الصراع بشكل خاص في النصف الثاني من ذلك القرن. فعندما نجح إمام الإباضية عمر بن الخطاب بن محمد الخروصي في انتزاع الحكم من النبهانيين ، وتمتع بالسلطة عدة سنوات قام ضده سليمان بن سليمان النبهاني ، وأطاح به[1] ، وأخذ يمارس حكماً اتصف بالتعسف والفساد ، الأمر الذي أثار ضده استياءً واسعاً ، وقد عمل الإباضيون مرة أخرى تحت زعامة الإمام عمر بن الخطاب الخروصي على التخلص من سليمان ، فتوجه عمر إلى الأحساء طالباً المساعدة من أقوى زعيم في الجزيرة العربية السلطان أجود بن زامل.

ولم يترك السلطان أجود هذه الفرصة للتدخل في شؤون عُمان تضيع منه ، وكان لا شك يتطلع إليها منذ مدة؛ إذ قد وجد نفسه في موقف لا يختلف عن موقف القوى السياسية؛ التي سبق لها أن بسطت سيطرتها على شرقي الجزيرة العربية ، ثم قاتلت من أجل عُمان.

فالخوارج والقرامطة والعيونيون والعصفوريون ، ومن تلاهم أيضاً كالسعوديين والمصريين والعثمانيين كلهم سلكوا الطريق نفسه ، ولتحقيق الهدف ذاته. يضاف إلى ذلك أن السلطان أجود بوقوفه إلى جانب زعيم الإباضيين ضد سليمان النبهاني؛ الذي يرتبط بصلة عائلية قوية بملك هرموز ، سوف يكون قادراً على توجيه ضربة غير مباشرة لمملكة هرموز ، والارتكاز على الأراضي العمانية للضغط على ممتلكاتها الواقعة على امتداد عمان الساحل.

وعلى كل حال إن الإستراتيجية التي رسمها السلطان أجود في إيجاد موطئ قدم لإمارته في عُمان ، قد حصد فوائدها خلفاؤه.

ومهما يكن من أمر ، فإنه في عام ٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م أرسل السلطان أجود قوات كثيفة إلى عُمان ، بقيادة ابنه سيف؛ لمساندة عمر بن الخطاب الخروصي ، وقد نجحت هذه القوات في طرد زعيم النبهانيين سليمان بن

(1) تتضارب المصادر العمانية حول تواريخ وقوع هذه الأحداث؛ لذا فقد ضربنا صفحاً عن إيرادها.

سليمان ، وتنصيب عمر الخروصي حاكماً على عُمان الداخل. لقد كان من شروط الدعم العسكري؛ الذي قدمه الجبور للإباضيين أن يقوم الإباضيون بدفع جزء من حاصلات عُمان الزراعية إليهم كل عام[(١)].

وإن هذا التدخل العسكري للجبور في عُمان ، وما تضمنه من شروط ، كان بداية لأن يمارس الجبور نفوذاً سياسياً واقتصادياً واسعاً في عُمان ، أخذ يزداد مع الزمن ، خصوصاً وأن الأوضاع الداخلية المضطربة لعَمان كانت عاملاً مساعداً على توسيع نطاق هذا النفوذ وتقويته. كما يجب ألا ننسى الدواعي التجارية؛ التي تدفع الجبور للمحافظة على دوام تماسهم بالمنافذ البحرية؛ التي تربطهم بتجارة المحيط الهندي ، وتمكنهم من توسيع احتكارهم لتجارة الخيول. إن ما ذكرته المصادر البرتغالية من أن الجبور كانوا قد سيطروا على ظفار أيضاً هي مسألة واردة ، ونتيجة منطقية لنفوذهم الواسع في عُمان ، ولطموحهم التجاري.

يضاف إلى ذلك الدواعي الأمنية لإمارة الجبور التي كانت هي الأخرى تدفعهم إلى تثبيت أقدامهم هناك ، خاصة وأنهم في صراع مستمر مع مملكة هرموز؛ لذا يمكن القول بأن قسماً كبيراً من عمان قد أصبح ضمن دائرة نفوذ الجبور. ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن المصادر العمانية تتجاهل - ربما عن عمد - دور السلطان أجود بن زامل في تنصيب الإمام عمر بن الخطاب الإباضي حاكماً على عُمان ، على الرغم من أن التاريخ الذي تورده هذه المصادر ، لتنصيب عمر بعد إزاحة سليمان النبهاني ، يتطابق كل التطابق والتاريخ الذي أورده ابن ماجد النجدي المعاصر للأحداث ، والقريب من موقع وقوعها[(٢)].

(١) ابن ماجد ، ٣٠١-٣٠٢.

(٢) حول المصادر العمانية ، راجع: سرحان بن سعيد الأزكوي ، تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع الأخبار الأمة ، تحقيق: عبد المجيد القيسي (أبو ظبي ١٩٧٦م) ٧٤ - ٧٦. حميد بن رزيق ، الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة عمان ، (القاهرة ، ١٩٧٨م) ٧٧ - ٨٠/ حميد بن رزيق (مخطوطة) الفتح المبين في سيرة البوسعيديين ، نسخة المكتبة الوطنية في باريس رقم Arabe ٤٨٥٣ ورقة ٩٦ - ٩٧. لقد اعتمدنا النسخة =

إن مما يلفت النظر أن السخاوي جعل قيام السلطان أجود بضم عُمان إلى دائرة نفوذه ، قبل إعادة سلغور شاه إلى عرش هرموز بدعم من أجود ، وقد حذا الجزيري حذو السخاوي في ذلك[(١)]. وقبل مواصلة البحث عن علاقة الجبور بعمان ، يستحسن بنا أن نعلق على قول جيمس بلكريف من أن العهد الاستبدادي لابن أجود في البحرين قد انتهى عام ٨٩٢هـ/ ١٤٨٧م ، على إثر هجوم عماني أدى إلى تعيين عمر بن الخطاب حاكماً على الجزيرة[(٢)].

إن هذا القول على الرغم من أنه يفتقر إلى أي سند تاريخي ، ويتعارض مع المصادر الموثوق بها ، والتي أكدت بأن جزر البحرين قد أصبحت قبل عام ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م جزءاً من إمارة الجبور ، واستمرت كذلك لمدة نصف قرن تقريباً ، أي: حتى الغزو البرتغالي - الهرموزي لهذه الجزيرة عام ٩٢٧هـ/ ١٥٢١م ، فإن الذي يلفت النظر فيه هو أن بلكريف قد قلب الحقائق التاريخية ، فبدلاً من أن يقول: إن أجود بن زامل قد غزا عمان عام ٨٩٣هـ/ ١٤٨٧ - ١٤٨٨م ونصب عمر بن الخطاب حاكماً على تلك البلاد ، نجده يجعل من عمر محرراً لجزيرة البحرين من ظلم الجبور.

على أن الوصف الذي أطلقه بلكريف على حكم الجبور في البحرين بأنه جائر يصعب قبوله؛ لأن معاصري السلطان أجود كالسمهوري والسخاوي قد نعتوه بأوصاف تدل على خلاف ذلك[(٣)] ، يضاف إلى ذلك أن وصف ابن ماجد لجزيرة البحرين في ظل حكومة الجبور ، تظهر بأن هذه الجزيرة كانت مزدهرة وعامرة بالسكان ، وضروب النشاط الاقتصادي المختلف[(٤)].

= الخطية؛ نظراً لأن النسخة المطبوعة منه ، والتي بين أيدينا رديئة التصحيف ، وسقط منها عدد غير قليل من الأوراق.

(١) الضوء اللامع ، ١/ ١٩٠. درر الفوائد ، ورقة ٣١٦ عن تحفة المستفيد ١٢٠.

(٢) (J.H,D. BELGRAVE, WECOME to Bahrain, London, 3 rd ed, 1957, 108

(٣) وفاء الوفا ، ٣/ ١٠٩٣. الضوء اللامع ، ١/ ١٩٠.

(٤) كتاب الفوائد ، ٣٠١ - ٣٠٢. يلاحظ أن عدد القرى في البحرين في نهاية القرن الخامس عشر عندما وصفها ابن ماجد ، هي نفس عددها في مطلع القرن الثالث عشر عندما وصفها ابن المجاور. راجع: صفة بلاد اليمن ، ليدن ١٩٥١م ، ٣٠١. كما أن ظهور ميناء المنامة في=

إن هذا الوضع المزدهر قد استمر أيضاً في ظل الأمراء الذين خلفوا أجود بن زامل ، ونستدل على ذلك من تقرير برتغالي مرسل من البحرين إلى لشبونة عام ٩١٢/١٥٠٦م وقد ذكر هذا التقرير أيضاً أن هذه الجزيرة يحكمها ملك عربي[١] ، كما أن الأوصاف التي أطلقها ابن إياس على السلطان مقرن سلطان البحرين والأحساء والقطيف ، تدل هي الأخرى على ترفعه عن الجور والتعسف ، وأن بلاده كانت تنعم بالرخاء والازدهار[٢] .

وقبل أن نختتم ملاحظاتنا هذه لا بد لنا أن نتساءل : لماذا اختار بلكريف هذه الفترة بالذات دون غيرها من تاريخ جزيرة البحرين ، حين توحدت أجزاء واسعة من جزيرة العرب في ظل حكومة عربية ، لكي يصفها بالجور والاستبداد؟ إن جواب ذلك قد يكون مصدره هو العقلية المتسلطة على عدد من الباحثين الغربيين؛ التي تسعى دائماً إلى تسليط الأضواء على فترات الهدم والتمزق في جسم الأمة العربية الإسلامية ، وإضفاء أفضل النعوت عليها ، وفي المقابل تشويه فترات النهوض والتوحد والتعتيم عليها .

ومهما يكن من أمر ، فالذي حدث في عمان بعد ذلك هو أن عمر بن الخطاب الإباضي لم يتمتع بالسلطة بعد عودته ثانية إلى الحكم؛ إذ توفي عام ٨٩٤هـ/١٤٨٨م ، الأمر الذي أدى إلى عودة الفوضى إلى عمان الداخل ،

= حدود عام ٩٠٠هـ/١٤٩٤م أي: في عهد أجود بن زامل هو دليل آخر على ازدهار جزيرة البحرين في عهد بني جبر . هذا مع العلم بأنه قد ورد في الشهنامة في حوادث النصف الثاني من القرن الثامن / الرابع عشر ذكر المنامة ، وربما كانت في تلك الأثناء قرية صغيرة ، لكنها اتسعت واشتهرت كميناء ، وبرز اسمها في عهد الجبور ، راجع : الشيخ علي حسن البلادي البحراني ، أنوار البدرين في تراجم علماء القطيف والأحساء والبحرين ، النجف ، ١٩٦٠م ، ٢٢٧ . كذلك :

Teixeira, Op. cit, 188

(١) يضاف إلى ذلك أن تقريرالبوكرك عن جزر البحرين؛ الذي كتب في حدود عام ١٥١٤م ، قد وصفها بأنها واحدة من أغنى جزر الخليج ، وأكثرها ازدهاراً . راجع :

The Commentaries of the Great Alfonso Daiboguergue, Tr. By W. Gray Birch, London, 1884m, vol. Iv, p 187, (The Hakluyt Society).

(٢) بدائع الزهور ، القاهرة ، ١٩٦١م ، ٥/٤٣١ .

واستمرارها ، وظهور عدد من الزعماء الطموحين؛ الذين أخذ كل واحد منهم يسيطر على جزء من البلاد .

الأمر الذي هيّأ الفرصة لعودة سليمان النبهاني إلى السلطة مرة أخرى . ويذكر أوبين معتمداً على الترجمات الإنكليزية للحوليات العمانية ، أن سليمان النبهاني كان قد لجأ إلى هرموز عندما طرده الجبور من عمان ، وأنه قد عاد إليها بعد حصوله على دعم وإمدادات من حكام فارس .

إلا أننا لم نعثر في الأصل العربي لهذه الحوليات على ما يؤيده ذلك .

ومهما يكن من أمر فإن سليمان النبهاني قد قتل سنة ٩٠٦هـ/١٥٠٠م على يد زعيم الإباضية محمد بن إسماعيل؛ الذي ربما كان قد استعان أيضاً بالجبور من أجل الوصول إلى السلطة ، على أنه يصعب القول بأن محمد بن إسماعيل هذا قد نجح في بسط نفوذه على جميع أجزاء عمان الداخل؛ إذ إن هذا الهدف ـ في تلك الظروف ـ كان بعيد التحقيق ، ولم يتحقق لأي زعيم عماني إلا بعد مرور أكثر من قرن على هذا التاريخ . وقد بقيت عمان الداخل مجزأة إلى ما يشبه حكومات المدن ، وكان الجبور يهيمنون على مناطق واسعة من عمان الشمالي ، ومنها كانوا يفرضون نفوذهم ومطالبهم على بقية أجزاء عمان الداخل .

ولقد اعتادوا في أوقات جني المحاصيل الزراعية كالتمور والحبوب وغيرها ، التوغل في عمان الداخل ، وأخذ جزء من هذه المحاصيل من السكان باسم رسوم الحماية ، مهددين باستعمال القوة أو باللجوء إليه في بعض الأحيان[١] .

إن مما يؤيد سعة نفوذ الجبور في عمان ، هو أن البرتغاليين عندما دخلوا الخليج العربي لأول مرة عام ١٥٠٧م ، تحدثوا عن قوة الجبور ونفوذهم الكبير في عمان . وقد ذكر البوكرك أن عمان الداخل كانت خاضعة لملك الجبور؛

(١) الأزكوي ، كشف الغمة ، ٧٥ ـ ٧٦ . مخطوطة الفتح المبين ، ورقة ٩٤ ـ ٩٦ .
AUBIN. OP. cit., 125, Caskel, 66.

الذي وصفه بأنه يحكم أيضاً جميع جزيرة العرب.

وبالرغم من طابع المبالغة في تقرير البوكرك ، إلا أنه يحمل في ثناياه جزءاً كبيراً من الحقيقة. كما أن باروس هو الآخر ، قد تحدث عن قوة الجبور في عمان الداخل ، وذكر بأن هجماتهم مستمرة عليها ، كما أنهم يشكلون خطراً جدياً على أراضي مملكة هرموز على امتداد عمان الساحل ، بل وعلى وجودها في تلك المناطق.

ولا أدل على قوة نفوذ الجبور في عمان من أنه عندما حاصر البوكرك مسقط عام ١٥٠٧م ، سارع أحد زعماء الجبور على رأس قوة كبيرة لنجدة المدينة[1].

* * *

(١) Miles; Op. cit., 155: Caskel, 66: Aubin, Op. cit., 126 - 27: Strioling. The ottoman Turksand Arabs, 25.
سالم السيابي ، إسعاف الأعيان في أنساب أهل عمان ، بيروت ١٩٦٥م. ٢٩ - ٣٠.

نفوذ الجبور في نجد وظفار

لا شك بأن لإقليم نجد أهمية كبيرة في حياة إمارة الجبور العامرية ، فهو أحد المواطن الرئيسة لمعظم بطون بني عقيل منذ عصور ما قبل الإسلام ، وقاعدة من قواعدهم للانطلاق نحو الشرق ، وأن مغادرة بعض البطون والأفخاذ لهذا الموطن لا يعني دائماً أن كافة أفخاذ القبيلة قد غادرته ، وقطعت صلتها به.

إن هذه الملاحظة تنطبق كل الانطباق على بني عامر مثلما تنطبق على بقية بطون عقيل الأخرى؛ إذ بقي قسم منهم في مواطنه الأصلي ، وعلى صلة مستمرة بإخوانه الذين هاجروا نحو الشرق.

والواقع أن نجد الأوسط وبلاد البحرين قد شكلتا ـ بامتدادهما شمالاً نحو البصرة وجنوباً نحو عمان ـ إقليماً متكاملاً من جوانب عدة ، وكانا وثيقي الصلة تماماً ببعضهما البعض عبر العصور التاريخية ، ولم تكن رمال الدهناء والصمان على الإطلاق حاجزاً طبيعياً يمنع هذه الصلة ، بل قد يكون العكس من ذلك؛ إذ إن غنى مراعي هذه البوادي والوفرة النسبية لمياه الآبار فيها ، سهل كثيراً الاتصال البشري المستمر فيما بين البحرين ونجد ، وإذا كانت بلاد البحرين أكثر غنى مراعي هذه البوادي؛ مما جعلها تشكل عامل جذب لسكان نجد بسبب بيئتهم الصحراوية الطاردة نحو الخارج ، إضافة إلى ذلك ، فإن البحرين كانت نافذة لسكان نجد على البحر ، وسوقاً يمكن لهم الحصول منها على كثير من البضائع ، كما أن نجداً هي الأخرى مهمة لبلاد البحرين؛ إذ إنها تمدها دائماً بالعنصر العربي المتصف بحيويته في المجالين العسكري والتجاري.

ويضاف إلى ذلك بأن نجداً كانت سوقاً هاماً لتصريف جزء كبير من تجارة

بلاد البحرين ، ومعبراً ومنطلقاً للقوافل التجارية ما بين الخليج العربي والحجاز واليمن وظفار. لكل هذه العوامل نجد أن تاريخ هذين الإقليمين قد اتخذ وجهة واحدة في كثير من الفترات ، ولمراحل طويلة ، بالرغم من وجود تباين في الدور الذي كان يلعبه كل إقليم منهما ، في صنع الأحداث التي كانت تقع فيهما أو فيما حولهما.

عندما نجح بنو جبر في تأسيس إمارة لهم في بلاد البحرين ، بزعامة أميرهم عصفور بن راشد في الربع الأول من القرن السابع/ الثالث عشر ، نجحوا أيضاً وفي الوقت نفسه في ضم نجد إلى إمارتهم. وعلى الرغم من زوال إمارتهم ، فالذي يبدو لنا أنهم قد بقوا في نجد ، مثلما بقوا في البحرين ، يملكون نفوذاً واسعاً ، حتى استطاعوا مرة ثانية تأسيس إمارة لهم بزعامة الشيخ زامل بن حسين بن ناصر الجبري.

لقد أعطى الأمير زامل وأولاده بعده اهتماماً كبيراً للأوضاع في نجد ، ولا غرابة في ذلك ، فنجد موطنهم الأصلي الذي يعتزون بالانتماء إليه ، وتنتهي سلسلة نسبهم به (النجدي) ، ولقب أجود أشهر أمرائهم بـ «رئيس أهل نجد»[1].

إن مصدر اهتمام الجبور بنجد ربما كان مبعثه عاملين: الأول: عسكري؛ إذ إن نجداً تمدهم بالعنصر البشري الوفير العدد؛ الذي يمكن أن يحقق لهم تفوقاً عسكرياً في المعارك التي يخوضونها في شرقي الجزيرة العربية. إضافة إلى أنها من الناحية الاستراتيجية تشكل ظهيراً لهم يمكن الاستناد إليه.

وثانياً: إن إقليم نجد هو منطلق ومعبر للقوافل التجارية ما بين شرق الجزيرة وغربها ، وجنوبها أيضاً؛ لذا فهي تحتل أهمية تجارية خاصة. وقد حرص أمراء الجبور على تأمين هذا الطريق. وما قيام أمرائهم شخصياً بقيادة قوافل الحجيج إلا تعبيراً عن حرصهم على سلامة هذا الطريق الحيوي.

وإذا ما عرفنا بأن قوافل الحجيج كان يرافقها عددٌ غير قليل من المحاربين

(1) السمهودي ، وفاء الوفا ٣/ ١٠٩٣. السخاوي ، الضوء اللامع ، ١/ ١٩٠.

لحراستها؛ أدركنا أن أمراء الجبور ، كانوا في الواقع يقومون عند مرافقة قافلة الحج بمظاهرة عسكرية لزرع الخوف في نفوس معارضيهم ، من رؤساء القبائل المختلفة ، إضافة إلى كسب الأصدقاء.

على أن الأمر الذي يجدر ملاحظته هنا حول الحملات العسكرية؛ التي كان يقوم بها أمراء الجبور ضد نجد ، هو أن البعض منها كان تاريخه يتوافق كل التوافق مع الأحداث التي كانت تقع في شرق الجزيرة العربية ، وعلى سواحل الخليج العربي؛ مما يجعلنا نميل إلى القول بأن القوى المعارضة في نجد كانت تتربص بإمارة الجبور ، وتستغل الأوضاع الحرجة التي كانت تمر بها في بعض الفترات.

ولتأكيد ذلك نلاحظ أن ابن بسام قد ذكر أن أجود بن زامل ، قد قام بحملة ضد واحات الخرج عام ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢ ـ ١٤٨٣م ، وهذا التاريخ ربما كان يتوافق مع هجوم هرموزي على البحرين.

أما الحملة الثانية التي قد ذكر بأن أجود قد قام بها ضد نجد ، فقد كانت عام ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م ، وهي تتوافق كل التوافق مع الهجوم؛ الذي قام به الهرموزيون في هذه السنة ضد جزيرة البحرين.

أما الحملة الثالثة التي ذكر أيضاً أن أجود قد وجهها ضد منطقة الخرج ، فقد كانت عام ٨٩٣هـ/ ١٤٨٨م وهي السنة نفسها التي كانت فيها قوات الجبور -بقيادة سيف بن أجود- منشغلة بالتدخل في عمان لصالح الإباضيين ضد النبهانيين.

ومما هو جدير بالذكر أن السخاوي كان قد ذكر أن أجود قد قام بالحج في هذه السنة ، أي: ٨٩٣هـ/ ١٤٨٦م ، مما يفرض علينا تساؤلات لا مفر منها ، فهل توجهت هذه الحملة إلى مكة كما ذكر السخاوي ، أم كان هدفها القضاء على المتمردين في نجد ، كما ذكر ذلك ابن بسام ، أم كانت تسير نحو هذين الهدفين في آن واحد ، أم هناك حملتان مختلفتان في التوقيت والهدف؟ فإذا كان الفرض الأخير صحيحاً ، فذلك يعني أن يكون أجود قد قام بأعمال ثلاثة

كبيرة في عام واحد، وهي الحملة ضد عمان ، والحملة ضد نجد ، وحملة الحج[1] .

مهما يكن من أمر ، فإننا أمام حملة رابعة قد ذكر ابن بسام أيضاً بأن أجود قد قام بها عام ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤ ـ ١٤٩٥م ضد بلاد نجد ، وتاريخها يتفق مع الحملة التي قام بها الهرموزيون ضد جزيرة البحرين.

بقي أن نذكر أن هناك حملة خامسة ، يرجح أنها قامت في عهد خلفاء أجود؛ إذ يذكر ابن بسام بأن الجبور قاموا بحملة ضد نجد عام ٩١٦هـ/ ١٥١٠ ـ ١٥١١م؛ وهي توافق نفس السنة التي قامت فيها حملة هرموزية ، بقيادة خواجة عطار باحتلال البحرين لفترة قصيرة.

وأخيراً يذكر ابن بسام قيام الجبور بغزو نجد عام ٩٢٩هـ/ ١٥٢٢ ـ ١٥٢٣م ، وإذا كان هذا التاريخ دقيقاً ، فإن هذا الهجوم يكون وقع مباشرة بعد استيلاء البرتغاليين والهرموزيين على جزيرة البحرين ، وقتلهم سلطان الجبور مقرن بن زامل.

يتضح مما ذكرنا آنفاً وجود دلائل قوية على ترابط الأحداث التي كانت تقع في نجد ، وشرق الجزيرة العربية ، مما يساعدنا على تفسير سبب بعض هذه الحملات ، والظروف التي كانت تؤدي إلى وقوع تمردات ضد سلطة الجبور في نجد[2] .

يجدر بنا قبل أن ننهي حديثنا عن علاقة الجبور بنجد ، أن نشير أيضاً إلى أن

(١) الضوء اللامع ١/ ٣٣٤ ، ٥/ ٤٠ ـ ٤١ . ابن ماجد ، المصدر السابق ، ٣٠١ ـ ٢.
AUBIN, Leroyaume D,Ormuz, 125. Note 300.

(٢) تحفة المشتاق: الأوراق ١٤ ب ـ ١٦ أ ، ١٨ ب ـ ١٩ أ ، ٢١ أ. مما تجدر الإشارة إليه أن ابن بسام قد ذكر بأن قائد الحملتين الأخيرتين هو أجود بن زامل أيضاً ، وهذا أمر يصعب قبوله إن لم يكن مستحيلاً؛ لأن أجود إن كان لا يزال على قيد الحياة في أحد هذين التاريخين ، فيكون قد بلغ من العمر ٩٧ أو ١٠٨ عاماً؛ لذا فإن من المرجح أن يكون ابن بسام قد أخطأ في اسم قائد هاتين الحملتين ، قارن ذلك مع جان أوبين:
AUBIN, ibidm 125, note 300

المصادر البرتغالية تنفرد بالإشارة إلى أن ظفار كانت إحدى الأقاليم الخاضعة للجبور. مثلها مثل عمان وبلاد البحرين ونجد ، وبأن الجبور كانوا قد اتخذوا منها منفذاً رئيسياً لتصدير الخيول إلى الهند ، تلك التجارة التي احتكروها في شرق الجزيرة العربية ، ودرت عليهم أرباحاً وفيرة ، وحركت أطماع البرتغاليين من أجل السيطرة عليها ، وانتزاع فوائدها من الجبور.

لقد تحدثت هذه المصادر نفسها عن وجود أماكن متعددة في كل من عمان ، والبحرين لتربية هذه الخيول والعناية بها وتجميعها ، ومن ثم تصديرها إلى الأسواق الخارجية ، وخاصة في الهند ، حيث يكثر الطلب عليها وتعز أسعارها[1] .

والذي يبدو لنا أن الجبور كانوا قد اتخذوا من ظفار منفذاً لتصدير بضاعتهم من الخيول ، والحصول أيضاً على بضائع الهند ، خصوصاً بعد أن رأوا أن كثيراً من السفن قد أخذت تتحاشى الدخول إلى الخليج العربي ، وتتوجه إلى موانئ البحر الأحمر ، وكانت ظفار كثيراً ما ترسو بها هذه السفن في طريق الذهاب والإياب.

والذي يبدو لنا أيضاً أن الطريق الذي كانت تسلكه قوافل الجبور للوصول إلى ظفار ، يسير بمحاذاة الأطراف الغربية لعمان ، كما أنه من المحتمل أيضاً أنهم كانوا يسلكون طريقاً آخر ينطلق من نجد إلى ظفار عبر وادي الدواسر ، وبعد رحلة شهر ونصف يصلون إلى بلاد مهرة ، ومنها إلى ظفار ، وقد اعتادت قوافل عقيل أن تسلك هذا الطريق منذ عصور سابقة[2]؛ لذا يمكن أن نقول: إن بعض الحملات التي قام بها أمراء الجبور نحو نجد ، كانت تهدف إلى المحافظة على هذا الطريق التجاري الذي يربط نجداً بكل من اليمن وظفار.

* * *

(١) AUBIN, 117 - 18, 121.

(٢) R. Guest, Zufar in the Middle Ages, islamec Culturd, (1935). July, 402-10, esp. 08.

متى بدأ حكم أجود، ومتى انتهى، ومن هم أولاده؟

مما لا شك فيه أن عصر السلطان أجود يمثل عصر ازدهار، وقوة، واتساع إمارة الجبور، ويبدو أن هذا الحكم كان يتمتع بمؤهلات ومزايا جيدة، وكفاءات عالية حملت بعض معاصريه من المؤرخين على أن يضفوا عليه أفضل النعوت، فقد وصفه السمهودي بـ(رئيس أهل نجد ورأسها، سلطان البحرين والقطيف فريد الوصف، والنعت في جنسه، صلاحاً «وأفضالاً» وحسن عقيدة، أبو الجود أجود بن جبر أيده الله[1]، كما أن السخاوي قد وصفه بأن قد صار رئيس نجد ذا أتباع يزيدون على الوصف مع فروسية، تعددت في بدنه جراحات كثيرة بسببها، وله إلمام ببعض فروع المالكية، واعتناء بتحصيل كتبهم، مصاحباً للتصديق والبذل)[2].

لقد حمل أجود بن زامل لقب السلطان هو ومن أعقبه من أمراء الجبور، وعلى الرغم من أن هذا اللقب لقب دنيوي، عرف منذ العهد السلجوقي، إلا أنه يعني أن حامله هو حاكم مستقل يتمتع بكامل السيادة في بلاده[3].

إن الإشارات الواردة في المصادر المختلفة تفيدنا بأن السلطان أجود لم تقتصر جهوده على توسيع الإمارة، وتثبيت دعائمها، وتحقيق الأمن والاستقرار، وترويج النشاط الاقتصادي، وتوسيع الفعاليات التجارية فحسب، بل سعى إلى تنظيم الإدارة وتحقيق العدالة، بتنصيب قضاة مشهود

(١) وفاء الوفاء، ١/ ١٠٩٣.

(٢) الضوء اللامع، ١/ ١٩٠ لقد نقل الجزيري هذا الوصف عن السخاوي، راجع: تحفة المستفيد، ١٢٠.

(٣) حول لقب «السلطان»:
V.V.BARTOLD, Calipha and Sultam, The islamic quarterly, vii, 3 - 4) 1963 - 35.

لهم بالمعرفة والاستقامة، كما أنه قد سعى إلى ترويج التعليم بإغراء عدد من العلماء البارزين للعمل في بلاده، وكان يستغل فرصة قيامه بالحج، فيلتقي هناك بالبعض منهم، ويجلبهم معه، وكان عدد منهم من بلاد المغرب العربي.

ولما كان الجبور يتبعون المذهب المالكي، فقد سعى إلى نشره في بلاد البحرين وترويجه، ولم يحقق نجاحاً ملموساً؛ إذ كان المذهب الشيعي هو السائد كما يبدو في العهود التي سبقت عهده في هذا الميدان فحسب، بل إنه نجح في نشر المذاهب السنية عموماً، بعد الجبور[1].

ومهما يكن من أمر، فإن بداية حكم أجود ونهايته؛ من الأمور التي لا يزال يكتنفها الغموض، والتي لا بد من محاولة التوصل إلى معرفتها، والاهتداء إليها أن الأدلة التي نمتلكها تجعلنا نميل إلى ترجيح أن بداية عهد أجود كانت في حدود عام ٨٧٥هـ/ ١٤٧١ ـ ١٤٧٢م تقريباً.

وهذه الأدلة هي:

أولاً: أن السخاوي حين ترجم للقاضي جمال الدين عبد الله بن فارس التازي، قال عنه: إنه غادر مصر عام ٨٧٦هـ/ ١٤٧١م، وذهب إلى مكة حيث أقام فيها فترة يسيرة، ثم توجه منها إلى بلاد البحرين برفقة سلطانها أجود بن زامل، ومكث في خدمته هناك مدة خمسة عشر عاماً، كانت نهايتها سنة ٨٩٣هـ؛ إذ حضر في ذلك العام موسم الحج بصحبة السلطان أجود، ومات

(١) حول جهود بني جبر عموماً وأجود خصوصاً في هذا الصدد، وأسماء بعض قضاته، راجع: السخاوي، ١/ ١٩٠، ١/ ٣٣٤. ٣/ ١٨٦ ـ ٨٧. ٣/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣. ٥/ ٤٠ ـ ٤١. عثمان بن بشير، عنوان المجد في تاريخ نجد (الرياض، دون تاريخ) ١/ ٢٢، إبراهيم بن عيسى، بعض الحوادث الواقعة في نجد، أشرف على طبعه: حمد الجاسر، (الرياض ١٩٦٦م)، ٤٧ وعبد الله فيلبي، تاريخ نجد، تعريب: الديراوي (بيروت، دون تاريخ)، ٧ و:
A.S. VIDAL, art, «art Hasa,» D12.
كذلك انظر: ترجمة صالح بن سيف الجبري، نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، ١/ ٢١٥. وابن العماد، شذرات الذهب، ٨/ ١٧٢ ـ ١٧٣. وكذلك ترجمة السلطان مقرن بن زامل، بدائع الزهور، ٥/ ٢٦٢.

بعد موسم الحج بقليل ، (محرم عام ٨٩٤هـ/ كانون أول/ ١٤٨٨م)[1] .

والذي يفهم من هذا النص هو أن أجود بن زامل كان ـ ولا بد ـ سلطاناً على بلاد البحرين قبل عام ٨٧٦هـ/ ١٤٧٢م ، أي: قبل أن يلتحق به القاضي المذكور في موسم الحج من هذه السنة .

ثانياً: أن تنصيب سلغور بن تورانشاه على عرش هرموز بمساعدة أجود ، تم عام ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م[2] ، وأن لجوء سلغور إلى الأحساء لطلب المساعدة من أجود لا بد أن يكون قد وقع قبل هذا التاريخ ، يكون ذلك قد حدث عام ٨٧٧هـ/ ١٤٧٣م؛ إذ إننا نجد أن رسالة الوزير البهمندي محمود كاوان المؤرخة في رمضان ٨٨٧هـ/ شباط/ ١٤٧٣م تشير إلى وجود اضطرابات في هرموز ، مما يحملنا على القول بأن هذه الاضطرابات مرتبطة بالصراع حول العرش بين الأخوين شاه ويس وسلغور شاه؛ الذي انتهى في مرحلته الأولى بطرد سلغور من العرش ، ولجوئه إلى عمان التي غادرها إلى الأحساء ، حيث اتصل بأجود هناك ، علماً بأن شاه ويس لم يتمتع بالسلطة أكثر من سنتين[3] .

وخلاصة ذلك أنه لا بد أن يكون أجود قد تولى السلطة في إمارة الجبور ، قبل التواريخ المشار إليها أعلاه ، وأنه كان قد حقق من الشهرة والقوة مما جعل سلغور شاه يلجأ إلى الاستعانة به .

ثالثاً: لقد بعث وزير مملكة الدكن البهمنية (١٣٤٧ ـ ١٥٢٦م) محمود كاوان برسالة إلى السلطان أجودبن زامل ، يطلب فيها أن تقوم علاقة صداقة وتعاون بين الدولتين. إن كاتب هذه الرسالة وهو المؤرخ ينمديهي سكرتير الوزير المذكور ، كان قد دخل في خدمته عام ٨٧٨هـ/ ١٤٧٣م ، وبما أن الوزير محمود كان قد توفي عام ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م ، فلا بد أن تكون الرسالة قد كتبت ما بين هذين التاريخين ، وأن مجرد تلقي السلطان أجود خلال هذه الفترة

---

(١) الضوء اللامع ، ٥/ ٤٠ ـ ٤١ .

(٢) أحمد بن ماجد النجدي ، كتاب الفوائد ، ٣٠١ ـ ٣٠٢: :AUBIN, Le Royaume, 124
Caskel,: ٦٧ .

(٣) AUBIN, Ibid, 134, note 334, Teixeira, Op. cit., 189, note 2.

رسالة من إحدى أقوى الممالك الهندية ، وحرصها على صداقته وتوثيق روابطها به ، يدل دلالة واضحة على أنه أصبح لأجود نفوذ وشهرة واسعان[1] ، مما يعد دليلاً للقول بأن أجود لا بد أن يكون قد تولى الإمارة قبل عام ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م.

رابعاً: لقد ذكر باربارو Brbro (ت ٩٠٠هـ/ ١٤٩٥م) سفير البندقية إلى سلطان دولة أق قوينلو في إيران حسن الطويل (أوزون) في تقريره عن رحلته التي قام بها عام ٨٧٨ ـ ٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م ، أن هذه الإشارة من باربارو ربما كان يقصد بها بلاد الجبور على امتدادها. وإذا صح تفسيرنا هذا ، فإن السلطان أجود ـ الذي خلف أخاه سيفاً ـ كان يحكم تلك البلاد ، ويساعده في إدارتها ولداه زامل وسيف ، أو أخوه هلال وأحد أولاده المذكورين سابقاً. أن هذا الدليل بالإضافة إلى أنه يعزز الأدلة السابقة ، فإنها هي الأخرى تعززه .

ومهما يكن من أمر ، فإنه من أجل استكمال معرفة طول الفترة التي استغرقها حكم السلطان أجود بصورة تقريبية ، لا بد لنا من محاولة تحديد نهاية حكمه أيضاً ، وذلك باستعراض ما هو متوافر لدينا من نصوص ، ومناقشة ما تواضع البعض على قبوله منها .

لقد ذكر العصامي (ت ١١١١هـ/ ١٦٩٨ ـ ١٦٩٩م) أن السلطان أجود قد حج عام ٩١١هـ/ ١٥٠٦م في جمع يزيدون على الثلاثين ألفا[2] ، وأورد ابن بشر هذا النص تقريباً؛ إلا أنه جعل السنة التي أدى بها أجود الحج هي عام ٩١٢هـ ، وتابعه في ذلك ابن عيسى وابن بسام[3] ، ومما تجدر الإشارة إليه هنا

---

(١) لقد كتبت هذه الرسالة باللغة العربية ، وهي ضمن كتاب نيمديهي المخطوط : كنز المعاني ، ورقة ٢٠٣ ب ، هذا، وقد اتصلنا بالبروفيسور أوبين بواسطة البروفيسور جاك بيرك للحصول على صورة لهذه الرسالة من نسخته الخاصة ، فوعدنا برسالته المؤرخة في ١٦ تموز ١٩٧٩م ، بتلبية التماسنا هذا ، وما زلنا ننتظر استلامها ، هذا وسوف نسعى لنشرها حال الحصول عليها. انظر:
AUBIN, Op. cit., 124, note 292.

(٢) سمط النجوم العوالي ، القاهرة ١٣٨٠ ، ٤/ ٣٠٥.

(٣) عنوان المجد في تاريخ نجد ، ١/ ١٨ . إبراهيم بن عيسى ، تاريخ بعض الحوادث الواقعة في=

أن كلاً من ابن لعبون والشيخ حمد الجاسر قد نسبا إلى العصامي قوله بأن أجود قد حج عام ٩١٢هـ ، وهذا ما لم نجده في تاريخه[1].

كما أن مما يلفت الانتباه أيضاً أن شيخنا الجاسر - في أحد هوامشه على تاريخ ابن عيسى - نـقل عن العصامي قوله بأن أجود قد حج عام ٩١١هـ ، كما نقل عن ابن فـهد قولـه بأن محمد بن أجـود هو الذي حضر موسم الحج عام ٩١٢ ، وكان الجاسر بذلك يصحح قول ابن عيسى بأن أجود قد حج عام ٩١٢هـ[2] ، لكنه عاد في بحثه عن الدولة الجبرية إلى القول بأن ابن فهد والعصامي ، وغيره من مؤرخي مكة قد ذكروا بأن أجود قد حج عام ٩١٢هـ[3].

والواقع أن المؤرخَين اللذين نسب إليهم الجاسر القول الأخير ، لم يقولا بـه باعتراف الجاسر نفسه في تعليقه على ابن عيسى ، ولو أن بحث الشيخ الجاسر كان قد نشـر قبل صدور تاريخ ابن عيسى ، لقلنا بأن الشيخ الجاسر كـان يحاول تصحيح الخطأ الذي ورد في بحثه ، لكن الذي حـدث هو العكس.

وعلى كل حال فإن قبولنا لبعض النصوص التي تشير إلى أن الشيخ أجود كان قد حضر موسم الحج عام ٩١٢هـ/ ١٥٠٧م ، تعني ببساطة: أنه كان لا يزال على قيد الحياة ، وأنه كان على رأس السلطة في إمارة الجبور حتى ذلك العام ، وهذا الأمر يصعب قبوله للأسباب التالية:

أولاً: أن الشيخ حمد الجاسر قد نقل لنا عن كل من ابن فرج (ت ١٠١٠هـ/ ١٦٠٢م) وابن فهد المكي (٨٥٠هـ/ ١٤٤٧م - ٩٢١هـ/ ١٥١٥م) - وهما مؤرخان حجازيان عارفان بأحداث الحجاز ، وقريبان من موقع حدوثها ، ومعاصران ، ويصعب تخطئتهما - ما يفيد بأن الشيخ محمد بن أجود الذي كان

= نجد ، ٤٦ . وكذلك ابن بسام ، تحفة المشتاق ، ورقة ١٨ ب .

(١) سمط النجوم العوالي ، ٤/ ٣٠٥. وحمد بن لعيون ، تاريخ حمد بن محمد بن لعيون ، مكة ١٣٥٧ ، ٣١ - ٣٢ والدولة الجبرية ، ٦٠٥ .

(٢) راجع: تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد.

(٣) الدولة الجبرية ، ٦٠٥ .

سلطان البحرين والحسا والقطيف ، قد حضر إلى مكة خلال موسم الحج عام ٩١٢هـ/ ١٥٠٧م[1].

وهذا يحملنا على القول بأنه لا بد أن يكون السلطان أجود قد توفي قبل هذا التاريخ ، وأن النصوص التي تشير إلى قيامه بالحج في هذا العام ما هي إلا نصوص خاطئة.

ثانياً: إننا لو افترضنا جدلاً صحة التاريخ الذي أورده العصامي ، والذي ينص على قيام الشيخ أجود بن زامل بالحج عام ٩١١هـ/ ١٥٠٦م فإن معنى ذلك أنه قاد قافلة الحج ، وله من العمر تسعون عاماً أو يزيد؛ إذ إنه قد ولد في

(١) ابن فرج ، السلاح والعدة (مخطوطة) النسخة التيمورية / دار الكتب المصرية صفحة ١٢ ، نقلاً عن حمد الجاسر ، الدولة الجبرية ، ٦٠٥ توجد نسخة أخرى من مخطوطة السلاح والعدة في الحرم الملكي تحت رقم ٢٨ تاريخ دهلوي ، كما توجد في مكتبة جامعة إسطنبول مخطوطة صغيرة تحت رقم ع. ١٢٧ باسم السلاح والعدة في تاريخ بندر جدة ، وهي لا تحمل اسم مؤلفها ، ولعلها تكون نسخة أخرى من كتيب ابن فرج المذكور آنفاً ، أو من كتيب جار الله محمد بن العزّ عبد العزيز بن فهد (٨٩١هـ/ ١٤٨٦م - ٩٥٤هـ/ ١٥٤٧م) الذي كان قد ألف كتيباً بعنوان السلاح والعدة في بندر جدة. راجع حول ذلك: د. ناصر الرشيد فهد: مؤرخو مكة المكرمة مجلة العرب (الرياض) ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م ، جـ ١ - ١٢ ص ٩٠٨ ت ٩٤١ خصوصاً ص ٩٢٧ - ٣١. كذلك راجع: خليل ساحلي أوغلو؛ مخطوطات عن الجزيرة العربية في مكتبة إسطنبول ، مجلة العرب جـ ١ - ٢ سنة ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م. ١٢٣ - ١٤٨ خصوصاً ص ١٣٣ .

وكذلك ابن فهد المكي ، مخطوطة ، إتحاف الورى في تاريخ أم القرى نقلاً عن الشيخ حمد الجاسر ، تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ، هامش ص ٤٦ . إن مما هو جدير بالإشارة هنا أن الشيخ حمد الجاسر كان قد ذكر بأن اسم كتاب ابن فهد هو: إتحاف الورى في تاريخ أم القرى ، وحيث إن مـؤلـف هـذا الكتـاب هـو النجـم عمـر بـن فهـد (٨١٢هـ/ ١٤٠٩م - ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م) والذي كان قد توفي قبل السلطان أجود بن زامل بفترة غير قصيرة؛ لذا فلا بد أن الشيخ حمد الجاسر أراد أن يقول: ذيل إتحاف الورى. والمعروف بـ(بلوغ القرى لذيل إتحاف الورى بأخبار أم القرى) الذي كان قد ألفه العز بن النجم عمر بن فهد (ت ٩٢١هـ/ ١٥١٥م). راجع حول ذلك: بحث د. ناصر الرشيد المذكور آنفاً خصوصاً ص ٩١٥ ، ٩٢٦. كذلك راجع: د. حسن أحمد محمود ، التهديد البرتغالي لسواحل جزيرة العرب ومصادر دراسته ، مجلة العرب ، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م ، جـ ٧ - ٨ ص ٥٩٦ - ٦١٦ خصوصاً ص ٦١٤ .

رمضان ٨٢١هـ/ تشرين الأول/ ١٤١٨م ، وهذا أمر يصعب قبوله نظراً لعدم قدرة من في مثل سنه على تحمل هذا العبء على الرغم من تصورنا بأن هناك من يعينه على هذه المهمة.

وعلينا أن نتذكر بأن موسم الحج لذلك العام كان يقع في فصل الصيف ، فكيف يمكن لرجل مسن أن يقطع رحلة الحج الطويلة ذهاباً وإياباً في هجير الصيف ، وهو يحمل أعباء هذه السنين والمسؤوليات الكبيرة؟!

مهما يكن من أمر ، فإن هذه النقطة تجعلنا نستبعد أن يكون الشيخ أجود على قيد الحياة حتى ذلك التاريخ.

ثالثاً: إن العصامي ، وهو المصدر الرئيس للقول بأن أجود كان على قيد الحياة عام ٩١١هـ/ ١٥٠٦م ، قد عاش بعد عصر أجود بقرنين من الزمن ، ولم يرد في تاريخه ما يدل على معرفة بتاريخ أمراء الجبور ، حتى أننا نجد أنه يخطئ في معرفة الاسم الصحيح لوالد أجود. فقد ذكر بأن اسمه زايد ، وليس زامل كما هو المتفق عليه[1].

وإذا كان هناك تحريف قد وقع في الاسم عند النقل أو الاستنساخ أو الطبع ـ وهو يبدو كذلك ـ فإننا نميل إلى الاعتقاد بأن التاريخ الذي أورده العصامي عن قيام أجود بالحج في ذلك العام ، قد وصل إلينا محرفاً.

رابعاً: إن تقارير البرتغاليين التي كتبت عند دخولهم للخليج عام ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م يفهم منها أن الشيخ أجود بن زامل قد فارق الحياة ، وأن بلاد الجبور التي كانت تضم كلاً من ظفار وعمان وبلاد البحرين ونجد ، كانت تحكم من قبل ثلاثة إخوة ، أكبرهم كان يقيم في عمان ، أما أخواه الآخران اللذان يعترفان بزعامته الكبرى على الجبور ، فيقيمان على سواحل الخليج العربي ، وأن أحدهم كان يحكم جزيرة البحرين والقطيف[2].

إن هذه التقارير تتفق بشكل غير مباشر مع ما أورده كل من ابن فرج وابن

(١) سمط النجوم العوالي ، ٤/ ٣٠٥.

(٢) MILES, Op. cit, 148: Abin, 127.

فهد ، من أن السلطة في هذا التاريخ كانت قد انتقلت إلى ابن أجود بن زامل.

مهما يكن من أمر ، فإن الذي نميل إليه بعد التمحيص والتدقيق ، هو أن السلطان ابن أجود بن زامل كان لا يزال على قيد الحياة حتى عام ٩٠٠هـ/ ١٤٩٥م مستندين في ذلك إلى الأحداث التي وقعت في منطقة الخليج ، وأشرنا إليها في ثنايا البحث ، وخاصة فيما يتعلق بعمان وبمملكة هرموز ، إضافة إلى ما أورده ابن بسّام من أجود بن زامل ، قد قام بمهاجمة واحات الخرج عام ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤ ـ ١٤٩٥م ثم سكوته طويلاً عن الإشارة إلى اسم أجود.

أما ما ذكره ابن بسام بخصوص قيام أجود بقيادة حملتين ضد القبائل المعادية له ، في عامي ٩١٦هـ/ ١٥١٠ ـ ١٥١١م أو ٩٢٩هـ/ ١٠٢٢ـ ١٠٢٣م فأمر غير وارد ، ولا بد أن يكون ابن بسام قد وقع في خطأ عند ذكر اسم أجود كقائد للحملتين؛ إذ لو فرضنا بأن أجود لا يزال حياً في أحد هذين التاريخين ، فيكون قد بلغ من العمر السابعة والتسعين أو المئة وثماني سنوات[1].

إن التاريخ الذي نطمئن إلى أنه قريب من الصحة بخصوص نهاية حكم أجود هو عام ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦ ـ ١٤٩٧م ، أي: أنه كان قد بلغ الثمانين من العمر في هذا التاريخ. ومما هو جدير بالذكر أن السخاوي قد توفي أيضاً في هذه السنة؛ لذا لم ترد سنة وفاة أجود في مؤلفه حينما ترجم له ، كما تجدر الإشارة أيضاً إلى أن السخاوي حاول أن يترجم لأحد أمراء الجبور ، وأدرج اسمه ضمن ترجمة وهو أجود بن سيف بن زامل الجبري ، ولكنه لم يكتب أمام اسمه سوى عبارة «مات في. . .»[2].

بقيت لنا كلمة أخيرة نقولها حول رواية العصامي ، عن قيام أجود بالحج عام ٩١١هـ ، وهي أن العصامي ربما يكون أراد ابن أجود ، فسقطت كلمة ابن أو حذفت بسبب هذا الوهم ، أو أن يكون هناك تحريف قد وقع في كتابة الرقم

(١) تحفة المشتاق ورقة ١٦أ ، ١٩أ ، ٢١أ.

(٢) الضوء اللامع ، ١/ ١٩٠.

٩٠١هـ فصار ٩١١هـ ، وإذا صح هذا الاحتمال الأخير ، فإن هذا التاريخ سوف يتطابق مع ما افترضناه حول السنة التي انتهى فيها حكم أجود وهي سنة ٩٠٢هـ. إن النقطة الأخيرة التي تثير بعض الإشكالات أيضاً حول أسرة بني جبر ، هي أسماء أولاد أجود ، ومن الذي أعقبه منهم في السلطة .

إننا نعرف من المصادر الحجازية المعاصرة للجبور بأن محمد بن أجود كان يُعْرَف في عام ٩١٢هـ/١٥٠٦م بسلطان البحرين والحسا والقطيف[١]. أما المصادر البرتغالية فقد نصت ـ كما ذكرنا سابقاً ـ على أن بلاد بني جبر الواسعة حين دخل البرتغاليون الخليج عام ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م كان يحكمها ثلاثة إخوة ، وأن أكبرهم يقيم في عمان ، ويدين له أخواه الآخران بالرياسة ، وأن أحد هؤلاء الأخوين كان يحكم البحرين والقطيف .

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو : هل أن هذه المصادر كانت تشير إلى محمد بن أجود كزعيم أكبر للجبور؟ إذا كان كذلك ، فلماذا لم تضف المصادر العربية إلى ألقابه اسم عمان في حين كانت جزءاً هاماً من ممتلكات الجبور؟ ثم أين أسماء أولاد أجود الآخرين كسيف وزامل ، والتي اختفت ولم نسمع عنها شيئاً بعد ذلك؟ وهل يصح أن نفترض أن المقصود بالابن الأكبر لأجود هو سيف ، وأن محمد بن أجود كان يحكم البحرين والأحساء والقطيف فقط؟

مهما يكن من أمر ، فإنه علينا أن نشير إلى وجود اختلاف أيضاً بين الباحثين حول أسماء أولاد أجود. ففي الوقت الذي يتفق فيه كل من ابن لعبون والشيخان محمد العبد القادر، وحمد الجاسر، على أن أولاد أجود هم ثلاثة، وأن أحدهم اسمه مقرن ، فإنهما يختلفان حول أسماء الاثنين الآخرين ، فعند ابن لعبون

(١) نقلاً عن حمد الجاسر ، الدولة الجبرية ، ٦٠٥ ـ ٦ . إبراهيم بن عيسى ، المصدر السابق هامش ص ٤٦ . ونقصد بذلك كلاً من العز بن عبد العزيز بن النجم عمر بن فهد صاحب كتاب (ذيل إتحاف الورى) ، وهو عالم مشهود له بالمعرفة ، ومن بيت مشهور ، وكذلك عبد القادر بن أحمد بن فرج صاحب كتاب (السلاح والعدة) ، وهو من أهل جدة ، وخطيب مسجدها ، وولد ونشأ فيها .

ومحمد عبد القادر هما زامل وسيف ، بينما هما عند الشيخ الجاسر: علي ومحمد[١].

أما الذي نراه ، فإن أولاد السلطان أجود هم أربعة ، أولهم سيف الذي ذكره كل من ابن ماجد ، المعاصر له ، وابن لعبون والعبد القادر[٢] ، وثانيهم محمد ، وقد أورد ذكره ابن فرج ، وابن فهد المكي ، كما سبق أن أشرنا ، وثالثهم علي؛ الذي انفرد بذكره الشيخ الجزيري[٣] ، ورابعهم زامل؛ الذي ذكره ابن لعبون[٤] .

ومن الجدير بالذكر أن باروس كان قد ذكر بأن من بين الأشخاص الذين قدَّموا المساعدة لإعادة سلغور شاه إلى عرشه هو: Res Cml of Xilu ، وهي عبارة قد فسرها جان أوبين ، على أن المقصود بها هوريس كمال صاحب شيلاء[٥] ، بينما نميل إلى القول بأن المقصود بهذه العبارة هوريس زامل حاكم مدينة سلو؛ التي تقع على خليج سلو في شبه جزيرة قطر ، وإذا صح افتراضنا هذا ، فيمكن أن نضيف اسم المؤرخ باروس كمصدر آخر أشار إلى زامل ، وأنه ـ أي زامل ـ كان له دور نشط في حياة والده السلطان أجود .

بقيت علينا قضية مهمة تجدر مناقشتها هي صلة القرابة التي تربط مقرن بأجود. فنحن لا نتفق مع القائلين ـ ممن أشرنا إليهم سابقاً ـ بأنه ابن لأجود ، كما لا نتفق مع جورج رنتز فيما ذهب إليه من أن مقرن هو عم السلطان أجود[٦].

والذي نميل إليه بشدة هو أن مقرن ما هو إلا حفيد للسلطان أجود بن زامل ، ونحن في ذلك نتفق مع كل من كاسكل والمؤرخ البرتغالي باروس ، ولا نرى فيما علقه المستشرق الفرنسي أوبين على رأي باروس ، وخلص إلى

(١) تاريخ حمد بن لعبون ، ٣١ ـ ٣٢ ، تحفة المستفيد ، ١٢٠ ، الدولة الجبرية ٦٢٠ .
(٢) كتاب الفوائد ، ٣٠١ ـ ٣٠٢ ، وتاريخ ابن لعبون ، ٣١ ـ ٣٢ ، وتحفة المستفيد ١٢٠ .
(٣) عن حمد الجاسر ، الدولة الجبرية ، ٦٠٨ .
(٤) المصدر السابق .
(٥) Teixeira, 180: Aubin, 136 - 37.
(٦) G. Rentz, art al- Bahrayn, EL2.

رفضه ، وترجيح كون مقرن هو ابن لأجود[١] ، ما يجعلنا نتراجع عن افتراضنا هذا الذي تعززه الأدلة التالية :

أولاً: إن تاريخ ابن لعبون هو المصدر الوحيد الذي ذكر بأن مقرن هو ابن لأجود ، وعنه أخذ كل من الشيخ محمد العبد القادر ، والشيخ حمد الجاسر والبروفيسور أوبين. على أن الأمر الذي تجدر الإشارة إليه ، هو أن عصر ابن لعبون بعيد عن عصر بني جبر ، وما أورده في تاريخه من معلومات تتعلق بهم هي يسيرة جداً ، ولا تعكس دراية صاحبها بتاريخهم أو اهتمامه به ، فنحن والحال هذه لا يمكن أن نعتبر ما ذكره عن نوع صلة القرابة بين مقرن وأجود معلومات قاطعة ، ويزيد عدم تمسكنا بقوله إذا عرفنا بأنها محض اجتهاد منه.

أما إذا كان ما رواه ابن لعبون مما نقله من مصدر آخر ، فتبقى المسألة بين القبول والرفض لحين معرفة نوعية هذا المصدر ودرجة صلته بتاريخ الجبور.

ثانياً: إن المصادر البرتغالية قد أوردت اسم مقرن هكذا: مقرن بن زامل ، بينما أورده الجزيري بأنه مقرن بن زامل بن حسين بن ناصر الجبري. وليس هناك من مصدر يذكر أن اسمه مقرن بن أجود. إن هذا الدليل بالرغم من وجاهته ، قد يضعفه احتمال آخر ، هو أن يكون مقرن قد لقب باسم جده مثلما فعل ابن ماجد عندما سمى سيف بن أجود بسيف بن زامل[٢]. إلا إذا كان إيراد اسم مقرن منسوباً إلى زامل مقصوداً يراد به التحديد.

ثالثاً: عندما ترجم نجم الدين الغزي (ت ١٠٦١هـ/ ١٦٥١م) لصالح بن سيف الجبري ، وصفه بأنه خال السلطان مقرن[٣]. والغزي اعتمد في معلوماته هذه على والده وجده؛ اللذين كانا على صلة شخصية بصالح هذا. والسؤال

(١) Aubin, 125 - 26, note 301: Caskel, 68.
ومن الجدير بالذكر أن اسم مقرن يرد في المصادر البرتغالية هكذا: Mocrim ، الأمر الذي أوقع البعض في قراءته خطأ هكذا: (مكرم).

(٢) ابن ماجد ، المصدر السابق.

(٣) نجم الدين الغزي ، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، تحقيق: جبرائيل جبور ، بيروت ١٩٤٥م ، ١/١٢٥. كذلك انظر أيضاً: ابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ) ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، القاهرة ، مكتبة القدسي.

الذي يتوارد على الذهن هو: هل كان والده صالح أخاً لأجود ، وهل هما من أولاد زامل بن حسين؟ إذا كان كذلك فكيف صالح خال مقرن ، ويكون مقرن في الوقت نفسه ابناً لأجود؟ للجواب على ذلك هنالك احتمالان ، إما أن تكون أم مقرن هي أخت صالح لأمه ، أو يكون سيف أخاً لزامل وعماً لأجود ، فجاز لأجود الزواج بابنة سيف. ومما يلفت النظر في ترجمة الغزي لصالح أنه قال بأنه ابن سيف بن الحسين ، فهو لم يذكر زاملاً كجد له.

وعلى كل حال ، فالاحتمال الأخير يتعارض مع ما أورده السخاوي من أن السيف وأجود هما أخوان ، ومن الصعوبة بمكان التشكيك بصحة ذلك ، خصوصاً إذا ما علمنا بأن السخاوي كان قد استقى معلوماته عن أجود من السمهودي؛ الذي كان على معرفة شخصية بأجود ، إذ لا يمكن لنا التشكيك بأن أجود وسيفاً هما أخوان من أولاد زامل ، فإنه لا يمكن لنا أيضاً أن نقبل بأن يكون مقرن هو ابناً لأجود ، وأن يكون صالح بن سيف خالاً له ، وابن عمه في الوقت نفسه؛ لذا فالذي نميل إليه هو أن يكون مقرن حفيداً لأجود؛ وابناً لزامل بن أجود؛ لأنه عند ذلك سوف يكون من الطبيعي جداً اقتران زامل بن أجود بابنة عمه سيف بن زامل بن حسين ، فيكون بذلك صالح بن زامل بن حسين خالاً لمقرن بن زامل فقط ، وليس ابن عم له.

رابعاً: لقد جاء في قصيدة جعيثن اليزيدي ، وهو يمدح مقرن بن زامل قوله:

نشأ بين سيف والغريري زامل	**فيا لك من عم كريم ووالد**
(ومن) أجود سلطان قيس وركنها	**عن الضيم أو في المعضلات الشدايد[١]**

والذي يفهم من هذه القصيدة أن سيفاً هو عم لمقرن ، وأن زامل هو والده ، ونحن نعرف بأن كلاً من سيف وزامل هما ابنا أجود. هذا مع العلم بأن الشاعر

(١) لقد وردت أول كلمة في صدر البيت الثاني عند ابن لعبون والجاسر بين ، وبها لا يستقيم وزن البيت؛ لذا فنحن نرجح بأن أصل هذه الكلمة هو من ليستقيم وزن البيت ، ولكي يعطي معنًى هو أن مقرن من نسل أجود. ابن لعبون ٣١ ـ ٣٢. قارن ذلك بالجاسر ، الدولة الجبرية ، ٦٠٧.

الجعيثن لم يصف في قصيدته أجود بأنه والد لمقرن. ويمكن أن يفهم من قصيدة هذا الشاعر المعاصر لمقرن، بأن مقرناً هو ابن زامل وحفيد لأجود.

خامساً: إن الشاعر الكليف قال مادحاً مقرن:

قد شاف بالأعمام ما لا يرتضي ... بالدار وأقفى زاهد بأعمالها
فإن كان تبغي ملك هجر صادق ... فاضرب بحد السيف روس رجالها[1]

يفهم من ذلك أن بلاد الجبور كانت تحكم من قبل عدد من أعمام مقرن، وأن حكمهم كان غير مرض، فحرّضه الشاعر على الثورة ضدهم. ونحن نعرف من تقارير البرتغاليين أن إمارة الجبور الواسعة كان يحكمها ثلاثة من أولاد أجود، فَوَصْفُ الشاعر لهؤلاء الحكام بأنهم أعمام لمقرن، دليل قوي على أن مقرناً حفيد لأجود، وليس بابن له.

سادساً: إن الجزيري ـ وهو المؤرخ الذي زودنا بأكثر المعلومات عن أمراء الجبور، كان قد وصف الأمير علي بن أجود بأنه عم لمقرن[2]، وهذا دليل آخر على أن مقرناً حفيد لأجود.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الشيخ حمد الجاسر ـ وهو ممن يرون بأن مقرناً هو ابن لأجود، قد وردت عنده الكلمة الأخيرة من عجز البيت الأول لقصيدة الجعيثن؛ التي أوردناها هكذا «ماجد» بدلاً من (والد)، كما أن نص الجزيري الذي يشير فيه إلى أن علي بن أجود هو عم مقرن، لا يتفق مع ما جاء عنده الشيخ الجاسر من أن علي بن أجود قد تولى الإمارة بعد موت عمه أجود[3]، ولا نعلم أوقع خطأ مطبعي في كلتا الحالتين، أم هو اجتهاد من الباحث؛ لكي ينسجم مع ما ذهب إليه من أن مقرناً هو ابن أجود.

مهما يكن من أمر، فإننا نميل إلى التمسك على ضوء ما أوردنا من أدلة، بالقول بأن مقرناً هو ابن زامل بن أجود بن زامل بن حسين الجبري.

---

(١) د. عبد الله الصالح العثيمين، الشعر النبطي من مصادر تاريخ نجد، مجلة العرب (الرياض) ١٩٧٧م، جـ١١ ـ ١٢، ٨٣٩ ـ ٦٣ خصوصاً ص ٨٤٨.

(٢) مخطوطة درر الفوائد (الفرائد)، ورقة ٣١٦ نقلاً عن تحفة المستفيد، ١٢١.

(٣) الدولة الجبرية، ٦٠٧ ـ ٦٠٨.

خلفاء أجود

سبق أن عرفنا في صفحات سابقة بأنه في عام ٩١٢هـ/١٥٠٧م كان محمد بن أجود يحمل لقب سلطان البحرين والحسا والقطيف، وأنه كان على جانب كبير من القوة وكثرة الأتباع؛ إذ قد ذكر بأنه في ذلك العام، وبعد انقضاء موسم الحج بقليل، أي: في ١٧/ ذي الحجة، وصل محمد بن أجود إلى مكة على رأس جيش كثيف قدر بخمسين ألف رجل، وقيل: إن مجيئه ومعه هذه القوة الكثيفة كان تلبية لطلب المساعدة في حفظ الأمن والنظام في مكة، ومنع تجاوزات بعض القبائل البدوية، تقدم به إليه شريف مكة بركات[1].

إن هذه الإشارة لتدل على أن دولة الجبور كانت لا تزال تتمتع بقوة ضاربة، وبنفوذ واسع في معظم أجزاء الجزيرة العربية، وتؤكد ذلك أيضاً التقارير البرتغالية خلال تلك الفترة، على الرغم من احتمال مبالغتها[2].

وعلى الرغم من أننا لا نعرف إلا القليل جداً عن الأحداث التي واجهتها إمارة الجبور في عهد السلطان محمد بن أجود، إلا أننا نعرف أنه قد تزامن عهده مع دخول البرتغاليين إلى الخليج العربي، وانتشارهم في البحار العربية، وما نتج عنه من اضطراب التجارة في هذه المياه، فقد استطاع البرتغاليون منذ نهاية القرن الخامس عشر الوصول إلى غرب الهند، وكانت دوافعهم لسلوك هذه المغامرة الكبيرة هي تطويق العالم الإسلامي من الغرب والشرق، وتوجيه ضربة مميتة له عن طريق انتزاع احتكاره لتجارة المحيط الهندي، وحرمانه مما كانت تدره هذه التجارة من أرباح طائلة.

---

(١) المصدر نفسه، ٦٠٥ ـ ٦٠٦.

(٢) Miles. 148: Caskel, 66: Abin, 127.

كانت تتأجج في نفوسهم روح صليبية حاقدة على المسلمين ورثوها من تاريخهم الماضي ، وكان نجاحهم في استراتيجيتهم هذه بداية أفول السيادة الإسلامية ، وانتقالها إلى أوروبة تدريجياً.

دخل البرتغاليون كما سبق أن قلنا الخليج العربي عام ١٥٠٧م ، ونهبوا عدداً من مدن الساحل العماني كقلهات والقريات ومسقط وخورفكان ، كما استولوا على هرموز لفترة قصيرة.

ويذكر لنا الأمير البرتغالي البوكرك بأنه عندما وصل بأسطوله أمام صحار عام ١٥٠٧م كانت وصلت إلى المدينة نجدات تتألف من ٧٠٠ رجل ، يقودهم ابن جبر ، وقد كنا ذكرنا سابقاً أن الجبور كانوا من أوائل من تصدى للبرتغاليين ، وأنهم أرسلوا بقواتهم عام ١٥٠٧م أيضاً لنجدة ميناء مسقط ؛ الذي كان يحاصره الأسطول البرتغالي في تلك الأثناء[١] ، كما أن بني جبر كانوا قد شددوا من سيطرتهم على مناطق واسعة من عمان ، وتغلغلوا في مناطقها الساحلية.

لجأ البرتغاليون إلى الضغط على الجبور عن طريق ضرب تجارة بلاد البحرين ، فقد قاموا عام ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م بنهب سفينة في مياه الخليج العربي ، كانت قادمة من جزيرة البحرين ، وعلى ظهرها حمولة ثمينة جداً من لؤلؤ البحرين[٢] ، لكن الجبور وفي مثل هذه الظروف ، أخذوا يواجهون تحدياً جديداً من مملكة هرموز ، بعد أن أصبحت مقاليد الأمور بيد خواجة عطار ، عم الملك شهاب الدين الذي قام عام ٩١٧هـ/ ١٥١١م بتجريد حملة بحرية ، نجحت في الاستيلاء على البحرين ، لكن الجبور أرغموه على سحب قواته من البحرين بعد احتلال دام فترة قصيرة جداً.

مهما يكن من أمر ، فإن التغيرات والتبدلات التي أخذت تفرزها الأحداث منذ الربع الأول من القرن العاشر/ السادس عشر في منطقة الخليج العربي خصوصاً ، وفي المشرق عموماً ، كان لا بد لها أن تترك أثرها على الوضع

(١) F.Sousa, The Portugues Asia, Trans, J. Stevens, London, 1695, republished in Meisendeim\ Glan. W. G. 1971, vol. 1, 126 - 28: Miles, 149: Aubin, 127.

(٢) Sousa. Op. cit., 142.

السياسي والاقتصادي لإمارة الجبور؛ إذ كانت هذه الأحداث أكبر من أن تستطيع هذه الإمارة التغلب عليها ، والصمود في وجهها.

من أجل المرور سريعاً بهذه التغيرات نذكر أن البرتغاليين كانوا قد أحكموا هيمنتهم على هرموز منذ عام ٩٢١هـ/ ١٥١٥م ، وأصبحوا يتحكمون بذلك في مداخل الخليج العربي ، ويهيمنون على أجزاء منه ، وعلى الرغم من أن ذلك قد أدى إلى إخراج هرموز من دائرة الصراع المباشر مع إمارة الجبور ، إلا أن هذه الإمارة قد أصبحت وجهاً لوجه مع البرتغاليين المتفوقين عليهم بقوتهم البحرية ، إضافة إلى أنهم أخذوا يتخفون خلف ادعاءات مملكة هرموز بحقوقها في البحرين والقطيف.

والواقع فإن دخول البرتغاليين إلى الخليج العربي كان يمثل بداية أول مواجهة مباشرة مع أوروبة الصليبية الاستعمارية في المنطقة ، كما كان يمثل بداية انتقال السيادة التجارية في المحيط الهندي والبحار العربية من أيدي المسلمين - وعلى الأخص العرب منهم - إلى أيدي أعدائهم التاريخيين من القوى الأوروبية المختلفة (برتغال ، إسبان ، فرنسيين ، إنكليز).

لقد كان من نتائج ذلك أن تعرض عرب الخليج إلى خسائر مادية ، وانتقل معظم نشاطهم التجاري تدريجياً إلى أيدي قوى أجنبية غير مسلمة ، وإلى شركات احتكارية كبيرة ، فعم الكساد والفقر أبناء الخليج العربي ، ولم يستطيعوا استرجاع مكانتهم السابقة إلا بظهور النفط على شواطئهم ، فكان عصراً جديداً للمنطقة حقاً[١].

(١) من أجل الاطلاع على معلومات مفصلة بخصوص ظهور البرتغاليين في البحار العربية عامة ، وفي الخليج العربي خاصة ، راجع:
DALBOQUERQUE, The Commentaries of the Great AFonso D,Alboquerqu, London, 1879 - 83, 4 vols: Sousa, Op. cit., vol. 1,262 - 68: Miles, 157 - 63: G.W.F. Stripling, the ottoman Turks and the arab, 1511 - 1574, Urbana 1942, 25: C.R> Boxer, the Portugese Seaborne Empire. 1415 - 1825, (London, 1973): A.T. Wilson: The Persian Gulf, 3 rd. ed, London, 1959, pp. 133 - 123.
لقد صدرت ترجمة عربية لهذا الكتاب ، وهي مملوءة بالأخطاء ، والتحريف الكبير في الأعلام؛ لذا ننصح بقراءته بحذر ، والرجوع إلى النص الإنكليزي؛ لتدقيق الأعلام الواردة=

أما قوة الصفويين التي ظهرت بقيادة الشاه إسماعيل ، وأحكمت سيطرتها على جميع أنحاء إيران ، وامتدت حتى الشواطئ الإيرانية للخليج العربي ، وضمت إلى دائرة نفوذها العراق[1] ، فإنه لم يكن خطرها يتهدد إمارة الجبور مباشرة ، إلا أن خطرهم كان مبعثه سعيهم إلى نشر عقائدهم الدينية بمختلف الوسائل ، ولا بد أنهم قد بعثوا بدعاة تسللوا إلى بلاد البحرين ، لكسب التأييد لدعوة الشاه الصفوي. ومن المحتمل أن قسماً من سكان بلاد البحرين قد أخذت تتعاطف - لأسباب مذهبية - مع هذا التحرك الديني على الجانب الشرقي من الخليج العربي ، الأمر الذي أدى حتماً إلى إثارة مخاوف وقلق حكام الجبور.

ومما هو جدير بالذكر هنا أن الشاه إسماعيل كان قد اتصل بالبرتغاليين في هرموز والهند ، من أجل إقامة جبهة مشتركة ضد العثمانيين ، وقدم لهم بعض المطالب بهذا الخصوص من خلال سفيره إلى البوكرك ، وكان أحد هذه المطالب أن يقوم البرتغاليون بتأمين السفن اللازمة ، من أجل نقل رعاياه ما بين هرموز والبحرين والقطيف. وقد قبل البوكرك من حيث المبدأ هذا المطلب ، لكنه اشترط على الشاه إسماعيل ألا يؤدي ذلك إلى أي عمل يضر بأراضي هرموز ، أو بجزيرة البحرين[2].

ومما يثير الأسف حقاً أن المؤرخ الإيراني عباس إقبال ، قد حرف هذه النقطة بالذات ، وادعى بأن الشاه إسماعيل قد طلب من البوكرك أن تقوم سفن

= فيه ، وكذلك إلى المصادر العربية التي نقل عنها المؤلف نصوصه.
Salih ozbaran. The ottoman Turks and the Portuguese in the Persian Gulf, 1534 - 1581, Journal of Asian History (Wisbaden) Vol. 6]1, 1972, 54 - 87.
لقد قام د. عبد الجبار ناجي بترجمة هذا البحث أخيراً ، وصدرت في كتيب بعنوان (الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي) ، بغداد ١٩٧٩م.

(١) للاطلاع على تاريخ مفصل لحياة الشاه إسماعيل ، راجع :
Ghulam Sarwar, History of Shah ism - e - il SAFAWI (india, Alifarh, 1939).
كذلك راجع : بديع جمعة وأحمد الخولي ، تاريخ الصفويين وحضارتهم ، القاهرة ١٩٧٦م.

(٢) the Commentaries, IV, 153 - 4, 176 - 7.

برتغالية بنقل قوة عسكرية إيرانية لاحتلال البحرين والقطيف ، وأن البوكرك قد وافق على هذا المطلب[1].

إن التدقيق في النص الإنكليزي لمذكرات البوكرك ، وهي المصدر الوحيد للمفاوضات التي جرت بين سفير الشاه إسماعيل والبوكرك ، يثبت بأن عباس إقبال قد لجأ مع الأسف الشديد إلى التزوير والتحريف ، عند ترجمة معنى هذا النص[2] إلى الفارسية ، وغرضه واضح من ذلك ، وهو أن يظهر أن الادعاءات

(١) عباس إقبال ، مطالعاتي درباب بحرين وجزاير وسواحل خليج فارس ، طهران ، شمسي (١٩٤٩م) ، ٦١.
ومما يزيدنا أسفاً أن باحثين مصريين قد نقلا هذا التحريف عن المصادر الإيرانية ، ولم يحاولا التحري عن حقيقة الأمر بالرجوع إلى المصادر الأصلية. ويبدو أنهما غير مكترثين بمقاصد المصادر الإيرانية من هذا التحريف والتزوير. راجع: بديع جمعة وأحمد الخولي. تاريخ الصفويين وحضارتهم. القاهرة ، ١٩٧٦م ، ١٩٩٧م. كذلك راجع: صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، القاهرة ، ١٩٧٤م. ١٨.

(٢) النص الإنكليزي لمطالب الشاه إسماعيل المتعلق بالبحرين والقطيف ، كما ورد في الترجمة الإنكليزية لتدوينات البوكرك الصادرة في لندن عام ١٨٨٤م.
The Second, that Shipping should be supplied for the passage of his people th the land of Arabiam which is on the coast where on lies Barem (Bahrayn)
. ١٥٣and commentaries of D, Albo - querque,. «Catife (Qatif
أما جواب البوكرك على طلب الشاه ، فهذا نصه :
«As for second, which was a demand of a water passaqe for the conveyance of his people to the land of Arabia, he would be very muvh p;eased to accede for this and qive him all the vessels he stood in need of, provided that the Xeque ismael (shah isma- e- il) would qive suffi - cient securty to the Kinq of Ormuz (Hormuz) that no untoward event should be perpetrated in his Lands nor in the island of Barem (Bahrayn) (Commentaries), 177.
إن عباس إقبال قد ترجم لمعنى هذه النقطة إلى الفارسية ذاكراً بأنه قد تم الاتفاق على درلشكركش إيرانيان ببحرين وقطف جهازات برتغالي كمك كندت. أما هذه الفقرة عند الباحثين المصريين جمعه والخولي ، فقد قالا: إن اتفاقية قد عقدت بين البوكرك ومندوب الشاه إسماعيل نصت على أن:
«تصاحب قوة بحرية برتغالية حملة إيرانية على البحرين وقطيف» (القطيف). المصدر السابق ، ٩٧. إن التدقيق في هذه النصوص ومقارنة بعضها ببعض سوف يظهر مدى ابتعاد الإيراني عباس إقبال «والعرب» العقاد وجمعة والخولي عن النص الأصلي.

الإيرانية في جزر البحرين - والتي ألف كتابه من أجل إسنادها[1] ، كانت قديمة ترجع إلى عهد الشاه إسماعيل ، وإن إسماعيل حينما طالب بذلك لا بد أنه كان يستند إلى حق تاريخي في ذلك ، وإن حفيده عباس قد حقق له هذه الأمنية التي لم يستطع تحقيقها في حياته.

والواقع فإن المعنى الكامل لمطلب الشاه إسماعيل ، وجواب البوكرك عليه هو ما ذكرناه أعلاه ، ولا يحتمل أي تفسيرات أخرى. ومهما يكن من أمر ، فإن مطلب الشاه إسماعيل على الرغم من أن هدفه - كما يبدو - هو تأمين انتقال التجارة والأفراد ما بين شاطئ الخليج العربي ، إلا أنه ربما كان يخفي خلفه أطماع سياسية.

إن القوة الثالثة التي كانت لها تأثير على منطقة الخليج على الرغم من بعدها النسبي عنها ، هي العثمانيون الذين كانوا قد استطاعوا أن يزيلوا دولة المماليك في مصر والشام والحجاز بين عام ٩٢٢ - ٩٢٣هـ/ ١٥١٦ - ١٥١٧م وأن يحلّوا محلهم ، كما استطاعوا أيضاً أن يقلموا أظافر الشاه إسماعيل الصفوي في معركة جالديران عام ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م. وقد أضحوا حماة الحرمين ، وخدامه ، وفي مواجهة البرتغاليين في البحار العربية.

مهما يكن من أمر ، فإن إمارة الجبور قد أصبحت تقع عند حدود هذه القوى الثلاثة الكبرى المتصارعة ، وكان لا بد لها أن تحدد موقفها ، مما كان يدور حولها ، لكننا لا نملك أية معلومات تدل على الموقف الذي اتخذوه ، هل هو مداراة هذه القوة جميعاً ، أم التعاون مع هذا الطرف أو ذاك؟ إن الذي نراه أقرب للمنطق ، هو أن الجبور أخذوا يميلون للتعاون والاتصال بالعثمانيين. وإذا كان هذا الميل والتعاون لم يأخذ شكلاً علنياً ، فإنه ربما كان ذلك من باب عدم محاولة إثارة القوتين الأخريين.

إن مما قد يدل على وجود ارتباط غير مباشر بين العثمانيين والجبور ، هو

(١) لقد ألف عباس إقبال كتابه المذكور بناء على طلب من وزارة الخارجية الإيرانية ، راجع: مقدمة كتابه مطالعاتي درباب بحرين . . . أ. ب.

قيام علاقة مصاهرة بين شريف مكة - الذي يدين بالولاء للعثمانيين - وبين زعيم الجبور السلطان مقرن بن زامل[1].

وعلى كل حال ، فإن هذه الظروف المستجدة؛ التي أخذت تواجه إمارة الجبور ربما كانت أحد الأسباب للارتباك ، وسوء الإدارة؛ الذي أخذ ينتاب هذه الإمارة ، مما دفع قسماً من السكان في بلاد البحرين إلى التطلع والتفتيش عن شخصية قوية يمكنها أن تُقوِّم ما اعوج ، وتواجه الأخطار المحتملة بجدارة. ولعل قصيدة الكليف بالنبطية ، على ركاكتها ، والتي يخاطب بها مقرن قبل توليه السلطنة ، هي خير تعبير على ذلك ، حيث جاء فيها:

تل العشيرة مقرن زاكي الوفا ... حمال من جل الخطوب أثقالها
قد شاف بالأعمام ما لا يرتضي ... بالدار واقفي زاهداً بأعمالها

إلى أن قال:

فإن كان تبغي ملك هجر صادق ... فاضرب بحد السيف روس رجالها[2]

إن انتقال السلطة بعد ذلك إلى السلطان مقرن بن زامل يقتضي منا استعراضاً سريعاً لطبيعة نظام الحكم في هذه الإمارة ، مستندين في ذلك إلى الإشارات الواردة بهذا الخصوص ، وما نستشفه من بعض النصوص.

ومن الطبيعي أن تتأثر طبيعة السلطة في إمارة الجبور بالطبيعة القبلية للأسرة الحاكمة ، وللبيئة التي قامت فيها؛ إذ إن نظام المشيخة هو النظام السائد هناك ، والذي يكون فيه شيخ أكبر للإمارة ، يساعده في إدارة الإمارة عدد من أفراد أسرته؛ لذا فإن السلطان زامل بن حسين كان كما يبدو قد أشرك أولاده وهم سيف وأجود ، وربما هلال أيضاً في إدارة قسم من الإمارة ، وتحمل بعض المسؤوليات الكبيرة فيها.

ويبدو أن هذا التقسيم الثلاثي للمسؤولية في الإمارة قد أصبح تقليداً متبعاً في عهد أجود أيضاً؛ إذ يذكر باربارو سفير البندقية إلى السلطان أوزون حسن

(١) Caskel, 69.
(٢) د. عبد الله العثيمين ، الشعر النبطي من مصادر تاريخ نجد ، المصدر السابق ، ٨٤٨.

في إيران عام ٨٧٨ ـ ٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م أن السواحل العربية للخليج العربي، كانت تُحكم من قبل ثلاثة من الأمراء المسلمين[١]، ومن المحتمل أنه يشير بذلك إلى حكومة أجود؛ الذي يساعده ولداه في إدارة الإمارة وهما سيف وزامل. ونحن نميل أيضاً إلى أن هذه المناصب كان يرثها الأولاد عن آبائهم، في حين أن منصب الشيخ الأكبر للجبور لا ينتقل حتماً من الأب إلى الابن.

ومن الجدير بالذكر هنا أيضاً أن المصادر البرتغالية ـ وهذا ما سبق أن أشرنا إليه ـ كانت قد ذكرت بأن البلاد في مطلع القرن السادس عشر، أي: بعد وفاة أجود، كانت مقسمة بين ثلاثة من أمراء الجبور، وربما يكون هؤلاء الثلاثة هم أولاد أجود.

هذا، وقد سبق أن عرفنا بأن محمد بن أجود كان سلطاناً على الأحساء والبحرين والقطيف عند دخول البرتغاليين للخليج العربي. إن هذا التقسيم الثلاثي لإمارة الجبور يجرنا إلى تساؤل مهم، عن حدود هذه الأقسام الثلاث؟ للإجابة على ذلك نقول بأنه ليس أمامنا إلا الافتراض؛ لأن ما لدينا من نصوص وإشارات لا تساعدنا على الجزم بخصوص هذه الأقسام.

والذي نراه أنها:

أولاً: البحرين والقطيف وما يتبعها من جزر وقرى كثيرة. إن ما يجعلنا نفترض بأن هذا الجزء كان يشكل قسماً إدارياً، هو ما وجدناه متبعاً عن تفحصنا لتاريخ العيونيين، ودراستنا للعصفوريين[٢]، وما وجدنا في عهد السلطان مقرن بن زامل الجبري، وكان قد عين ابن أخته الشيخ حميد حاكماً على هذا القسم[٣].

ويمكن أن نضيف إلى ذلك بأنه يمكننا أن نتخذ مما فعله العثمانيون عند حكم هذه البلاد دليلاً على وجود مثل هذا التقسيم، فقد اعتادوا على أن يبقوا

(١) Grey, A narrative of italian Travels, 80.
(٢) راجع: إمارة العصفوريين.
(٣) Caskel, 69.

على الأوضاع السائدة قبلهم في معظم البلاد؛ التي خضعت لسيطرتهم، فقد جعلوا من القطيف والجزر والقرى التابعة لها سنجقاً من سناجق ولاية البصرة لفترة قصيرة، ثم جعلوها سنجقاً من سناجق ولاية الأحساء، أو ما يسمونها في بعض الأحيان ولاية نجد[١].

ثانياً: الأحساء، وهو قسم إداري آخر، وقد كان يعتبر هكذا في العهود السابقة للجبريين، كما أن العثمانيين اعتبروه أيضاً سنجقاً من سناجق الولاية ومقراً للوالي. على أنه يبدو أن الجبور قد اتخذوا منه أيضاً مقراً لسلطانهم، وهذا يتضح لنا من توجه سلغور شاه إلى الأحساء لمقابلة السلطان أجود بن زامل. من أجل طلب المساعدة منه، يضاف إلى ذلك وجود آثار قصر أجود في الأحساء قرب قريبة المنيزلة[٢]، على أنه من المحتمل أن تكون نجد تابعة إلى القسم الإداري، إن لم تكن قسماً إدارياً مستقلاً بذاته.

ثالثاً: عمان الشمالي ومنقطة الظفرة (الإمارات العربية المتحدة)، وقد ضمّ هذا القسم منذ عهد السلطان أجود أو قبله بقليل، ثم ازداد توغل الجبور في عمان الداخل في عهد أجود. ولقد أورد البوكرك في مدوناته أن الجبور كانت لهم السيطرة على الأراضي الواقعة خلف ميناء صحار وخورفكان[٣].

ويرى كاسكل بأن الجبور لكي يحافظوا على نفوذهم في عمان بصورة مستمرة، لا بد أن يكونوا جعلوا قاعدتهم الرئيسة في واحات تؤام (البريمي)؛ لأنهم يستطيعون أن يتخذوا منها قاعدة لحشد قواتهم، والانطلاق منها دون

(١) Jone. MANDAVILLE, the ottoman Province of AL-Hasain the 16 th and 17 th centuries, the Journal of theAmerican Oriental Society, (1970), vol, 90, 486 - 512 m esp. 501 - 4: Cengiz orhonlu, 1559 Bahreyn Seferine aid bir rapor, Tarih Dergisi, (Istanbul) XVII, NU, 22, 1867, 1-16.
لقد قام صديقنا الدكتور حسين الداقوقي بترجمة هذا البحث: وسوف يقوم بنشره قريباً:
A.N.al- Humaidan, The Social and political History of the provinces of Bagh-dad and Basrah from 1688 to 1749 m unpublished thesis for Ph,. D. University of Manchester, (1975) p.15.
(٢) تحفة المستفيد، ١٢٠.
(٣) Commentariesm 1,83, 84, 92, 1600: stripling, The Ottoman Turks Turks and the Arabs, 25.

عوائق طبيعية نحو عمان الداخل ، ونحو الموانئ الساحلية الرئيسية ، خصوصاً ميناء صحار وخورفكان؛ لأن تؤام تسيطر على طريق التجارة بين صحار وخورفكان وعمان الداخل.

وقد كان السعوديون في عهد دولتهم الأولى ، قد اتخذوا من واحات البريمي قاعدة في عملياتهم العسكرية داخل عمان ، خصوصاً بعد أن تحالفت قبائل الجبور في المنطقة معهم. وإن مما يعزز هذا التواجد للجبور في هذه المنطقة هو أن كثيراً من قبائل عمان الشمالي (اتحاد الإمارات العربية) تنتسب إلى بني عامر[1].

بقي هناك جزء يقع بين هذه الأقسام الثلاثة ، ويضم ميناء العقير وسلوة وشبه جزيرة قطر؛ إذ لا نستطيع أن نرجح إلى أي قسم من الأقسام الثلاثة كان تابعاً ، وإن كنا نميل إلى أنه يشكل جزءاً من إقليم الأحساء.

إن سعة كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة ، لا بد أن يؤدي إلى تقسيمه إلى أقسام إدارية أصغر ، وأن يكون عليها حكام وشيوخ سواء كان في مدنها وقراها وجزرها أو في بواديها. وقد يكون هؤلاء من بيت مشيخة الجبور أو ممن ينتسب إليهم بصلة ما ، على أن أي جزء من الإمارة صغيراً كان أم كبيراً كان يدار بأسلوب الإدارة اللامركزية.

مهما يكن من أمر ، فإن تعدد مراكز القوى في إمارة الجبور كان لا بد أن يؤدي إلى ظهور احتمالات التصادم بين هذه القوى ، خصوصاً عندما تختل الموازين فيما بينها ، وتكون هناك قيادات أكثر طموحاً وكفاءة تشغل مراكز قيادية رئيسة ، بينما يوجد من هو أقل منها في قابليته يشغل مراكز قيادية رئيسة؛ لذا فما أن تسنح الظروف حتى تشب تلك القيادات ضد القيادات الأعلى.

ومهما يكن من أمر ، فإننا نجد في قصيدة الكليف التي خاطب بها مقرن بن

---

(١) سالم حمود السيابي ، إسعاف الأعيان في أنساب أهل عمان ، بيروت ، ١٩٦٥م ، ٢٨ - ٢٩.

R.L.Headly, art «al-Awamir», E12.
J.C. Wilkinson, the origins of the omani state in the Arabian Peninsulam ed. D.Hopeood, London, 1972, 67 - 83, esp.82.

زامل - التي ذكرناها - ما يشير صراحة إلى أن الحكم في إمارة الجبور ، كان موزعاً بين أعمامه غير الكفوئين. ويفهم من ترجمة الغزي لصالح بن سيف بأن مقرناً كان قد انتزع السلطة فعلاً بالقوة من أعمامه وأبنائهم[1] ، لكن السؤال الذي يصعب الإجابة عليه هو ، هل انتزع مقرن بن زامل السلطة من عمه محمد بن أجود أم من عم آخر له حكم بعد محمد؟

مهما يكن من أمر ، فإنه من المحتمل أن مقرن بن زامل قد أصبح سلطان الجبور في العقد الثاني من القرن العاشر / السادس عشر ، وأنه قد لجأ إلى العنف في بعض الأحيان للوصول إلى مركز الزعامة الأولى على الجبور[2] ، ويبدو أن السلطان مقرن قد استطاع أن يحافظ على وحدة البلاد ، وعلى هيبة الجبور ، وأنه قد نجح في إخضاع قبائل كبيرة كانت قد تمردت على سلطانه كبني خالد وبني لام ويزيد ومزيد ، يستدل على ذلك من قصيدة الجعيثن في مدح السلطان مقرن؛ إذ جاء فيها:

حمى بالقنا هجراً إلى ضاحي اللوى ... إلى العارض المنقاد، نابي الفرايد[3]
ونجد رعى ربعي زاهي فلاتها ... على الرغم من سادات لام وخالد[4]
وسادات حجر من يزيد ومزيد ... قد اقتادهم فود الفلا بالقلايد[5]

هذا ، وكنا قد أشرنا سابقاً إلى ما ذكره ابن بسام من قيام الجبور عام

---

(١) الكواكب السائرة ، ١/ ١٢٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) ضاحي اللوى: طرف رمل يبرين المتصل بالجهناء جنوب الأحساء. وقد يكون الشاعر قد قصد بها لوى؛ التي هي أطراف بادية الظاهرة بعمان. العارض: عارض اليمامة ، وهو جبل طويق في نجد ، نابي: مرتفع ، الفرائد: جمع فريد ، وهو الجبل.
(٤) لام وخالد قبيلتان معروفتان.
(٥) حجر: مدينة كانت في اليمامة ، وقد قامت مدينة الرياض على أنقاضها. يزيد ومزيد: قبيلتان من بني حنيفة كانتا تحكمان في حجر. وحول هذه القصيدة راجع: تاريخ حمد بن لعبون ، ٣١ - ٣٢ حمد الجاسر ، الدولة الجبرية ، ٦٠٧ وعبد الله العثيمين ، نجد منذ القرن العاشر الهجري. المصدر السابق: ٦٦ - ٧١ المؤلف نفسه ، الشعر النبطي من مصادر تاريخ نجد. المصدر السابق ٨٤٩.

٩١٦هـ/ ١٥١٠ ـ ١٥١١م بغزو نجد ، وقد يكون ذلك قد تم في عهد السلطان مقرن ، وأن الشاعر الجعيثن حين مدح مقرناً بإخضاعه قبائل نجد ، كان يشير إلى هذه الغزوة .

وإذا كان افتراضنا صحيحاً حول بداية عهد السلطان مقرن ، فيكون هجوم الهرموزيين على البحرين بقيادة خواجة عطار عام ٩١٧هـ/ ١٥١١م قد تم في عهده أيضاً ، وكأن نجاح مقرن في إفشال هذا الهجوم أحد أسباب انتشار شهرته ، وضياع صيته . ولقد وصف ابن إياس مقرناً هذا بأنه (أمير عربان بني جبر ، ممتلك جزيرة ما بين النهرين (البحرين) إلى بلاد هرموز الأعلى . . . سيد عربان الشرق على الإطلاق)[١] .

ومن المحتمل جداً أن السلطان مقرناً لكي يقوي مركزه ، قد لجأ إلى المصاهرات المتبادلة مع بعض القبائل والزعماء ، فتذكر المصادر بأن أمير مكة كان قد تزوج بابنة السلطان مقرن[٢] ، ومن المحتمل أن دوافع هذا الزواج كانت سياسية .

كما نميل إلى ترجيح أن هناك علاقة مصاهرة قد قامت أيضاً بين بيت مقرن وزعيم قبيلة بني خالد ، ونحن نستند في هذا الافتراض إلى ما ذكرته المصادر ، من أن حاكم جزيرة البحرين والقطيف المدعو الشيخ حمد ابن أخت السلطان مقرن[٣] ، وقد يكون حميد هذا هو شيخ بني خالد أو ابن شيخها؛ إذ من المعروف بأن سلسلة نسب زعماء بني خالد يطلق عليهم ابن حميد تارة ، والحميدي تارة أخرى .

* * *

(١) بدائع الزهور ٥/ ٤٣١ .
(٢) Caskel, 68 .
(٣) Ibid .

انتزاع جزيرة البحرين من الجبور ومقتل سلطانهم مقرن

إن دوافع الهجمات المستمرة التي كان يشنها الهرموزيون لاستعادة جزيرة البحرين والقطيف ، هي لوضع مواردها الكبيرة تحت تصرفهم المباشر . ويبدو أن هذه الرغبة قد ازدادت بعد أن فرض البرتغاليون على مملكة هرموز أن تدفع لهم سنوياً مبالغ كبيرة ، وهذا ما لم يكن بإمكانها تلبيته ، أو أنه على الأقل كان يشكل عبئاً مالياً كبيراً على خزنتها ، خصوصاً وأن أمراء الجبور ومقرن على الخصوص ، لم يكونوا يسددون بانتظام ما فرضته عليهم شروط الاتفاقية المعقودة بينهم ، وبين هرموز من أموال سنوية . وعندما تكرر فشل الهرموزيون في فرض هيمنتهم بالقوة على البحرين والقطيف ، لجؤوا إلى تحريض البرتغاليين على ذلك .

وتشير المصادر البرتغالية إلى أن ملك هرموز تورانشاه ، كان قد اعتذر للبرتغاليين بعجزه عن دفع المبالغ السنوية التي كانوا قد فرضوها عليه ، وقد عزا عجزه عن ذلك إلى أن مقرن بن زامل لم يكن يدفع له بانتظام المبالغ المقررة عليه سنوياً ، من واردات جزيرة البحرين والقطيف .

بل الأكثر من ذلك أن مقرناً كان يقوم بالتعرض للسفن التي تبحر ما بين البصرة وهرموز ، وذلك رداً على المضايقات التي أخذت تتعرض لها تجارة بلاده من قبل البرتغاليين والهرموزيين .

هذا ، ومن الجدير بالذكر هنا أن البرتغاليين كانوا قد حاولوا عام

٩٢٠هـ/ ١٥١٤م النزول في جزيرة البحرين ، إلا أنهم فشلوا في ذلك ، وعللوا هذا بأن الرياح كانت قد عاكستهم[١] .

مهما يكن من أمر ، فإنه في عام ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م اتفق البرتغاليون مع ملك هرموز على القيام بغزو لجزر البحرين ، فحشدوا لهذا الغرض قوات كبيرة في جزيرة هرموز جندت من سواحل الخليج العربي يدعمها الأسطول البرتغالي. وقد وقت هذا الهجوم أثناء تغيب السلطان مقرن بن زامل في الحجاز ، لحضور موسم الحج؛ لذا فقد تولى مقاومة هذا الهجوم حاكم البحرين والقطيف الشيخ حميد ابن أخت السلطان مقرن ، وبسبب المقاومة الشديدة التي أبداها الجبور وسكان البحرين إضافة إلى معاكسة الرياح الشديدة لسفن الحملة ، تم إحباط هذا الهجوم[٢] .

وعلى أثر ذلك سارع السلطان مقرن بالعودة من الحجاز ، وتوجه إلى جزر البحرين؛ ليشرف بنفسه على الاستعدادات الضرورية لمواجهة هجوم ثان مرتقب. وفي الحقيقة فإن السلطان مقرن كان يتوقع هجوماً برتغالياً على بلاده منذ مدة؛ لذا كان قد بدأ باتخاذ الاستعدادات الضرورية لذلك.

وتذكر المصادر البرتغالية بأن السلطان مقرن كان قد بدأ ببناء أسطول يتكون من سفن كبيرة ، واستعان من أجل ذلك بعمال مهرة من الترك والفرس والعرب ، وجند مقاتلين يحسنون الرمي بالسهام والبنادق ، كما أنه قد أعاد تقوية تحصينات وأسوار كل من البحرين والقطيف ، وزودها بالمدافع والمقاتلين ، ووضع على رأس كل قوة أحد القواد المدربين. وتشير المصادر البرتغالية أيضاً إلى أن قوات مقرن أصبحت تتكون من أكثر من ١١ ألف مقاتل ، مزودين بمختلف الأسلحة ، إضافة إلى ٣٠٠ فارس ، و٤٠٠ رامٍ ، سهم من

(١) Sousa, Op. cit., 1\256: the Commentaries, IV, 114 ozbaran, Op. cit., 46 - 7.
ومن الجدير بالذكر هنا أن صلاح العقاد قد وقع في خطأ عندما ذكر بأن البرتغاليين قد احتلوا البحرين في حملتهم هذه ، والتي حدد تاريخ وقوعها بعام ١٥١٥م. راجع: التيارات السياسية ، ١٨ .

(٢) Sousa, 256 - 8: Caskel, 67 - 8: Ozbaran Op. cit.

الفرس ، و٢٠ تركياً من حملة البنادق (التفنكجية)[١] .

وفي ١٠ شعبان ٩٢٧هـ/ ١٧ تموز ١٥٢١م ، قام البرتغاليون والهرموزيون بهجومهم الكبير المرتقب على البحرين والقطيف ، وقد ذكرت المصادر البرتغالية أن هذه القوات كانت تتألف من قسمين ، قسم قد أعده ملك هرموز وهي تتألف من ٣ آلاف رجل من المرتزقة من فرس وعرب ، تحملهم ٢٠٠ سفينة ، ويقودهم وزير ملك هرموز ريس شرف الدين.

أما القوة البرتغالية فتتألف من ٤٠٠ رجل ، تحملهم سبع سفن كبيرة مزودة بمدافع ضخمة بقيادة أنطونيو كوريا.

تصدى الجبور لهذا الهجوم يقودهم السلطان مقرن شخصياً ، وجرت المعارك الحامية في هجير الصيف ، وكانت المعارك تتوقف بسبب شدة الحر ، ثم يعاود الطرفان الهجوم بعضهم على بعض، وكان مقرن على رأس قواته يحث جنوده على الصمود والاستبسال، إلى أن جرح جرحاً بليغاً بسلاح ناري في فخذه نقل على إثره إلى أحد المساجد ، حيث توفي فيه بعد ستة أيام متأثراً بجراحه.

(١) إن (التفنكجية) ليسوا صناعاً للبنادق ومقاتلين فقط ، بل هم يقومون أيضاً بتدريب السكان على استعمال الأسلحة النارية. راجع:
V.J,Parry, art, «Harb», E12.
ومما هو جدير بالذكر هنا أن وجود التنفكجية بين جنود السلطان مقرن يعني: أن الأسلحة النارية قد دخلت إلى شرق الجزيرة العربية في عهده؛ إذ يستبعد وجودها قبل ذلك. ونحن نعرف مثلاً من الشوكاني بأن اليمن لم تكن تعرف البنادق قبل عام ٩٢١هـ/ ١٥١٥م. راجع: البدر الطالع لمحاسن من بعد القرن السابع ، القاهرة ١٣٤٨هـ ، ١/ ٢٧٩. هذا ، وقد وصفت المصادر البرتغالية التفنكجية الذين في جيش مقرن بأنهم من الروم ، وهو تعبير يطلق على أتراك الأناضول؛ لذا فمن المحتمل أن مقرن قد جلبهم من العثمانيين الموجودين بالحجاز ، أو أنهم مرتزقة من بقايا قوات آق قوينلو في بلاد فارس؛ إذ كانوا يعرفون الأسلحة النارية. راجع:
Inaleik, The Socio - Political effects of the diffusion of fire - arms in the Middle. H Eadt, in War, Techno - logy and Society in the Middle East, eds. V.J. Parry & M.E. Yapp, London, 1975, 195 - 217: R.M. Savory, the sherley Myth, Iran (Journal of Persian Society), London.
١٩٦٧م ، ٧٣ ـ ٨١

لم تتوقف المعارك بعد إصابة مقرن ، فقد كان يتولى القيادة الشيخ حميد ، إلى أن استشهد مقرن ، فانهارت معنويات قواته؛ ونظراً لانهيار المعنويات وكثرة القتلى والجرحى أمر الشيخ حميد قوات الجبور بالانسحاب إلى القطيف فوراً ، ونقل جثمان خاله مقرن؛ ليدفن في الأحساء.

وتذكر المصادر البرتغالية بأن الوزير ريس شرف الدين قائد القوات الهرموزية ، قد أمر قواته بضرورة انتزاع جثة السلطان مقرن من أيدي القوات المنسحبة ، فتم له ما أراد ، وقام بقطع رأس السلطان مقرن ، وحمله معه إلى هرموز[١].

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن ابن إياس قد ذكر بأن السلطان مقرن قد وقع حياً في أيدي البرتغاليين أثناء حربه معهم ، وأنه قد عرض عليهم مليون دينار فدية ليطلقوا سراحه ، إلا أنهم أبوا ذلك وقتلوه صبراً[٢]. إن هذا القول يصعب قبوله لكونه يتعارض مع ما أوردته المصادر البرتغالية القريبة من موقع المعركة.

ولربما يقصد ابن إياس بقوله هذا؛ أن السلطان مقرن قد فاوض القوات المهاجمة قبيل وقوع القتال بين الطرفين أو خلاله ، وأنه ظهر استعداده؛ لأن يدفع لملك هرموز ما بذمته من ديون وحقوق ، على شرط أن تنسحب هذه القوات من بلاده ، وأن هذا العرض من مقرن قد رفض.

مهما يكن من أمر ، فإن البرتغاليين والهرموزيين قد نجحوا في انتزاع جزيرة

---

(١) SOUSA, 256 - 58: Caskel, 67 - 8: Ozbaran, 46 - 7.

(٢) بدائع الزهور ، ٥/ ٤٣١. من المؤسف أن ابن إياس قد وصف السلطان مقرن بالمتخاذل؛ الذي أخذ يتوسل إلى البرتغاليين بالمال للإبقاء على حياته ، فلم يغن عنه ماله شيئاً على حد قول ابن إياس... بينما نجد مصادر أعدائه البرتغاليين تصفه بالشجاعة والصمود ، وأنه كان يقاتل على رأس قواته ، ويحثها على الاستبسال إلى أن سقط شهيداً. والواقع: فإن بسالة مقرن هي التي جعلته يقف هذا الموقف من البرتغاليين منذ البداية ، ولو كان عكس ذلك لاسترضاهم ـ كغيره من حكام الخليج ـ بالمال قبل هجومهم عليه. لكن فضل أن يبقى في خطوط المواجهة الأمامية ، إلى أن سقط شهيداً ، فكان أول حاكم في مشرق العالم الإسلامي الذي يلقى هذا المصير في المعركة مع المستعمرين البرتغاليين.

البحرين من الجبور ، وأعادوا الإدارة الهرموزية المباشرة إليها. وعينوا حاكماً هرموزياً فيها يتمتع باستقلال كبير في إدارة الجزيرة ، وتقيم إلى جانب هذا الحاكم حامية برتغالية ترابط في قلعة هناك ، ويراقب قائدها الأوضاع فيما حوله؛ ليمنع بالقوة إذا اقتضى الأمر أي أمر قد يؤدي إلى الإضرار بالمصالح البرتغالية ، أو بالوجود البرتغالي في الخليج العربي.

ومما يلاحظ أن الحملة البرتغالية ـ الهرموزية لم تكمل مهمتها المقررة ، وهي احتلال القطيف أيضاً ، وربما يعزى ذلك إلى شدة المقاومة التي قد واجهتها من الجبور ، وخشيتها من أن تصاب بكارثة كبيرة فيما إذا حاولت النزول في القطيف.

على أنه لا بد لنا من التعليق على ما ذكرته المصادر البرتغالية من أن احتلال البحرين قد تم بتحريض من ملك هرموز ، وأن هدفه كان ضمان حصوله على حقوقه في البحرين. إن هذا الادعاء من قبل البرتغاليين تضعفه الوقائع؛ إذ نحن نعرف بأنهم كانوا جشعين جداً ، ومصممين على الاستئثار بمعظم المنافع في الخليج العربي ، وكانت البحرين إحدى المناطق التي توجهت إليها أنظارهم منذ البداية نظراً لغناها ، ومركزها الإستراتيجي والتجاري المتميز.

على أننا لا يمكن أن نعفي ملك هرموز من تحمل ما قد حدث في البحرين ، إذ كان حريصاً جداً على أن يخفف من أعباء خزينته ، ما كان قد ألزمه البرتغاليون بدفعة من مبالغ ، وذلك بتشجيعهم على انتزاع البحرين ووضع أيديهم على ما تغله من واردات.

على أنه يجب أن نستدرك فنقول بأن القرار الأخير لهذه الحملة كان دون شك قد اتخذ من قبل البرتغاليين ، وتحت إشرافهم ، خصوصاً ونحن نعرف بأنهم كانوا حذرين جداً من احتشاد أي قوات في هرموز ، تحت أية ذريعة؛ لئلا تستخدم ضدهم.

هناك نقطة رئيسة حول السياسة التي أخذ يمارسها البرتغاليون في الخليج تجدر الإشارة إليها ، وهي أنهم كانوا يقومون بتجريد المنطقة من كل سلاح لئلا يستخدم ضدهم في المستقبل ، وقاموا فعلاً بجمع المدافع من موانئ عمان

وهرموز لهذا الغرض ، إضافة إلى مراقبتهم لبناء السفن في الخليج ، وتفتيشها للتأكد من عدم تسليحها(١).

ولقد أثار قلق البرتغاليين ما كان يقوم به السلطان مقرن من تعزيز قواته ، وتوسيعها وتسليحها بالأسلحة النارية ، وبناء السفن الكبيرة. إن هذه النقطة بالذات لا بد أن تكون أحد العوامل الرئيسة التي جعلت البرتغاليين يسعون للبحث عن الوقت المناسب ، لتدمير الجبور ، ولما كانوا عاجزين عن قهرهم براً؛ نظراً للتفوق الذي يتمتع به الجبور في هذه المساحة؛ لذا فقد لجؤوا إلى عمل عسكري يرتكز أساساً على تفوقهم البحري.

مهما يكن من أمر ، فإن سياسة البرتغاليين في الخليج العربي القائمة على عرقلة النشاط التجاري لسكان الخليج مع المحيط الهندي ، وفرض الضرائب الباهظة على سكان المنطقة ، وقسوتهم المتناهية في التعامل مع السكان ، ثم الاعتداء على الكرامات والأعراض ونهب الأموال ، كلها عوامل قد هيأت الأجواء للثورة ضدهم ، ولم يكن استشهاد السلطان مقرن؛ ليقع دون أن يحدث صدى حزن واسع في أنحاء الجزيرة العربية ، وربما كان ابن إياس يعبر عن ذلك حينما قال معلقاً على استشهاد السلطان مقرن بأن ذلك كان من أشد الحوادث في الإسلام وأعظمها(٢).

كان الرأي العام في تلك الظروف العصيبة يراقب بأعصاب مشدودة ، ما كان يحدث على طول مساحة المواجهة مع البرتغاليين ، والممتدة من سواحل الهند الغربية حتى السويس ، ويتنسم أخبارها(٣).

---

(١) Commentaries, IV, 165, 172 - 4: Sousa, 205 - 6.

(٢) بدائع الزهور ، ٥/ ٤٣١.

(٣) لم يكن ظهور البرتغاليين في البحار العربية من الأحداث العادية أبداً ، بل كانت من أشد الأمور خطراً ، وأبعدها أثراً. فقد ساد الخوف والهلع ، وارتبك الكثير من أوجه الأنشطة على طول سواحل جزيرة العرب. ولقد قدر لإمارة بني جبر أن تكون في خطوط المواجهة الأمامية مع أول طلائع الغزو الأوروبي الصليبي. إن مما يعكس هذا الخوف هو ما ذكره سليمان ريس في تقريره إلى السلطان العثماني سليم ياوز عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م ، من أن شريف مكة =

إن ما حدث بعد بضعة شهور من استشهاد مقرن ، لا يمكن عزل بعض فصوله على الأقل عن هذه الحادثة.

ففي أواخر عام ١٥٢١م انفجرت ثورة عارمة ضد البرتغاليين في طول الخليج العربي ، وعرضه تقريباً ، ويبدو أن توقيت هذه الثورة كان منظماً بشكل دقيق ، بحيث تقوم في مختلف مناطق الخليج في وقت واحد؛ لتطبق على الحاميات البرتغالية المتواجدة فيها ، وقد نجحت هذه الثورة فعلاً في إيقاع خسائر كبيرة بالبرتغاليين ، وكادت أن تقضي على وجودهم فيه. والذي يعنينا في بحثنا هذا هو موقف الجبور على الخصوص.

ففي حين نرى سكان البحرين قد ثاروا في وجه البرتغاليين ، وقتلوا قائدهم ، وفتكوا ببقيتهم ، نجد أن قيادة الجبور في عمان ، والتي تذكر المصادر البرتغالية أنها تتركز بيد الشيخ حسين بن سعيد تقف موقفاً آخر. فقد عمل الشيخ حسين بن سعيد على أن يستغل ظروف الاضطراب الذي عم الخليج؛ ليطبق بقواته البالغة ٤٥٠٠ رجل على صحار؛ التي كان يحكمها أحد كبار أعوان ملك هرموز ، وهو ريس شهاب الدين ، والذي من المحتمل أن يكون قد ساهم هو وقواته في الحملة البحرية؛ التي انتهت باحتلال البحرين ، واستشهاد مقرن.

وعندما كان الجبور مطبقين على صحار ، وصل الأسطول البرتغالي بقيادة

= كان خائفاً من البرتغاليين إلى درجة أنه قد قرر اللجوء وعائلته إلى الجبال؛ للاحتماء بها منهم. راجع نص الوثيقة في:

M.Y.Mughul, Portekizlilerle Kizildeniz,de Mucadele ve Hicaz,de Osmanli Hakimiyetinin yerlesmesi Hakkinda bir vesika, Belgeler, (1967), 11\3 - 4,37 - 47, esp. 42 - 3.

إن خشية شريف مكة هذه ربما هي التي دفعته أكثر لتقوية صلته بأمراء الجبور ، بل إن أهل الحجاز كانوا ينظرون إلى أمراء الجبور ، وإلى مقرن بالذات كأحد حماتهم؛ نظراً لخوفهم الشديد من البرتغاليين ، ومن تهديداتهم بتدمير الأماكن المقدسة في مكة والمدينة ، إضافة لقطعهم الطريق على التجارة الذاهبة إلى جدة ، وعلى سفن الحجاج القادمة من سواحل المحيط الهندي؛ مما أدى إلى ارتباك في حياتهم الاقتصادية أيضاً.

دون لويز إلى سواحل صحار ، وهو يعتزم اقتحام المدينة أيضاً؛ لإنهاء التمرد ضد البرتغاليين فيها. وقد أدرك لويز بأنه لن يستطيع الوصول إلى نتيجة حاسمة مع صحار من دون أن يغري الجبور بالتعاون معه ، فاتصل لهذا الغرض بالشيخ حسين بن سعيد الذي رحب بذلك ، لكنه اشترط أن يحكم الجبور صحار .

ويبدو أن الجبور كانوا معنيين أساساً بالانتقام من أتباع ملك هرموز . وفي ١٢ ربيع الآخر عام ٩٢٨هـ/ ١١ مارس ١٥٢٢م ، وبعد اتفاق الطرفين ، قام الأسطول البرتغالي بمهاجمة صحار من البحر والجبور من البر ، فاضطر السكان إلى طلب الحماية من الجبور خشية تنكيل البرتغاليين بهم ، فمنحوهم ذلك ، كما سمحوا للحامية الهرموزية بالانسحاب مقابل مبلغ من المال ، أما ريس شهاب الدين فقد تمكن من الفرار .

دخل البرتغاليون صحار من جهة البحر ، وأخذوا ينهبونها ويشعلون النار فيها ، لكنهم انسحبوا منها بعد حين ، وسلموها إلى الشيخ حسين بن سعيد الذي كان قد دخل صحار من جهة البر ، فاستقل في حكم المدينة مع الاعتراف بالسيادة للبرتغاليين[1] .

إن مما يلفت الانتباه حقاً أن المؤرخ الإيراني عباس إقبال ، قد دفعه تعصبه إلى أن يصف موقف بعض شيوخ العرب من البرتغاليين خلال هذه الثورة بالذات بالخيانة[2] ، في حين أنه تغاضى تماماً عن تحالف الشاه إسماعيل الصفوي مع البرتغاليين في الخليج ، وكذلك سعى أمراء فارس ولار للتحالف معهم[3] ، كما تغاضى أيضاً عن موقف حكام مملكة هرموز؛ الذين كانوا عموماً قد مهدوا بتخاذلهم وضعفهم للبرتغاليين؛ ليثبتوا أقدامهم في الخليج العربي؛ ولينكلوا بالسكان ، بل وليحرضوهم ويتواطؤوا معهم في ذلك ، كما حدث في البحرين .

---

(١) من أجل الاطلاع أكثر على تفاصيل الأحداث ، راجع :
Sousa, Vol. 1,262 - 68: Miles, 157 - 63: Wilson, Op. cit, Caskel, 68.

(٢) مطالعاتي درباب بحرين ، ٦٣ ـ ٦٥ .

(٣) Commentaries, Iv, 79 - 83, 86 - 9, 150 -4, 175 - 8, 180 - 81, 181 - 4.

يضاف إلى ذلك أن عباس إقبال قد أهمل متعمداً الإشارة إلى موقف التحدي للقوات البرتغالية؛ الذي كان يقفه العرب عموماً وبنو جبر خصوصاً ، طوال الفترة السابقة لذلك ، كما أنه تناسى أن معظم سكان مملكة هرموز؛ والتي كانت قد ثارت ضد البرتغاليين هم من العرب .

والذي يبدو لنا أن موقف بعض شيوخ العرب عموماً والجبور خصوصاً ، في هذا الظرف بالذات من البرتغاليين ، كان مبعثه أساساً هو أنهم كانوا يرون أن ما أصابهم من ضرر كان مصدره تخاذل وتواطؤ حكام هرموز مع البرتغاليين ، ثم قيامهم بتحريضهم على التنكيل بالجبور ، وقتل سلطانهم مقرن ، فتحركوا في هذا الاتجاه وهو الانتقام من الهرموزيين ، وقد ظهر ذلك واضحاً في هجومهم على صحار ، ثم قتلهم ملك هرموز طورانشاه؛ الذي كان قد لجأ إلى جزيرة قشم هرباً من البرتغاليين بعد فشل ثورته ضدهم ، فأرسل زعيم الجبور حسين بن سعيد أحد أتباعه إليه؛ ليثأر منه لمقتل السلطان مقرن بن زامل ، وقد تمكن من ذلك ، وبذلك صفّى الجبور الحساب مع عدوهم اللدود طورانشاه .

❊ ❊ ❊

نهاية إمارة الجبور

ترك استشهاد السلطان مقرن بن زامل بن أجود بن زامل الجبري فراغاً سياسياً كبيراً في إمارة الجبور ، عجز الأمراء الذين أعقبوه أن يملؤوه. ومن المحتمل أنه قد ظهر خلال هذه الفترة في صفوف الجبور محوران متنافسان حول الزعامة ، أحدهما كانت تتركز زعامته في الأحساء في أولاد أجود وأحفاده ، والآخر في عمان الشمالي ، وفي واحات تؤام (البريمي) بالذات في أولاد هلال بن زامل بن حسين الجبري وأحفاده. ويعزى السبب الرئيس لانهيار إمارة الجبور ، إلى التناحر بين هذين المحورين ، وإلى ضعف قياداتهما.

على أنه يجب أن لا يغرب عن بالنا جمود النشاط الاقتصادي ، وكساد النشاط التجاري؛ الذي ساد إمارة بني جبر بظهور البرتغاليين في مياه الخليج العربي ، ثم زاد الأمر سوءاً خروج جزيرة البحرين من أيديهم ، وهو عامل مهم في انحلال إمارتهم وسقوطها.

ولقد لخص لنا الشيخ الجزيري الوضع السياسي الذي ساد إمارة الجبور ، عقب استشهاد السلطان مقرن بن زامل مباشرة سنة ٩٢٧هـ/ ١٥٢١م ، فذكر أن السلطة قد انتقلت بعد مقرن إلى عمه علي بن أجود؛ الذي لم يستطع الاحتفاظ بها أكثر من شهر ، فأعقبه ابن أخيه ناصر بن محمد بن أجود؛ الذي بقي في السلطة مدة ثلاث سنوات ، تميزت كما يبدو بالضعف والفوضى ، فأدرك عجزه وإفلاسه ، مما دفعه إلى أن يتنازل عن هذه الإمارة لقطن بن علي بن هلال بن زامل مقابل مبلغ من المال.

وبتولي قطن بن علي بن هلال لإمارة الجبور ، تكون السلطة قد خرجت من بيت السلطان أجود بن زامل؛ لتنتقل إلى بيت أخيه هلال بن زامل؛ الذين كان نفوذهم يتركز في عمان الشمالي ، ويطلق عليهم المؤرخون العمانيون في بعض

الأحيان اسم بني هلال ، وتغلب عليهم البداوة.

مهما يكن من أمر ، فإن قطن بن علي قد توفي بعد أن حكم فترة لم تتجاوز الشهر أو الشهرين ، ثم اضطر إلى التنازل عنها لعمه غصيب (قضيب). إننا نعرف من المصادر العمانية أن لقطن هذا ثلاثة أولاد هم: قطن ، وناصر ، وعلي ، ولا بد أن يكون أحد هؤلاء الثلاثة هو الذي ورث الإمارة من والده ، على أن ابن قطن لم يستطع أن يحتفظ بالسلطة إلا فترة قصيرة جداً ، لم تتجاوز الشهر أو الشهرين ، ثم اضطر إلى التنازل عنها لعمه غصيب (قضيب) بن زامل بن هلال بن زامل[1].

إن هذه الفوضى السياسية والاقتصادية؛ التي أخذت تتخبط فيها إمارة الجبور بعد استشهاد السلطان مقرن مباشرة ، وبعد انتقال السلطة إلى الهلاليين خاصة قد دفعت ـ بالتأكيد ـ ببعض الزعماء في الأحساء والقطيف ، بما فيهم بيت السلطان أجود بن زامل إلى البحث عن زعيم قوي ينتشل البلاد من حالة التخبط والتدهور؛ التي كانت وقعت فيها ، ولا بد أن أنظارهم قد اتجهت إلى الشمال منهم إلى البصرة ، حيث كان الشيخ راشد بن مغامس بن صقر بن محمد بن فضل قد نجح في انتزاع البصرة من المشعشعين ، في حدود العقد الثاني من القرن السادس عشر ، وكون له إمارة قوية هناك ، مستقلاً بها عن الصفويين.

هذا ، ولابد أن نشير هنا إلى أن الشيخ راشد بن مغامس كان ـ دون شك ـ يراقب ما كان يحدث في بلاد البحرين؛ نظراً لعلاقة ذلك بأمن إمارته

---

(١) عن تحفة المستفيد ١/ ١٢١ ، الدولة الجبرية ، ٦٠٨ ـ ٦٠١. ومما تجدر الإشارة إليه أن غضيب بن زامل قد ورد في قصيدة عامر السمين الذي يمدحه فيها باسم قضيب بن زامل ، وربما يكون هو اسمه الصحيح ، كما جاء في القصيدة النبطية قول الشاعر:

قضيب قوي الباس في حومة الوغى ... حاوي أخصال الثنا والمرتب العالي

ثم قال:

صفوت عقيل هو أسطاها وأفراسها ... وأخيارها همة في كسب الانفالي

هو بالشدايد أزكاها وأكرمها ... بالنفس والآداب والجدان والخالي

راجع: عبد الله الحاتم ، خيار ما يلتقط من شعر النبط ، دمشق ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢م ، جـ١ ، ٤٤ ـ ٤٦.

وبمصالحها الاقتصادية ، وخاصة بأمن قافلة الحج الكبيرة؛ التي كانت تنطلق من البصرة مارة بأطراف بادية البحرين.

ولا بد أن الشيخ راشد رأى أن الظروف مواتية جداً لتحقيق طموحه في توسيع إمارته، وضم بلاد البحرين إليها ، وهو مطمئن إلى حد ما إلى أنه لن يلقى مقاومة تذكر فيما لو حاول ذلك. ويفهم من عبارات الشيخ الجزيري؛ التي يقول فيها بأن الجبور كانوا قد استعانوا بالشيخ راشد بن مغامس (لضعف حالهم) فقوي عليهم[1].

إن الشيخ راشد كان قد دخل في البداية إلى بلاد البحرين بطلب من الجبور ، كحليف لهم ومعين في ضبط الأمن والنظام ، إلا أنه بعد فترة قصيرة استغل ضعفهم ، وارتباك أمرهم ، فانتزع منهم الحسا والقطيف في حدود عامي ٩٣١ـ٩٣٢هـ/ ١٥٢٤ـ١٥٢٥م.

وبذلك تكون إمارة الجبور قد زالت من بلاد البحرين في هذا التاريخ كسلطة سياسية ، وحلت محلها إمارة آل فضل ، وأصبح الشيخ راشد بن مغامس بذلك يلقب بسلطان البصرة والحسا والقطيف[2].

بقي أن نتساءل: لماذا اختفى من مسرح الأحداث اسم الشيخ حميد ابن أخت السلطان مقرن بن زامل؛ الذي كان حاكماً على جزيرة البحرين والقطيف في عهد خاله مقرن ، واشترك إلى جانبه في القتال دفاعاً عن جزيرة البحرين.

ثم أين اختفى اسم الشيخ حسين بن سعيد؛ الذي مر بنا ما قام به من نشاط بعد استشهاد السلطان مقرن؟ هل كان هذان الزعيمان يتزعمان بني خالد من بطون عامر؛ الذين قدر لهم أن يلعبوا دوراً كبيراً في حياة بلاد البحرين ، بعد فترة قصيرة من زوال إمارة الجبور؟

إنها تساؤلات يصعب الإجابة عليها على ضوء معلوماتنا الشحيحة.

---

(١) المصدران السابقان.

(٢) المصدران الأولان ، وكذلك راجع أيضاً نعمان بن محمد بن العراق ، معدن الجواهر بتاريخ البصرة والجزائر ، ٣٤ـ٣٧ ، ٧٢.

نفوذ الجبور منذ زوال إمارتهم حتى ظهور اليعاربة في عمان

إذا كان الجبور قد فقدوا سلطتهم السياسية على جزيرة البحرين أولاً ، وذلك عندما استولى البرتغاليون على الجزيرة والهرمزيون عليها عام ٩٢٧هـ/ ١٥٢١م ، وعلى كل من القطيف والأحساء ثانياً ، باستيلاء الشيخ راشد بن مغامس بن صقر أمير البصرة عليها عام ٩٣١هـ/ ١٥٢٥م ، فإن ذلك لم يعن زوال نفوذهم السياسي تماماً من شرق الجزيرة العربية. وإذا كانت معلوماتنا عن نشاطهم في مناطق عمان وفيرة ، وملفتة للنظر ، فإن هذه المعلومات عن نشاطهم في البحرين والقطيف والأحساء وفيرة جداً ، وهو أمر ربما يعزى إلى مصادرها التاريخية.

إن مما يجب لفت الانتباه إليه ابتداءً ، هو أن جميع زعماء الجبور الذين سوف نشير إلى نشاطهم ينحدرون من نسل هلال بن زامل بن حسين بن ناصر الجبري ، أخي السلطان أجود بن زامل حاكم بلاد البحرين ونجد ، في الربع الأخير من القرن التاسع/ الخامس عشر. إن هذا الفرع من أولاد زامل كان قد انتقلت إليه رئاسة إمارة الجبور في شرق الجزيرة العربية ، منذ أن تولى الإمارة منهم قطن بن علي بن هلال بن زامل في حدود عام ٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م ، لكنهم عجزوا عن الاحتفاظ بالإمارة طويلاً ، حيث انتزعها الشيخ راشد بن مغامس بن صقر عام ٩٣١هـ/ ١٥٢٥م من آخر أمرائهم المدعو غصيب (قضيب) بن زامل بن هلال بن زامل ، وتمتع الشيخ راشد بن مغامس هو وأولاده بحكم القطيف والأحساء ، إضافة إلى البصرة حتى استيلاء العثمانيين على القطيف

عام ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م ، ثم على الأحساء عام ٩٥٩هـ/ ١٥٥٢م[(١)].

ومهما يكن من أمر ، فإننا نجد بأن أولاد هلال الذين تركزت بيدهم زعامة الجبور ، كانوا منقسمين في النصف الثاني من القرن العاشر / السادس عشر إلى كتلتين متباعدتين ، فالكتلة الأولى ومقر زعامتها الرئيس في واحات الأحساء ، وتمد نفوذها على بعض قبائل عمان الشمالي في منطقتي الظفرة والظاهرة ، وزعماء هذه الكتلة هم أولاد قطن بن علي بن هلال بن زامل بن حسين الجبري الثلاثة ، وهم علي وناصر وقطن ، وكان أحد هؤلاء الثلاثة ، والذي قد يكون ـ على الأرجح ـ قد سبق له أن تولى إمارة الجبور خلفاً لوالده قطن ، إلا أنه لم يستطع الاحتفاظ بالإمارة إلا فترة قصيرة ، حيث تنازل عنها لابن عمه غصيب (قضيب) بن زامل بن هلال.

أما الكتلة الثانية من ذرية هلال ، فكان مقر زعامتهم ونفوذهم في عمان الداخل ، وتنحصر زعامتها في أولاد جفير (جيفر) بن هلال بن زامل بن حسين الجبري.

لقد كان طبيعياً أن تتأثر كل زعامة من هاتين الزعامتين بالمحيط الذي تقيم فيه ، وترتبط به بروابط متشابكة؛ لذا نجد تبايناً في مواقفها من الأحداث. وعلى كل حال ، فإن أول نص نملكه عن نشاط الجبور في عُمان بعد زوال إمارتهم يعود تاريخه إلى ٩٦٥هـ/ ١٥٥٧م ، حيث قام زعيمهم محمد بن جفير (جيفر) بن علي بن هلال بن زامل الجبري بالاستيلاء على بهلا ، مقر إمام الإباضية مع بركات بن محمد بن إسماعيل ، مستغلاً بذلك الصراع الذي كان يدور بين الأخير وبين زعيم النبهانيين سلطان بن محسن بن سليمان.

(١) سرحان بن سعيد الأزكوي ، تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة ، تحقيق: عبد المجيد القيسي ، دار الدراسات الخليجية في أبي ظبي ، ١٩٧٦م ، ٧٦ حميد بن زريق ، الفتح المبين المبرهن في سيرة السادة البوسعيديين ، المخطوطة الباريسية ورقة ٩٦ ، المؤلف نفسه ، الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة عمان، القاهرة ١٩٧٨م ، ٨٨ ، عبدالله بن حميد السالمي ، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ، القاهرة ١٩٦١م ، ١/ ٣٨٦ـ٨٧.

والظاهر أن الذي دعا زعيم الجبور محمد بن جفير (جيفر) إلى التحرك ، هو ما رآه من ضعف الإمام الإباضي وفساده ، وانصراف الناس عنه ، في الوقت الذي كانت تتصاعد فيه قوة الزعيم النبهاني؛ بحيث تمكن من الاستيلاء على نزوى[(١)].

حظي زعيم الجبور محمد بتأييد الإباضية وإسنادهم له ، حتى أنه تهيأ له جيش كبير ، استطاع أن ينتزع به نزوى من النبهانيين ، ولقد قويت شوكتهم عندما تولى زعامتهم سليمان بن مظفر بن سلطان ، فطمح بالاستيلاء على نزوى ، ويبدو أن مما قوى نفوذ سليمان بن مظفر النبهاني ، وعزز مركزه في عُمان تحالفه مع زعماء الجبور في الأحساء ، وهم ناصر بن قطن بن علي بن هلال ، وأخوه قطن بن قطن؛ اللذان كان لهما نفوذ كبير في عُمان الشمالي في منطقة الظاهرة ، وهم في الوقت نفسه أبناء عم الشيخ محمد بن جفير (جيفر) بن علي الجبري؛ الذي كان نفوذه يتركز في عُمان الداخل.

تصدى الشيخ محمد بن جفير (جيفر) الجبري لمحاولة سليمان بن مظفر النبهاني الاستيلاء على نزوى ، فدارت رحى معركة طاحنة بين الطرفين في حدود ٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م ، أسفرت عن مقتل محمد بن جفير الجبري. ومما هو جدير بالذكر أن زعيمي الجبور ناصر بن قطن ، وقطن بن قطن قد وقفا على الحياد أثناء القتال بين جيش ابن عمهم محمد وجيش النبهاني ، لكنهما تدخلا لإيقاف القتال بعد مقتل ابن عمهما[(٢)].

إن مسارعة سليمان بن مظفر النبهاني للزواج بأرملة خصمه ، كانت فيما يبدو تهدف إلى كسب ذلك الفخذ من الجبور؛ الذي كان يتزعمه القتيل.

ومهما يكن من أمر ، فإن استمرار ارتكاز سليمان النبهاني على الجبور واضح من خلال قضائه فصل الشتاء من كل عام في البادية الشمالية ، حيث

(١) كشف الغمة ، ٨٣ ـ ٨٤ ، ابن زريق ، الفتح المبين في سيرة البوسعيديين ، القاهرة ١٩٧٧م ، ٢٧٥ ، السالمي ، المصدر السابق ، ١/ ٣٨٨.

(٢) كشف الغمة ، ٨٤ ، ابن زريق ، الفتح المبين في سيرة البوسعيديين ، المخطوطة الباريسية رقم (Arabe-١٨٥٣) ورقة ٩٥.

مراعي حلفائه الجبور في تلك الجهات ، ثم توجهه إلى بهلا في فصل الصيف ، حيث اعتاد الجبور التوغل صيفاً إلى هناك[1].

إن مما تجدر ملاحظته هنا أن مواقف أولاد قطن بن علي بن هلال الجبري ، كانت متفاوتة من الأشخاص والأحداث. ففي الوقت الذي كنا قد عرفنا بأن كلاً من ناصر بن قطن ، وأخيه قطن بن قطن هم حلفاء لسليمان بن مظفر النبهاني ، كان أخوهم الثالث علي الذي ربما كان أكبرهم سناً يقف حليفاً إلى جانب زعيم الإباضيين ، حاكم الرستاق مالك بن أبي العرب ـ جد ناصر بن مرشد ـ وقد نجح تحالفهما الذي ضم إليه قبائل النبهاني[2].

إن الأسئلة التي يمكن أن تتبادر إلى الذهن في منعطف هذه الأحداث هي: هل أن سليمان بن مظفر النبهاني كان مناهضاً للوجود البرتغالي في عُمان؟ ثم هل أن موقف زعيمي الجبور ناصر بن قطن ، وقطن بن قطن بإسناد سليمان مظفر النبهاني ، كان بإيحاء وتشجيع من السلطة العثمانية في الأحساء؛ لإنجاح حركة سليمان النبهاني في توحيد جبهة عُمان الداخلية ، لكي تكون بعد ذلك قادرة على الاندفاع نحو مواقع البرتغاليين على الساحل لإخراجهم منها ، أو على الأقل إزعاجهم ومشاغلتها؟.

وهل أن العثمانيين كانوا قد أدركوا فعلاً أهمية نفوذ الجبور ، والدور الذي يمكن أن يلعبوه لصالحهم في عُمان ، وأنهم قد خططوا للاستفادة منهم في ضرب مواقع البرتغاليين على سواحل عُمان؟ وإذا كان ذلك أمر غير وارد ، فلماذا أغفل العثمانيون هذه الفرصة الجيدة؟ التي كان من الممكن أن ترجح كفة الصراع بينهم وبين البرتغاليين لصالحهم ، في الوقت الذي كانت استراتيجيتهم قائمة أساساً طوال القرن العاشر/ السادس عشر تقريباً ، على تطهير البحار العربية من البرتغاليين ، وكان الخليج العربي أحد الميادين الرئيسة الذي يرتكز عليها تنفيذ هذه الإستراتيجية.

---

(١) كشف الغمة ، ٨٥ـ٨٨: السالمي ، تحفة الأعيان ، ٣٩١ ، ٣٩٣.
(٢) من أجل الاطلاع على بحث موجز عن هاتين الحملتين ، راجع: صالح أوزباران ، الأتراك العثمانيون في الخليج العربي ، ٤٣ـ٥٠.

وما الحملتان البحريتان اللتان قادهما كل من بيري ريس عام ٩٥٦هـ/ ١٥٥٢م وسيدي علي ريس عام ٩٦١هـ/ ١٥٥٤م الأمثال على ذلك[1]. بل إن استيلاءهم على كل من البصرة والقطيف والأحساء ، كان من بين ما يهدف إليه اتخاذها مراكز للوثوب نحو قواعد البرتغاليين في الخليج العربي.

ومهما يكن من أمر ، فإن الإجابة على جميع هذه التساؤلات أو حتى على بعضها بشكل دقيقَ أمرٍ غير ممكن في الوقت الحاضر؛ إذ إن ما نشر حتى الآن لا يسعفنا في الإجابة عنها ، ولا يمكن التوصل إلى صيغة مقنعة إلا بعد إجراء عملية مسح للوثائق العثمانية والبرتغالية المتعلقة بشؤون الخليج العربي ، خلال الفترة المشار إليها.

إن عُمان قد شهدت خلال الربع الأول من القرن الحادي عشر/ السابع عشر ظهور نزاعات قبلية مستمرة ، وصراع بين زعماء النبهانيين أنفسهم ، وكان لا بد للجبور أن يستغلوا هذه النزاعات لكسب مواقع لأنفسهم.

ففي حدود عام ١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م ، قام الشيخ محمد بن محمد بن جفير الجبري بالتحرك من مقره في بلدة السيب على خليج عُمان ، وهو يعتزم الاستيلاء على ميناء صحار بالخديعة ، فتظاهر لأمير المدينة محمد بن مهنا الهديفي بأنه قادم إليه لنجدته ضد خصمه عمير بن حمير الذي يؤازره البرتغاليون ، لكن خطة الزعيم الجبري لم تنجح إلا لفترة قصيرة ، حيث أخرج بعدها من صحار بالقوة[2].

مهما يكن من أمر ، فإن الحديث عن اتجاهات الصراعات القبلية في عُمان خلال الربع الأول من القرن العاشر/ السابع عشر ، وموقف الجبور خلال تلك الصراعات أمر غير ممكن؛ نظراً لقلة المصادر العُمانية ، إضافة إلى عدم تنوعها؛ إذ هي تمثل مدرسة فكرية واحدة ، فكل منها يكرر ما يقوله الآخر

---

(١) الفتح المبين ، ٢٥١ ـ ٢٥٤.
(٢) كشف الغمة ، ٩١ ـ ٩٤ ، الفتح المبين (النسخة الخطية) ورقة ٩٥ ، السالمي ٤٠٠.

تقريباً ، كما أنه يجب أن لا يغيب عن بالنا أن الطبيعة القبيلة الطاغية على المجتمع العُماني ، وعلى أطراف النزاع تجعلها تبدل مواقعها بين حين وآخر ، ولا تلتزم بخط معين في ولاءاتها مدة طويلة .

وعلى كل حال ، فإننا نلحظ أن جميع أفخاذ الجبور ، قد أخذت تعادي النبهانيين خلال هذه الفترة ، فعندما استغاث سكان حصين ينقل عام ١٠٢٧هـ/١٦١٨م بزعيمي الجبور قطن بن قطن وناصر بن ناصر بن قطن ، على إثر هجوم نبهان بن فلاح النبهاني عليهم ، قام زعيما الجبور بإرسال قواتهما بقيادة ناصر بن ناصر بن قطن ، وعلي بن قطن بن قطن ، ومحمد بن محمد بن جفير ، حيث استطاعت تدمير قوات نبهان بن فلاح النبهاني وتشتيتها ، وأصبح الجبور على أثر ذلك يسيطرون تماماً على منطقة الظاهرة في عُمان الشمالي[1] .

لقد عددت المصادر العمانية المناطق الخاضعة لسيطرة الجبور ، وذلك قبيل قيام دولة اليعاربة ، فذكرت أن كلاً من سمد الشأنوابرا ، والغبي ، وبات ، وينقل ، وتؤام (واحات البريمي حالياً) ، ولوى ، ومقنيات ، والأفلاح ، هي تحت حكم زعماء الجبور بكتلتيهما الرئيستين ، وموزعة بين كل من علي بن قطن بن قطن الجبري ، وناصر بن ناصر بن قطن الجبري ، ومحمد بن محمد بن جفير الجبري ، وأخيه سيف بن محمد بن جفير الجبري[2] .

* * *

---

(١) كشف الغمة ، ٩٥ ـ ٩٧ ، الفتح المبين (النسخة الخطية) الورقة ٩٧ : السالمي ، ٢/ ٥ ـ ١١ عائشة السيار ، دولة اليعاربة ، بيروت ١٩٧٥م ، ٤٧ ـ ٤٨ ، جمال الدين زكريا ، دولة بوسعيد في عمان وشرق إفريقية (القاهرة ، ١٩٦٨م) ص ٣٦ .

(٢) كشف الغمة ، ٩٧ ـ ١٠١ ، الفتح المبين (النسخة الخطية) ورقة ٩٩ ـ ١٠١ ، السالمي ٢/ ١٢ ، د. سليمان محمد الغنام ، الوجود البرتغالي في عمان في المصادر العمانية ، مجلة العرب ، (الرياض) ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م ، ج ١١ ـ ١٢ ، ٨١٧ ـ ٨٣٨ خصوصاً ٨٢٩ ـ ٨٣٠.

نشاط الجبور في عهد اليعاربة

إن انتشار الفوضى والاضطرابات في عُمان ، وتحولها إلى دويلات مدن متناحرة ، وعاجزة عن بسط سلطتها على البلاد ، خصوصاً بعد أن تلقوا ضربات قاسية على يد الجبور ، يضاف إلى ذلك أن البرتغاليين الذين كانوا منذ ما يزيد على القرن ، يهيمنون على معظم سواحل عُمان ومنافذها البحرية ، قد أخذ يظهر ضعفهم ، وتزول هيبتهم في النفوس ، بعد أن أخذت معاقلهم في البحرين وهرموز تتهاوى أمام هجوم الصفويين ، وسفن شركة الهند الشرقية الإنكليزية .

إن كل هذه العوامل مجتمعة كانت هيأت الظروف في عُمان ، لظهور زعيم قوي يحرر البلاد من الفوضى والاستعمار الأجنبي ، ويوحدها في سلطة مركزية واحدة ، كما هيأت السكان للالتفاف حول مثل هذا الزعيم . إن الشعوب عادة في مثل الظروف التي كانت تمر بها عُمان في ذلك الحين ، تتطلع إلى زعيم قوي ينقذها من حالة الفوضى والتردي ؛ التي تعاني منه ، وتكون مستعدة لتسليم مقود زمامها إليه ليقودها إلى بر الأمان . ولقد تهيأ لعُمان فعلاً مثل هذا الزعيم ، وهو ناصر بن مرشد اليعربي ؛ الذي بايعته إماماً لقيادتها عام ١٠٣٤هـ/ ١٦٢٤ ـ ١٦٢٥م .

كان لابد للإمام ناصر بن مرشد ، وقد نهض بمسؤولية توحيد البلاد ، والقضاء على مصادر الاضطراب فيها من الاصطدام بالجبور؛ لذا فقد بدأ بعد تثبيت نفوذه في الداخل ، بشن حرب طويلة وقاسية ضدهم .

لم تكن الحرب ضد معاقل الجبور من الأمور الهينة؛ نظراً لشدة بأسهم ، وكثرة أتباعهم من بدو وحضر بما فيهم الهناويون ، على أن المصادر العُمانية

تظهر لنا بأن حصون الجبور في مختلف المناطق ، قد أخذت تتساقط الواحدة بعد الأخرى ، وأن قوات الإمام ناصر بن مرشد هي المنتصرة دائماً.

لكن تمحيص هذه النصوص العُمانية يظهر لنا بأن الحرب كانت سجالاً ، وأن النصر كان يتأرجح بين الطرفين ، ويمكن القول : إن إحراز النصر الراجح ضد الجبور لم يتأت إلا بعد فترة طويلة.

إن تكرار الحديث عن معارك دارت في المواقع نفسها ، التي سبق أن قيل بأنها قد انتزعت من الجبور ، ثم الفترة الطويلة التي استغرقها إحراز النصر عليهم؛ دليل على ما ذهبنا إليه.

ومهما يكن الأمر ، فإن جبهة الجبور قد بدأت تضعف؛ لأنها منذ البداية لم تقف جبهة واحدة ضد الإمام ناصر بن مرشد. ومما زادها ضعفاً مقتل الشيخ سيف بن محمد بن جفير الجبري؛ الذي خلف أخاه في الزعامة.

لقد أدى الأمر بأخوة الشيخ الجبري القتيل وأولاده وكبار أعوانه ، إلى اللجوء إلى البرتغاليين في صحار ، باستثناء سيف بن محمد الجبري؛ الذي كان متحصناً في حصن لوى ، مع عدد كبير من أتباعه.

إن وصول الإمدادات من صعار إلى الشيخ سيف بن محمد بن جفير الجبري ، لم تمكنه من مقاومة قوات الإمام ناصر بن مرشد بن قطن الجبري أكثر من ستة أشهر ، فكانت النتيجة مناعة معاقله[1].

إن نجاح الإمام ناصر بن مرشد في إخضاع كتلة الجبور؛ التي تنحصر مشيختها في أولاد جفير بن علي بن هلال الجبري ، قد جعله فيما يبدو يعيد النظر في علاقاته مع كتلة الجبور؛ التي تستند إلى قاعدتها في الأحساء ، وتنحصر مشيختها في أولاد قطن بن علي بن هلال الجبري. ومن المحتمل أنه قد أراد أن يعاملها على أنها تابعة له ، وليست بحليف الند للند. وهذا قد يكون أحد أسباب مخاصمة زعيم هذه الكتلة ناصر بن ناصر بن قطن الجبري للإمام

(١) كشف الغمة ، ١٠٢ ـ ١٠٣ ، الفتح المبين (النسخة المطبوعة) ٢٧٢ ـ ٧٦ ، الشعاع الشائع ، ٢٠٠ـ٢٢١ ، السالمي ٢/١٢.

ناصر بن مرشد ، بعد أن كان قد حالفه فترة قصيرة.

ومهما يكن من أمر ، فإن الصراع الذي خاضه الإمام ناصر بن مرشد ، ضد الشيخ ناصر بن ناصر بن قطن الجبري كان طويلاً قاسياً. فالشيخ ناصر الجبري كان له نفوذ واسع في منطقتي الظاهرة والظفرة ، وكانت تسانده قبائل كثيرة ، من بينها بنوياس ، ومن قاعدته في الأحساء التي أتت في مأمن من وصول قوات الإمام ناصر بن مرشد إليها ، كان يشن هجماته على عُمان الساحل في كل سنة ، ويحمل ما يستطيع حمله من أموال وإبل ومواشٍ ، ويقتل من يتصدى له ، وأن يحاول في كل هجماته استرجاع ما فقده من حصون في منطقة الظاهرة ، لكنه لم ينجح في ذلك إلا في فترات قصيرة فقط[1].

لقد حاول الإمام ناصر بن مرشد أن يضعف من هجمات زعيم الجبور ناصر بن ناصر بن قطن ، وذلك بهدم حصون الجوف (الجو) في واحات تؤام من الظاهرة ، التي كان يتحصن فيها ، إلا أن ذلك لم يُجْدِ نفعاً؛ لأن زعيم الجبور لجأ إلى محاولة الاستفادة من البرتغاليين في صحار ، فذهب إليهم عندما ضايقته قوات إمام الإباضية ناصر بن مرشد ، كما أنه أخذ يهاجم منطقة الباطنة ، ويعاقب القبائل التي تساند الإمام ناصر هنا كبعض أفخاذ بني خالد الجبورية وبني لام[2].

ويبدو أن زعيم بني خالد في الأحساء محمد بن عثمان المعروف بابن حميد ، قد أخذ هو الآخر يساهم في الهجمات؛ التي كان يشنها الجبور من الأحساء على منطقة الظاهرة ، إلا أنه وقع أسيراً في إحدى هجماته بأيدي قوات الإمام ناصر بن مرشد ، ونقل إلى الرستاق حيث مات في سجنها[3].

لقد لجأ الإمام ناصر إلى اتباع خطط متغيرة من أجل منع هجمات ناصر بن ناصر بن قطن الجبري ، فإضافة إلى الخطط؛ التي استعملها من قبل.

(١) كشف الغمة ، ١٠٣ ـ ١٠٤ ، الفتح المبين ، ٢٧٦ـ٧٧ ، الشعاع الشائع ، ٢٢١ـ٢٢.
(٢) كشف الغمة ، ١٠٤ ، الفتح المبين ، ٢٧٧ ت ٧٨ ، الشعاع الشائع ، ٢٢٣ـ٢٤.
(٣) كشف الغمة ، ١٠٤ـ١١٣ ، الفتح المبين ، ٢٧٧ـ٢٧٩ ، الشعاع الشائع ، ٢٢٣ـ٢٢٥.

لجأ أخيراً إلى إعداد قوة كبيرة ، تكون على استعداد دائم لمواجهة أي هجوم مباغت يقوم به الجبور ، غير أن هذه الخطة كما يبدو لم تكن فعالة ، بالرغم من أن عدداً من المعارك الحامية قد جرت بين الطرفين ، وسقط فيها عدد كبير من القتلى؛ لذا فقد لجأ بعدها إلى مباغتتهم خلال فصل رعي إبلهم ومواشيهم في منطقتي الظفرة والظاهرة ، مستعيناً بقوات من الجبور أنفسهم ، بزعامة عمير بن محمد بن جفير وأخيه علي بن محمد.

لكن هذه الخطة لم تحقق نجاحاً يذكر؛ إذ إنها استفزت ناصر بن ناصر بن قطن أكثر ، حيث أخذ يشن هجمات متكررة وقاسية ، ضد قوات الإمام ناصر بن مرشد في منطقة الظاهرة ، وعلى من يخضع لتبعيته من السكان ، حتى أخاف بغزواته البدو والحضر ، والتجأت البادية من شره إلى البلدان[1].

ويبدو لنا بأن أمير الجبور كان مصمماً على إرغام الزعيم اليعربي على استرضائه بالمال نقداً أو عيناً ، مثلما كان يفعل من سبقه من حكام وأمراء عُمان ، إذ اعتادوا منذ ما يزيد على القرن ونصف القرن في مثل هذه الأحداث على أن يدفعوا للجبور سنوياً جزءاً معيناً من المال ، كرسم حماية مقابل عدم تعرضهم للمزروعات في عُمان.

لقد كان ناصر بن مرشد يرفض الإقرار لهم بهذا الحق ، بل ويطمح لإخضاعهم كلياً لنفوذه ، وأمير الجبور ناصر بن ناصر بن قطن يقاومه كل المقاومة ، ويشعره في كل مرة بسطوة الجبور ، وقوة شوكتهم ، حتى أرغمه أخيراً ولفترة ، على أن يسترضي الجبور بالمال.

ومهما يكن من أمر ، فإن توقف هجمات زعيم الجبور ناصر بن ناصر بن قطن على عُمان ، ثم النهاية التي انتهى إليها ، هما مسألتان يكتنفهما الغموض.

ففي الوقت الذي يذكر فيه صاحب (كشف الغمة) بأن زعيم الجبور هذا كان قد انسحب إلى الأحساء ، بعد أن أحرز انتصاراً كبيراً على قوات الإمام ناصر بن

(١) كشف الغمة ، ١٠٥ ، الفتح المبين ، ٢٧٩ ، الشعاع الشائع ، ٢٢٥ـ٢٦.

مرشد ، في آخر هجوم شنه على عُمان لم يسمع به بعدها ، فإن ابن رزيق من الجهة الأخرى يذكر بأن جيش الإمام ناصر كان هو المنتصر ، وأنه قد أفنى قوات الجبور في آخر هجوم شنوه على عُمان.

وأما عن مصير زعيمهم ناصر بن ناصر بن قطن ، فإن ابن رزيق قد سكت عنه في الفتح المبين ، لكنه ذكر في الشعاع الشائع بأنه قد قتل مع بقية أتباعه في المعركة ، وأنه بمقتل ناصر بن ناصر بن قطن الجبري عم الأمان والسرور عمان[1].

إن مما لا شك فيه أن انحسار نشاط الجبور ، قد جعل ناصر بن مرشد اليعربي يتنفس الصعداء؛ لزوال التهديد المستمر لنفوذه ، والمنبعث من ناصر بن ناصر بن قطن الجبري أخطر خصومه ، وأصلبهم عوداً ، وأكثرهم نشاطاً ، وكان بديهياً الآن أن يلقي ناصر بن مرشد بكل ثقله في مواجهة البرتغاليين ، حتى نجح أخيراً في انتزاع معظم مواقعهم على الساحل العماني ، باستثناء مسقط ومطرح[2] ، والتي ترك أمر تحريرها بعد وفاته عام ١٥٠٩هـ/ ١٦٠٩م إلى ابن عمه سلطان بن سيف ، الذي خلفه في قيادة عمان.

مهما يكن من أمر ، فإن وفاة أمير الجبور ناصر بن ناصر بن قطن الجبري ، قد وضعت حداً فيما يبدو للجهات؛ التي كانت تتعرض لها عُمان من ذلك الفخذ من الجبور؛ الذي اتخذ زعامته في الأحساء مقراً له.

إن الحديث عن نشاط هذا الفخذ ، لم يختف من عُمان فحسب ، بل اختفى فيما يبدو من جميع شرق الجزيرة العربية أيضاً باستثناء ثلاث روايات ورد ذكرهم فيها. فقد ذكر ابن بشر بأن زعيم الجبور المدعو مهنا الجبري ، قد اشترك مع زعيم بني خالد براك بن غرير بن عثمان في انتزاع الأحساء والقطيف

(١) كشف الغمة ، ١٠٥ ، الفتح المبين ، ٢٧٩ ، الشعاع الشائع ، ٢٢٦.

(٢) عنوان المجد في تاريخ نجد ، (مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض ، دون تاريخ) ، ج١/ ٦٥ ، وكذلك راجع: إبراهيم بن عيسى ، تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ، تحقيق: حمد الجاسر ، الرياض ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م ، ص٦٣.

من العثمانيين عام ١٠٨٠هـ/ ١٦٦٩م ، بعد أن طردوا آخر ولاتها عمر باشا(١) .

إن نص ابن بشر أعلاه يحتاج إلى تصحيح وتوضيح؛ نظراً لتكرار تداوله من قبل البعض دون تمحيص . كانت ولاية الأحساء منذ نهاية الربع الأول من القرن الحادي عشر/ السابع عشر ، قد استقلت تقريباً عن الدولة العثمانية في عهد واليها علي باشا ، ولم يبقَ له الارتباط إلا اسمياً بالدولة العثمانية ، ومثل ذلك كانت ولاية البصرة في عهد واليها أفراسياب باشا الديري ، لقد قام حاكم البصرة حسين باشا ، حفيد أفراسياب باشا في حدود عام ١٠٧٥هـ/ ١٦٦٤ ـ ١٦٦٥م بالاستيلاء على ولاية الأحساء والقطيف ، وطرد حاكمها محمد باشا حفيد علي باشا ، ونصب أحد أعوانه كان آخرهم عمر الحليبي .

وهكذا أصبحت هذه الولاية من ممتلكات حاكم البصرة ، لكن الدولة العثمانية التي كانت منذ مدة طويلة تترقب الفرصة لإعادة سيطرتها المباشرة على البصرة ، قد رأت أن الظروف العامة قد أصبحت مهيأة في هذه الفترة لإنهاء انفصال البصرة ، وقد نجحت في ذلك عام ١٠٨٠هـ/ ١٦٦٩م ، واستغل زعيما الجبور وبني خالد الجبورية حراجة مركز حسين باشا الديري محاصراً القطيف ، فاضطر حسين باشا إلى سحب حاكمها منها ، وهو عمر باشا الحليبي ، والذي قام بدوره بتسليم القطيف إلى زعيم بني خالد براك بن غرير . أما الأحساء فإن حسين باشا كان قد سلمها إلى عيسى بن علي ، وهو ابن أخ محمد باشا حاكمها السابق ، لكن أمير بني خالد طرده منها(٢) .

يتضح لنا مما أوردنا أعلاه بأن زعيمي الجبور وبني خالد لم ينتزعا الأحساء مباشرة من الترك العثمانيين ، وأن عمر باشا لم يكن والياً «تركياً» وإنما كان من أمراء حاكم البصرة المستقل حسين باشا بن علي باشا الديري؛ الذي ضم الأحساء لسلطته . ما معنى هذا ، هل حسين باشا عربي؟ إن الإشارة الثانية التي ورد فيها ذكر الجبور ، هي الرواية التي انفرد بذكرها النبهاني ، والتي جاء فيها :

(١) راجع : عباس العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، بغداد ١٩٥٣م ، ٥/ ٧٤ ـ ٧٧ ، ٨٧ .
(٢) التحفة النهائية في تاريخ الجزيرة العربية ، القاهرة ، ١٣٤٢هـ ، ص ١٠٩ ـ ١١٢ .

إن أحد شيوخ الجبور كان قد استقل في حكم جزيرة البحرين بعد عام ١١١٠هـ ـ ١٦٩٩م بقليل ـ وإنه استمر في حكم الجزيرة حتى انتزعها منه الشاه عباس الثاني الصفوي ، وذلك حينما أرسل ضده حملة بقيادة معين الدين الغالي ، وبإشراف والي فارس الله وردي خان ، حيث قتل الشيخ الجبري خلال ذلك(١) .

إن ما أورده النبهاني من معلومات تتعلق بحكم الشيخ الجبري في جزيرة البحرين ، تفتقر إلى المصادر التي تعززها أو تنفيها . وكل ما نعرفه هو أن الشاه عباس الأول (الكبير) كان قد كلف نفس القادة الذين ذكرهم النبهاني أعلاه ، باحتلال البحرين ، وأنهم قد قاموا بما كلفوا به عام ١٠١٠هـ/ ١٦٠١م(٢) ، إن هذا الأمر يحملنا على القول بأن من المحتمل أن يكون هناك أخطاء فيما أورده النبهاني ، حول حكم الشيخ الجبري في البحرين .

إن الإشارة الثالثة والأخيرة المتعلقة بالجبور هي أنه حين أشير إلى مقتل الشيخ ثويني بن عبد الله شيخ المنتفق ، خلال حملته ضد السعوديين سنة ١٢١٨هـ/ ١٧٩٦م؛ إذ قيل : إن قاتله هو من عبيد جبور بني خالد(٣) .

مهما يكن من أمر ، فإن النص المذكور قد يفيدنا في القول بأن اسم الجبور في مناطق الأحساء القطيف ، قد اختفى تحت اسم بني خالد؛ الذين أصبحت لهم الزعامة القبلية الأولى في هذه المنطقة منذ النصف الثاني من القرن الحادي عشر/ السابع عشر .

فقد وصف الشاعر الأحسائي أحمد بن المشرف التركيب القبلي لبني خالد فقال :

(١) عباس إقبال ، مطالعتي درباب بحرين وجزاير وسواحل خليج فارس ، طهران ، ١٣٢٨هـ/ ١٩٤٩م ، ٧٧ف . إسكندر تركمان ، تاريخ عالم آراي عباس . طهران ١٣٥٠هـ ، جلد دوم ٦١٤ ـ ١٦ .
(٢) محمد رسول حاوي كركوكلي ، دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء ، بيروت ١٩٦٣م ، ٢٠٤ ـ ٢٠٥ . ابن بشر ، عنوان المجد ، ١/ ١٠٨ .
(٣) حمد الجاسر ، تاريخ الكويت ، مجلة العرب (الرياض) ج١١ السنة الثانية ، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م ، ١٠٠٧ ـ ١٠٥٢ خصوصاً ص ١٠٣٣ .

ولا تنسَ جمع الخالدي فإنهم   قبائل شتى من عقيل بن عامر[1]

نخلص إلى القول بأن حديثنا سوف يقتصر ، بعد ما ذكرناه على تتبع نشاط ذلك الفخذ من الجبور الذي تنحصر زعامته في ذرية جفير بن علي بن هلال بن الجبري؛ الذي استقر في عمان الداخل ، وأخذ يشكل جزءاً من مجتمعها القبلي ، وعرفوا في بعض الأحيان باسم الهلاليين .

نشاط الجبور في عهد البوسعيديين:

لقد شهدت عُمان خلال العهد الأخير من حكم اليعاربة ١٠٣٥هـ/ ١٦٢٤م ـ ١١٥٦هـ/ ١٧٤٣م صراعاً قبلياً حاداً اتخذ شكل حروب أهلية؛ إذ انتظمت القبائل المنحدرة من أصل يماني في جبهة واحدة تقريباً أطلق عليها الهناوية ، نسبة إلى قبيلة بني هناء ، في حين أن القبائل المنحدرة من أصل نزاري ، اتحدت في جبهة عرفت بالغافرية نسبة إلى قبيلة بني غافر ، وكان الجبور أقوى القبائل الغافرية[2] .

إن العامل المذهبي فيما يبدو ، كان قد لعب دوراً ضمن بقية العوامل في هذا الانشطار القبلي في المجتمع العماني؛ إذ إن معظم القبائل الهناوية تقريباً كانت على المذهب الإباضي ، في حين أن معظم القبائل الغارية تقريباً سنية المذهب ، إن مما زاد في تردي أوضاع عُمان أيضاً . هو تعرضها لغزوات خارجية فيما بين عام ١١٤٩هـ/ ١٧٣٧م وعام ١١٥٧هـ/ ١٧٤٤م حيث استغل حاكم إيران الجديد نادر شاه الأفشاري اضطراب أوضاعه عُمان ، واستنجاد

(١) حول فترة الفوضى والفتن هذه ، راجع : كشف الغمة ، ١١١ ـ ١٢٣ ، الفتح المبين ، ٣٠١- ٣٢٧ ، السالمي ، ٢/ ١٢٥ ـ ١٢٣ ، صالح محمد العابد ، دور القواسم في الخليج العربي ، بغداد ، ١٩٧٦م ، ٤٣ ـ ٤٥ .

J.B. Kelly. Britain and the Persian Gulf, 1759 - 1880 London, 1968. P.4: Miles, Op. Cit, 238 - 52.

(٢) حول الحملات الإيرانية وظروف الصراع في عمان خلال ذلك ، راجع : كشف الغمة ، ١٣٥ ـ ١٤٦ ، الفتح المبين ، ٣٢٨ ـ ٣٤٦ عبد الأمير محمد أمين ، القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر ، بغداد ١٩٦٦م ، ١٢ ـ ٢١ ، صالح العابد ، المصدر السابق ، ٤٥ ـ ٤٩ .

سيف بن سلطان ، أحد أطراف النزاع في عُمان به ، لكي يقوم بتحقيق حلمه في السيطرة على الخليج العربي ، وذلك باحتلال عُمان[1] .

لم تجد عُمان زعيماً ينتشلها من حال التمزق الداخلي ، ويواجه خطر الغزو الإيراني الأفشاري ، وإذا كان الإمام ناصر بن مرشد اليعربي قد برز في عُمان في ظروف شبيهة بهذه الظروف ، فإن سعيد بن أحمد البوسعيدي حاكم صحار ، كان هو الزعيم الذي ارتضته عُمان قائداً يتصدى لحالة التمزق الداخلي الذي تعيشه ، وليواجه الغزو الخارجي ، فبايعته البلاد بالإمامة عام ١١٥٦هـ/ ١٧٤٣م ، فكان بذلك مؤسس سلالة البوسعيديين في عُمان[2] ، ومنتشل عمان من الفوضى الداخلية والسيطرة الأجنبية .

إن نشاط ودور الجبور في عهد البوسعيديين متميز وواضح ، بعكس الحال في عهد اليعاربة ، فقد وثق زعماء الجبور علاقتهم بأحمد بن سعيد منذ بداية حياته السياسية ، حينما ولاه الإمام اليعربي سيف بن سلطان حكم مدينة صحار وما يتبعها .

إن ابن رزيق قد أشار إلى وجود هذه الصلة المبكرة بينهما ، حينما قال بأنه عندما تولى أحمد بن سعيد بن صحار (قصدته شيوخ الجبور) فرفع منزلتهم ، وأحسن إليهم[3] ، وقد أخلص الجبور لأحمد هذا ، حتى أنه عندما غضب عليه الإمام اليعربي سيف بن سلطان ، وأبحر إلى صحار ، وهو يعتزم الانتقام من أحمد بن سعيد حاكمها ، وركب شيوخ الجبور سفنهم لإيقاف تطور الأزمة بين الاثنين ، حتى نجحوا في إصلاح ذات البين بينهما ، بعد أن تكفلوا بأحمد بن سعيد .

لقد توثقت العلاقة بين حاكم صحار أحمد بن سعيد ، وبين الجبور بزواجه من ابنة زعيمهم الشيخ جبر بن محمد الجبري .

(١) راجع كشف الغمة ، ١٣٨ ـ ١٤٩ . الفتح المبين ، ٣٢٩ ـ ٣٥١ ، الشعاع ، ٣٤٥ .
وحول البوسعيد راجع : جمال زكريا ، دولة بوسعيد في عمان وشرق الجزيرة العربية .
(٢) الفتح المبين ، ٣٣٠ .
(٣) الفتح المبين ، ٤٦٢ .

إن بروز شخصية أحمد بن سعيد ، خلال ولايته لصحار ، ربما يعزى بعض أسبابه إلى التفاف حلفاء أقوياء حوله ، أخلصوا له وهم الجبور؛ الذين بقوا أيضاً على صلة وثيقة به بعد تولية الإمام. على أن تعدد أولاد الإمام أحمد بن سعيد من عدة نساء ، كان سبباً في ظهور نزاع بين الإمام وبعض أولاده ، خصوصاً مع ولديه سلطان وسيف؛ اللذين كان الجبور أخوالهما ، فقد كان كل من سلطان وسيف يخشيان أن يتولى الإمامة بعد أبيهما أخوهم الأكبر سعيد؛ لذا فقد لجأا عام ١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م إلى التمرد ضد والدهما ، واستوليا على حصون مسقط ، ويساندهما بقوة خالهما الشيخ جبر بن محمد الجبري؛ الذي ربما كان له دور رئيس في دفع سلطان وسيف إلى التمرد.

وعندما قام الإمام أحمد بن سعيد بتشديد الحصار على المتمردين في حصون مسقط ، سارع شيخ الجبور محمد الجبري لمغادرتها إلى جلفار (رأس الخيمة) واستنجد هناك بشيخ القواسم صفر بن رحمة الهولي. وتمكن شيخا الجبور والقواسم من إعداد جيش بلغ تعداده ٣٠ ألف مقاتل زحفوا به نحو الرستاق ، عاصمة الإمام أحمد ، حيث فرضوا الحصار عليها عام ١٧٨١م ، الأمر الذي أثار فزع الإمام أحمد بن سعيد ، فلم يكن أمامه غير رفع الحصار عن حصون مسقط ، والتصالح مع ولديه سلطان وسيف؛ لكي يتفرغ لصد المهاجمين لعاصمته.

لكن شيخ الجبور عندما علم بأن أحمد بن سعيد قد رفع الحصار عن ولديه ، وتصالح معهما؛ أدرك بأن خطته الرئيسة قد نجحت ، فرفع الحصار عن الرستاق تحاشياً من الصدام مع الإمام أحمد ، وقد تابعه في ذلك الشيخ ابن رحمه الهولي؛ الذي انسحب إلى مواقعه في الشمال.

مهما يكن من أمر ، فإن تولِّي سعيد بن أحمد بن سعيد للإمامة ، قد تميز بابتعاد عرب الشمال النزاريين عنه؛ الذين كان للجبور نفوذ علني كبير عليهم ، وعلى الرغم من ذلك لم تظهر مجابهة تذكر خلال حكمه بينه وبين إخوته سلطان ويوسف ، إلا أن أنه بمجيء حمد بن سعيد بن أحمد إلى السلطنة في عُمان

خائفاً لوالده الذي تنازل عن السلطة السياسية له ، قامت محاولة لإقامة علاقة حسنة بينه وبين زعماء الجبور.

إن هذه العلاقة الحسنة لم تستمرّ طويلاً؛ إذ إن الجبور وقفوا إلى جانب قريبهم سلطان بن أحمد؛ الذي ثار ضد ابن أخيه السلطان حمد بن سعيد ، وعلى الرغم من أن الثائرين قد حققوا انتصارات هامة في هجومهم على مطرح ، إلا أنهم انسحبوا أخيراً ، وتراجع سلطان بن أحمد إلى الشمال.

على إثر وفاة حمد بن سعيد بن أحمد عام ١٢٠٦هـ/ ١٧٩٢م قام عمه سلطان بن أحمد بالاستيلاء على السلطنة في عُمان ، مستعيناً بأخواله الجبور ومؤازرتهم ، وظلوا مقربين إليه كثيراً طول فترة حكمه ، وكان شيخهم محمد بن ناصر الجبري موضع ثقته التامة ، حتى إن سلطان بن أحمد عندما اعتزم القيام برحلته البحرية إلى البصرة عام ٢١٩هـ/ ١٨٠٤م ، والتي انتهت بمقتله ، جعل الشيخ محمد بن ناصر الجبري وصياً على ولديه سليم وسعيد ، كما أصبح الشيخ الجبري في السنة نفسها والياً على مسقط.

على إثر مقتل سلطان بن أحمد البوسعيدي خلفه في السلطنة ابنه سعيد؛ الذي كان يشعر بأنه بأمس الحاجة إلى الجبور لإسناده أمام الأخطار المحدقة بملكه ، خصوصاً بعد تغلغل قوات السعوديين في عُمان الشمالي بقيادة سليم بن بلال الحري ـ الحريق في المصادر العمانية ـ عام ١٢١٨هـ/ ١٨٠٣م ، والذي قيل: إن نفوذهم قد وصل أرض بني عامر ، ربما كان يقصد بها واحات تؤام (البريمي).

مهما يكن من أمر ، فإن السلطان سعيد بن سلطان أصبح يعتمد كلياً في تسيير أمور دولته على أمير الجبور الشيخ محمد بن ناصر الجبري ، حتى قال ابن زريق بأن سعيداً قد أشرك شيخ الجبور هذا «في الحل والعقد».

إن الدارس لفترة حكم سعيد بن سلطان ، لن يخطئ بالقول: إنه لولا الدعم الكبير ، والمؤازرة الفعالة التي قدمها الجبور ، برئاسة زعيمهم محمد بن ناصر الجبري ، لما استطاع سعيد بن سلطان الصمود طويلاً أمام الأخطار الداخلية والخارجية التي تعرض لها ملكه ، على أنه يمكن أن نضيف أيضاً

القول بأن زعيم الجبريين قد استفاد هو الآخر في تقوية نفوذه.

لقد كان من بين الأخطار الكبيرة التي تعرض لها سعيد هو تمرد عمه، حاكم صحار، قيس بن أحمد، وطموحه في انتزاع السلطة، وكان قيس يشعر في الوقت نفسه بأن خططه لن تتحقق ما دام الشيخ محمد ناصر الجبري يقف إلى جانب السلطان سعيد بن سلطان، ولكي يتم الاستيلاء على مسقط لا بد من منع الجبور من نجدتها.

وكانت مواطن الجبور ومعاقلهم في سمائل، حيث كانوا يستطيعون الوصول إلى مسقط بسرعة نسبياً عبر وادي سمائل؛ لذا فإن قيس بن أحمد في الوقت الذي بدأ هجومه على مسقط، عمل على تدمير قوة الشيخ محمد بن ناصر الجبري في سمائل؛ ليضمن نجاح خطته في الاستيلاء على مسقط، إلا أن هذه الخطة قد باءت بالفشل، بل إنها استفزت الجبور كثيراً، وكانت وبالاً على قيس.

فقد قام الشيخ محمد بن ناصر الجبري بالعمل على حشد قوات كبيرة من القبائل النزارية في منطقة الظاهرة وتؤام، حتى بلغت قوته اثني عشر ألف مقاتل. فتوجه بهم مسرعاً نحو قوات قيس بن أحمد الذي كان لا يزال هجومه مستمراً على حصون مسقط، وحقق نجاحاً ملحوظاً في ذلك، لكن وصول قوات الشيخ محمد بن ناصر الجبري غير ميزان القوى لصالح السلطان سعيد بن سلطان، وحاقت الهزيمة بقيس وقواته.

ولقد كان من نتائج هذه المعارك بروز قوة نفوذ الشيخ محمد بن ناصر الجبري، وكثرة أتباعه، وقدرته على تغيير سير الأحداث في عمان، حتى قيل لسعيد بن سلطان، على سبيل الإشارة إلى كثرة أتباع حليفه الشيخ محمد الجبري، «من يكن هؤلاء أتباعه لن يحتاج إلى قوم آخرين».

إن الخطر الشديد الثاني الذي تعرض إليه ملك سعيد بن سلطان، ووقف فيه الجبور إلى جانبه، هو خطر ابن عمه بدر بن سيف بن أحمد البوسعيدي، خصوصاً بعد تحالفه مع السعوديين على إثر زيارته للدرعية، وقبوله الالتزام بآراء حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية.

وقد التف أنصار ومؤيدو السعوديين كافة في عُمان حول بدر بن سيف، فأصبح بذلك قوة يخشى خطرها تماماً على ملك سعيد بن سلطان. وتجاه الخطر الذي أخذ يتهدد سعيد بن سلطان من بدر بن سيف، وعجزه عن تدميره في المناوشات؛ التي حدثت بين الطرفين أو انتزاع ما بيده من مدن وقلاع، لجأ سعيد إلى تدبير أمر اغتياله بالاستعانة بزعيم الجبور الشيخ محمد بن ناصر الجبري، فتم له ما أراد عام ١٨٠٧م، وانتهى بذلك واحداً من أخطر خصومه.

التعاون بين الجبور والسعوديين:

لقد وجد السعوديون أنفسهم مضطرين إلى أن يفعلوا مثلما فعل قبلهم أصحاب القوة والنفوذ، وذلك بمد نفوذهم إلى عُمان الشمالي بعد نجاحهم في إحكام نفوذهم على واحات القطيف والأحساء. والواقع أن السعوديين منذ أن نجحوا عام ١٣١٤هـ/ ١٧٩٩م في عقد معاهدة مع القواسم، واعتراف بني نعيم وبني ياس في السنة نفسها بتبعيتهم لهم، أصبح لهم نفوذ واسع ودور لا يمكن تجاهله في صنع الأحداث في عُمان.

وقد اتخذ السعوديون من واحات البريمي قاعدة رئيسية لنشاطهم في عُمان؛ نظراً لما تتمتع به هذه الواحات من موقع استراتيجي ممتاز، يسهل الانطلاق منها نحو كل من صحار وخورفكان وعمان الداخل وأبو ظبي.

لقد كان من مظاهر اتساع نفوذ السعوديين في عُمان، موالاة وتبعية عدد كبير من القبائل والزعماء لهم، وكان من بين هذه الزعامات الهامة بدر بن سيف البوسعيدي؛ لذا فإن قيام السلطان سعيد بن سلطان البوسعيدي بقتله أثار سخط واستياء السعوديين كثيراً؛ لأن اغتياله كان يمثل تحدياً لهم. ولقد كان السلطان سعيد فيما يبدو، قد وضع في حسبانه منذ البداية احتمالات استفزاز السعوديين بعمله هذا؛ لذا فقد ألصق تهمة القتل بشيخ الجبور محمد بن ناصر الجبري.

والذي يبدو لنا أن خطة سعيد بن سلطان كانت تقضي منذ البداية التخلص من الزعيمين الجبري، وبدر البوسعيدي بحجر واحد، بعد أن تعاظم نفوذهما في عُمان كثيراً. إن اختيار السلطان سعيد لقلعة الشيخ الجبري نفسه؛ لاستدراج

بدر إليها ، ومن ثم قتله فيها بحضور بضعة أفراد من حرسه الخاص فقط ، إضافة إلى الشيخ الجبري ، لكي يتهم بالاشتراك بشكل رئيس بعملية القتل ، إن لم يكن اتهامه بالقيام بهذا العمل شخصياً.

صحيح أن الشيخ الجبري سهل نجاح خطة قتل بدر ، لكن الخطة أساساً كانت من تدبير السلطان سعيد ، وتنفيذه. إن سعيداً فيما يبدو كان يريد أن يتحاشى بذلك غضب السعوديين ، وسخط أتباعهم من القبائل النزرية ، وكذلك كي يفقد الشيخ الجبري النفوذ ، والمكانة التي يتمتع بها بين تلك القبائل ، وبذلك يسهل لسعيد بن سلطان تنفيذ المرحلة الثانية من خطته ، وهي التخلص من الشيخ الجبري نفسه من دون أن يتوقع قيام مقاومة عنيفة له.

مهما يكن من أمر ، فإن السلطان سعيد بن سلطان بعد أن أشاع بأن الشيخ الجبري هو القاتل قام باستدراجه ، ثم ألقى به في السجن في خريف عام ١٨٠٧م وانتزع منه قلعته سمائل ، فكان هذا الحادث نقطة تحول في العلاقات ما بين الشيخ محمد بن ناصر الجبري ، والسلطان سعيد بن سلطان البوسعيدي.

لم يلبث الشيخ الجبري في السجن إلا فترة قصيرة ، حيث انصاع خصمه لضغوط عائلية قوية ، وذلك بتدخل عمة السلطان موزة بنت السلطان أحمد ، فأخرجه من السجن ، وحدد مكان إقامته ، ربما لكي تسنح الفرصة بعدها للفتك به ، لكن الشيخ محمد الجبري تمكن من مغادرة مكان إقامته بسرعة إلى قاعدته سمائل ، حيث غادرها بعد فترة قصيرة إلى الظاهرة ، وسط توديع حافل من أكابر زعماء النزارية ، وحلفائهم اليمانية ، من دون أن يخبرهم بالجهة التي سوف يقصدها ، بل اكتفى بالرد على تساؤلاتهم «إن الفرج قريب».

غادر زعيم الجبور منطقة الظاهرة ، بعد فترة ، متوجهاً إلى الدرعية عاصمة الدولة السعودية ، حيث كانت شهرته قد سبقته إليها ، وهناك استقبله الأمير سعود بن عبد العزيز بالترحاب ، وإكرام وفادته.

ويمكن القول بأن لجوء زعيم الجبور إلى الدرعية ، وتحوله إلى سند قوي للسعوديين ، يجب أن ينظر إليه على أنه نقطة تحول في تاريخ النفوذ السعودي في عُمان. وقد وجد الأمير سعود بن عبد العزيز في لجوء الشيخ محمد بن

ناصر الجبري إليه ، فرصة لإعداد حملة قوية إلى عُمان ، حيث أسند قيادتها إلى قائده الشهير مطلق بن محمد المطيري.

تخلف زعيم الجبور فترة من الزمن في الدرعية ، ولم يرافق حملة المطيري ، ويبدو أن ذلك كان لغرض تلقي بعض الدروس الدينية ، واستيعاب آراء الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأفكاره الإصلاحية ، ويفهم من كلام المؤرخ العماني السالمي بأن الشيخ محمد الجبري قد استوعب هذه الدروس الدينية؛ إذ قال عنه: «إن المشهور عند العامة أنه كان وهابياً».

التحق الشيخ محمد بن ناصر الجبري بمطلق المطيري في عُمان ، وأخذا يعملان بالتنسيق فيما بينهما على القيام بهجوم كاسح ، على مناطق مختلفة من عمان ، وقد أخذت أعداد كبيرة من القبائل تلتف حولهما ، وتشكلت بذلك جبهة سعودية قوية في عُمان.

شملت هجماتهم الجديدة كلاً من صحار ومدن وقرى من عُمان الداخل ، كان من بينها نزوى وسمايل ، وحققوا في جميع هجماتهم انتصارات كبيرة ، ولم تفلح الهجمات المعاكسة؛ التي قام بها سعيد بن سلطان البوسعيدي وقريبه عزان بن قيس حاكم صحار ، في إيقاف اندفاع القوات الموالية للسعوديين.

وعلى إثر الانتصارات الكاسحة التي حققتها القوات السعودية ومؤيدوهم بقيادة مطلق المطيري ، والشيخ محمد الجبري ، شعر سلطان عُمان سعيد بن سلطان بأن الموقف قد خرج من يديه؛ لذا فقد لجأ إلى حكام إيران متوسلاً المساعدة منهم ، واضعاً مصير بلاده بين أيديهم ، مثلما فعل بعض من قادة عُمان الذين سبقوه.

وقد أمده حكام إيران بثلاثة آلاف مقاتل ، أبحروا من بندر عباس ، ونزلوا في ميناء بركة عام ١٨١٠م ، فما كان من شيخ الجبور محمد بن ناصر الجبري إلا أن سارع بقواته من سمائل إلى البريمي ، حيث التقى بالقائد السعودي مطلق المطيري ، فزحفوا سوية نحو قوات الإمام سعيد ، ومن معه من العجم في أزكي ، وجرت معركة حامية بين الطرفين ، حققت فيها قوات الجبهة السعودية

انتصاراً كبيراً ، وقتلوا أعداداً كبيرة من قوات العجم ، وأرغموا الباقين على الفرار.

ولقد كانت شخصية شيخ الجبور القيادية بارزة في إدارة هذه المعارك ، والغريب أن الباحث الإنكليزي كيلي يذكر بأن الشيخ محمد بن ناصر الجبري كان قد اندحر ، هو وقواته أمام العجم ، وإن الفوز كان للأخيرين. إن هذا القول يناقض ما ذكره ابن رزيق المؤرخ العماني المعاصر للأحداث ، والذي تنقل عنه عادة المصادر الأوروبية؛ لذا فإن من المحتمل جداً أن يكون كيلي قد وقع في خطأ نتيجة الالتباس ، وعدم التحري الدقيق في هذه الواقعة.

مهما يكن من أمر ، فإن النجاحات المتوالية التي حققها السعوديون في عمان خلال عشر سنوات ، كانت كافية لأن تجعل منهم القوة الرئيسة والمهابة جداً ، وأن تخضع لسيطرتهم مناطق واسعة من البلاد ، وأن يدين بالتبعية السياسية والدينية عدد كبير من السكان فيها ، خاصة في المناطق الشمالية والداخلية.

وبوصول ولدي الأمير سعود بن عبد العزيز المفاجئ إلى البريمي ، وهما الأمير تركي وفيصل ، قام مطلق المطيري بتسليم القيادة لهما ، فساروا بقوات صغيرة ومعهم قوات راشد بن حميد النعيمي شيخ العجمان ، لمهاجمة بعض الحصون على ساحل عُمان ، فحاقت بهم الهزيمة ، الأمر الذي دعا مطلق المطيري إلى الطلب من شيخ الجبور محمد بن ناصر الجبري بسرعة إنجادهما ، فلبّى الطلب حيث هاجم ميناء بركة ، وكذلك مطرح ، واستولى عليهما ، ثم هاجم مسقط نفسها.

على إثر هذه الانتصارات أصبح الطريق ممهداً للقوات السعودية؛ التي تكاثرت لتوسيع نطاق هجومها ، حيث سيطروا على طبري وصور على الساحل ، واستمروا في زحفهم بمحاذاة الساحل ، حتى وصلوا إلى رأس الحد ، ثم منطقة جعلان. وبعد هذه الانتصارات الواسعة عادت القوات السعودية ، وقوات الشيخ الجبري إلى مراكزها في البريمي وأزكي.

إن من الطبيعي أن يحاول السلطان سعيد بن سلطان البوسعيدي انتهاز أية

بارقة أمل ، يمكن أن تساعده على التخلص من النفوذ السعودي الواسع في عُمان؛ لذا فإنه وجد في خروج حليف السعوديين سلطان بن صقر القاسمي الهولي عليهم ، فرصة للتعاون معه ضدهم ، لكن القائد السعودي مطلق المطيري عندما علم بذلك ، سارع لضرب هذا التحالف بالتعاون مع الشيخ محمد ناصر الجبري ، بجيش يضم حوالي الأربعين ألف مقاتل هاجموا بها ميناء صحار ، وأرغموا حاكمها عزان بن قيس على الخضوع للسعوديين ، ثم توجهوا بعد ذلك نحو مسقط ، فأثاروا خوف السلطان سعيد؛ الذي سارع إلى خيمة القائد السعودي مطلق المطيري؛ ليعلن خضوعه للدولة السعودية ، وليقوم بدفع مبلغ كبير من المال؛ رمزاً لهذه التبعية.

وبعد أن أنجزت قوات الجبري والمطيري هذه الانتصارات الواسعة عادت إلى مواقعها ، لكن مطلقاً المطيري لم يبقَ بعدها في مسقط فترة طويلة ، بل غادرها إلى الدرعية عام ١٢٢٥هـ/ ١٨١٠م وسلم قيادة القوات السعودية في عُمان إلى القائد الجديد عبد العزيز بن غردقة.

عودة العلاقات بين سلطان عمان وشيخ الجبور:

لقد تعرض السعوديون ابتداءً من عام ١٢٢٨هـ/ ١٨١٣م ، إلى نكسات قاسية لا في عُمان فحسب ، بل في كل من الحجاز ونجد ، كان من نتيجتها أن تزعزع الحلم الذي كاد يتحقق ، وهو توحيد جزيرة العرب. ولم تمضِ مدة طويلة على مجيء القائد السعودي ابن غردقة إلى عمان حتى قتل في إحدى المعارك ، مما حمل الأمير سعود بن عبد العزيز على إرسال مطلق المطيري مجدداً إلى عمان لمعالجة الموقف ، لكنَّ مطلقاً قتل هو الآخر بعد مضي فترة قصيرة في منطقة جعلان عام ١٢٢٨هـ/ ١٨١٣م في معركة جانبية صغيرة ، فشكل مقتل هذا القائد الشهير خسارة كبيرة للنفوذ السعودي في عمان.

لم يحلّ عام ١٢٢٩هـ/ ١٨١٤م ، حتى تعرضت الدولة السعودية إلى خسارة كبيرة بوفاة زعيمها الكبير الأمير سعود بن عبد العزيز. وفي ظل هذه الظروف بدأ حاكم مصر الألباني محمد علي باشا حملته الكبيرة؛ لتدمير الدولة السعودية ، فانشغل السعوديون بمدافعة قواته في الحجاز ، ثم في نجد بضع

سنوات ، إلى أن انتهى الأمر باستيلاء قائد القوات المصرية ـ العثمانية إبراهيم باشا على الدرعية عام ١٢٢٣هـ/ ١٨١٨م وتدميرها .

مهما يكن في أمر ، فإن الأوضاع التي أشرنا إليها قد انعكس أثرها على القوى المتصارعة في عُمان . فقد أدرك سلطان عمان سعيد بن سلطان ، بأن الظروف مواتية لإعادة العلاقات الطبيعية بينه وبين حليفه السابق شيخ الجبور محمد بن ناصر الجبري ، خصوصاً بعد أن تثبت له خلال السنوات الأربعة القاسية؛ التي مرت منذ ابتعاد شيخ الجبور وانضمامه إلى صفوف السعوديين؛ بأنه قد ارتكب خطأ سياسياً كبيراً عندما فرط بشيخ الجبور؛ لذا فقد قام سعيد بن سلطان بإرسال مندوب عنه؛ لاسترضاء الشيخ محمد بن ناصر الجبري ، وعرض عليه ما يريد من الأموال والحصون ، على أن يكف عن مساندة خصومه أياً كانوا ، فقبل شيخ الجبور بذلك .

ومما هو جدير بالذكر أن كيلي قد ذكر بأن الشيخ محمد بن ناصر الجبري ، كان قد سبق له أن تصالح مع سعيد بن سلطان بعد عودته من الدرعية ، وقتاله إلى جانب القوات السعودية ، وإن الذي دفعه إلى ذلك هو استنكاره لقسوة القائد السعودي مطلق المطيري ، ويضيف كيلي القول بأن سعيد بن سلطان أودع شيخ الجبور السجن فترة قصيرة ، ثم أطلق سراحه ، فما كان من الأخير إلا أن عاد مرة أخرى إلى صفوف السعوديين . إن مثل هذا القول من جانب كيلي ما هو إلا خلط بين الأحداث ، وإن ابن رزيق المصدر الرئيس والمعاصر للأحداث ، لم يذكر مثل هذا الأمر على الإطلاق .

إن شيخ الجبور لكي يثبت لسلطان عمان صدق موقفه الجديد ، استجاب لطلبه بالتصدي للقوات السعودية؛ التي ظهرت من جديد بقيادة بتال المطيري شقيق مطلق المطيري . ويبدو أن الشيخ محمد بن ناصر الجبري قد نجح في إقناع القائد السعودي الجديد بترك محاربة سلطان عُمان ، والانضمام إليه في تحالفه معه، حيث نرى أن شيخ الجبور قام بهدم حصن البريمي من دون مقاومة . لقد كان من نتائج ذلك أن ارتفعت منزلة شيخ الجبور عند سلطان عُمان ، وأخذت تزول من نفسه آثار صراعات الماضي؛ لذا فقد أكرمه غاية الإكرام .

ويذكر ابن رزيق بأنه عندما حارب سعيد بن سلطان عام ١٢٣٥هـ/ ١٨١٩ ـ ١٨٢٠م أحد الثائرين عليه في منطقة جعلان المدعو محمد بن علم ، تراجعت مهزومة جميع قوات سلطان عُمان ، بما فيهم الإنكليز الذين كانوا يحاربون إلى جانبه ، ولم يصمد معه في ميدان المعركة غير شيخ الجبور وأصحابه ، وبتال المطيري وأصحابه .

كما أننا نجد أن شيخ الجبور قد شارك سلطان عمان في الحملة الفاشلة ضد جزيرة البحرين عام ١٢٣٦هـ/ ١٨٢٠ ـ ١٨٢١م . ويقول ابن رزق: إن الشيخ محمد بن ناصر الجبري ، كان قد نصح سعيد بن سلطان بتأجيل هذه الحملة بعد أن أخذ الطاعون ينتشر بين جنود الحملة ، إلا أن سعيداً رفض ذلك . ولم تقتصر مواقف الجبور في إسناده ومؤازرته لسعيد بن سلطان على ذلك ، بل إنه أنقذ ملكه عدة مرات .

فعندما حاول حاكم صحار حمود بن عزان بن قيس استغلال تغيب سعيد بن سلطان عن ممتلكاته في زنجبار وشرق إفريقية ، وأخذ يمد نفوذه على لوى وشناص والخابورة في المنطقة الساحلية ، تزايدت المخاوف من احتمال قيام حمود أيضاً بالاستيلاء على مسقط؛ لذا فقد سارع الشيخ محمد بن ناصر الجبري لنجدة مسقط ، على رأس قوة تتألف من (١٥٠٠) رجل من أتباعه النزارية ، الذي كان قد وصف ولاءهم له بقوله: (النزارية ولا فخر يميلون حيث أميل) .

ما إن علم حمود بن عزان بذلك حتى خاف أن يؤدي إلى قيام القبائل النزارية في منطقة الظاهرة وواحات توأم بمناصرة شيخ الجبور ، ولقد تحقق تقدير حاكم صحار للموقف فعلاً ، حيث قامت قبائل بني نعيم بمهاجمة صحار وأتباع حاكمها ، وذلك بعد أن علموا بأن الشيخ محمد بن ناصر الجبري مترصد لحمود بن عزان في مسقط ، وكانت النتيجة أن ارتبكت خطط عزان تماماً .

على إثر وصول أنباء تمرد حمود بن عزان إلى سعيد بن سلطان ، عاد مسرعاً إلى مسقط ، والتقى بالشيخ محمد بن ناصر الجبري ، وأبدى شكره العميق له للموقف؛ الذي وقفه في الدفاع عن مسقط ، وتقديراً لهذا الجهد

أعطاه السلطان حصن سمايل ، كما عيَّن أخاه علي بن ناصر الجبري حاكماً على زنجبار؛ حيث مات فيها بعد أن حكمها مدة ثلاث سنوات .

لم يمكث السلطان سعيد طويلاً في مسقط ، بل عاد إلى زنجبار بعد اطمئنانه على استقرار الأوضاع ، لكن حاكم ميناء بركة المدعو سعود بن علي بن سيف قام باستدراج حاكم مسقط هلال بن السلطان سعيد ، واعتقله في بركة ، الأمر الذي أثار مخاوف شديدة لدى أسرة السلطان سعيد من احتمال قيام حاكم بركة باحتلال مسقط .

لذا سارعت موزة بنت الإمام أحمد بن سعيد ، وعمة السلطان سعيد؛ والتي ترتبط بالجبور من جهة أمها ، وصاحبة النفوذ الكبير في الأسرة البوسعيدية ، بالاستنجاد بالشيخ محمد بن ناصر الجبري؛ لحماية مسقط من الأخطار التي تتهددها ، فسارع شيخ الجبور مع أتباعه إلى مسقط ، وأحكم السيطرة عليها تماماً ، وعلى إثر ذلك سارع السلطان سعيد بالعودة إلى مسقط للإشراف بنفسه شخصياً على معالجة الموقف .

وقد تمت تسوية الأمر بالصلح مع المتمرد ، بعد أن قام شيخ الجبور بدور الوسيط والكفيل ، وذلك تلبية «لطلب المتمرد بنفسه» .

إن آخر دعم وإسناد قدمه شيخ الجبور قبل وفاته للسلطان سعيد ، هو أنه في عام ١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م وقف معه معظم القبائل النزارية ضد حمود بن عزان؛ الذي كان قد استغل الفتنة التي حدثت في الميثاق ، وقام بالاستيلاء عليها ، وقد فرض شيخ الجبري حصاراً شديداً على ميناء صحار معقل حمود ، مما أرغم الأمير على أن يسارع للمصالحة مع السلطان سعيد .

توفي شيخ الجبور محمد بن ناصر الجبري في ربيع عام ١٢٥٠هـ/ حزيران / ١٨٣٤م ، وهو يستعد للهجوم على الرستاق ، بعد أن علم أن سكان هذه المدينة يستعدون للقيام بتمرد ضد السلطان سعيد ، وذلك بالتعاون مع حمود بن عزان .

وبوفاة الشيخ محمد بن ناصر الجبري ، يكون السلطان سعيد بن سلطان

وأفراد عائلته ، قد فقدوا أقوى مناصريهم ، كما أن مسقط أيضاً تكون قد فقدت أقوى المدافعين عنها ، من احتمال استيلاء حمود بن عزان عليها ، بل إن وقوف شيخ الجبور بقوة إلى جانب السلطان سعيد ، قد أنقذ ملك الأخير من السقوط بيد خصمه العنيد حمود بن عزان .

إن النفوذ الواسع الذي كان يتمتع به الشيخ محمد بن ناصر الجبري في عهد السلطان سعيد ، والقوة الكثيفة التي تدين له بالولاء ، أديا في الواقع إلى إثارة مخاوف زعماء الإباضية عموماً ، من احتمال قيام شيخ الجبور بالاستيلاء على السلطة في عمان ، لقد عبر الزعيم الإباضي السالمي عن هذه المخاوف بقوله : «بأنه بعد ضعف ملك السلطان سعيد بن سلطان ، كان هناك خوف من أن يتولى السلطنة في عمان الجائر الظالم محمد بن ناصر الجبري ، فلا يؤمن منه إذا مَلَكَ في عمان أن يدعو الناس إلى مذهب الجور والعدوان» .

والذي يفهم من كلام السالمي ، إضافة إلى ما يتمتع به شيخ الجبور من نفوذ وقوة كبيرين ، فإنه كان قد بقي متعاطفاً مع السعوديين ، ولم يتخلَّ عن إيمانه بالأفكار السلفية؛ التي كان قد نادى بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، والتي سبق له أن تقبلها خلال زيارته للدرعية ، وقاتل من أجل كل ذلك إلى جانب القوات السعودية في عمان حتى سقوط الدرعية .

إن السالمي يصنف الشيخ محمد بن ناصر الجبري في موضوع آخر «بأنه جبار عنيد ، وهو على غير مذهب الحق» . كما أنه وصف مذهب شيخ الجبور في فقرة أخرى بأنه حنفي ، وربما أراد أن يقول بأنه حنبلي؛ لأنه قد استدرك فقال : «إن المشهور عند العامة أنه وهابي» .

إن في عبارات السالمي السالفة الذكر دلالة واضحة على كون شيخ الجبور محمد بن ناصر قد بقي على ولائه للسعوديين ، ولدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وأنه لم يتخلَّ عنها حتى بعد عودة العلاقة الحسنة بينه وبين سلطان عمان سعيد . ويمكن أن نستنتج من ذلك أن نفوذ السعوديين في عمان ، لم يختف أو يتلاشى بعد المصير المفجع الذي لقيته الدولة السعودية ، على يد

حاكم مصر الألباني محمد علي باشا؛ وذلك لبقاء شيخ الجبور ومعه أعداد كبيرة من قبائل عُمان على ولائهم لها.

انحلال نفوذ الجبور واختفاؤهم عن المسرح السياسي:

بعد وفاة الشيخ محمد بن ناصر بن محمد الجبوري ، انتقلت زعامة القبائل النزارية في عمان إلى ولده الشيخ جبر ، ثم أعقبه في هذه الزعامة علي بن جبر بن محمد الجبري.

حاول الشيخ علي بن جبر الجبري أن يقيم علاقة حسنة مع سلطان عُمان ، عزان بن قيس بن عزان بن قيس البوسعيدي (١٨٦٩ ـ ١٨٧١م) وقدم له بعض الخدمات ، كان من أبرزها حماية أتباع عزان من تعرض القبائل النزارية لهم ، لكن السلطان عزان كان قد أضمر الانتقام من الجبور ، وتجريدهم من السلطة والنفوذ ، فما أن ثبت في مركزه في السلطة حتى قام بانتزاع حصن أزكي من الشيخ علي بن جبير بن محمد الجبري ، كما أخذ ينكل بالجبور ويصادر أموالهم ، وكان من بين ما صادره الأموال التي خلفها الشيخ محمد بن ناصر الجبري.

والواقع أن تجرؤ السلطان عزان بن قيس على التنكيل بالجبور ، يدل على ضعفهم ، وانحلال أمرهم بعيد وفاة شيخهم الكبير محمد بن ناصر الجبوري ، وإن أسرة الشيخ الجبري التي وضعها السالمي بقوله: «كان لأهل هذا البيت شرف ورئاسة قبائل الغافري ، وكانوا يعتبرون لهم منزلة السلطنة ، قد أخذت بالضعف والانحلال ، حتى إننا لم نعد نجد لهم نشاطاً في عمان في الفترات التالية».

إن الكولونيل صموئيل بارت مايلز الذي عمل قنصلاً «عاماً» في مسقط في الثمانينيات من القرن التاسع عشر ، فحينما عدَّد قبائل عمان ذكر بأن الجبور يقيمون في وادي سمائل ، أي: مواطنهم السابقة ، أما سالم السيابي فحينما عدَّد قبائل عمان قسم الجبور إلى قسمين ، فالقسم الأول منهم قال عنهم: إنهم المحمد بن ناصر بن محمد بن سيف ناصر بن ناصر بن قطن بن هلال بن زامل الجبري العقلي ، أي: الفخذ الذي كانت زعامته في السابق تتركز في الأحساء.

أما القسم الثاني ، فقال عنهم: إنهم ذراري محمد بن ناصر ، ويقيمون في سمائل ، ولهم منزلة السلطنة في الوادي قديماً ، ومنهم سعيد بن علي بن جبر بن محمد بن ناصر[1].

* * *

(1) إسعاف الأعيان في أنساب أهل عمان ٥٦ ـ ٥٨.

محمد بن أجود بن جبر

محمد بن أجود بن جبر تولى بعد ابنه محمد ، ويظهر أن أجود تنازل عن الحكم له بعد أن كبر؛ لأننا نجد بعض المؤرخين ينعتونه بأنه سلطان البحرين في سنة اثنتي عشرة وتسعمئة؛ التي حج فيها والده. ومن أخبار محمد أنه في تلك السنة كثر عبث البدو القاطنين بقرب جدة ، وصادف ضعف الحكم في مكة بسبب الاختلاف الواقع بين الأشراف على الإمارة ، فصارت البادية تغير على جدة وتنهبها فسادت الفوضى ، واختل الأمن ، وساد الرعب في تلك الجهات ، فاستنجد شريف مكة بالدولة الجبرية ، فأنجدته ، فراح محمد على رأس خمسين ألفاً من جيوشه إلى بركات الشريف بالحجاز ، وعندما وصل الحجاز ، وصلته بشائر أن الضوضاء انتهت ، فردد قائلاً : (كفى الله المؤمنين القتال) نحن إن شاء الله حجاج. وبعدما حج وجد أن بركات الشريف يؤجر عرفات للمسلمين ، فاشتراها من بركات الشريف ، وجعلها سبيلاً للمسلمين ، وصرف كثيراً من الجواهر والدرر على سدنة مكة.

مقرن بن أجود بن زامل

مقرن بن أجود من أبرز رجال الأسرة الجبرية ، وفي عهده استولى البرتغاليون على أطراف مملكته ، وأنهم في إحدى المعارك بينهم وبينه ، في سنة سبع وعشرين وتسعمئة ، وقد أورد ابن إياس في كتابه «بدائع الزهور» أنه أشيع قتل الأمير مقرن أمير بني جبر ، ملك البحرين إلى بلاد هرمز الأعلى ، وكان أميراً جليل القدر معظماً مبجلاً في سعة المال ، مالكي المذهب ، سيد عربان الشرق ، أنفق على مكة والمدينة نحو خمسين ألف دينار ، فلما حج ورجع إلى بلاده لاقته الفرنج في الطريق ، وتحاربت معه ، فانكسر الأمير مقرن ، وقبضوا عليه ، وأسروه ، وقتلوه ، وملكوا جزيرة البحرين ، واستولوا

على أموال مقرن وبلاده ، وهم البرتغاليون.

أما جعيثن اليازيدي من شعراء العامية في زمانه ، فيقول في مدحه[1] :

أنـا لقيـت بـالـدار يـا نـاق مقـرن　　　وقـابلـت وجهـاً فيـه للحمـد شـاهـد

نشـأ بيـن سيـف الفـريـدي زامـل　　　فيـا لـك مـن عـم كـريـم ومـاجـد

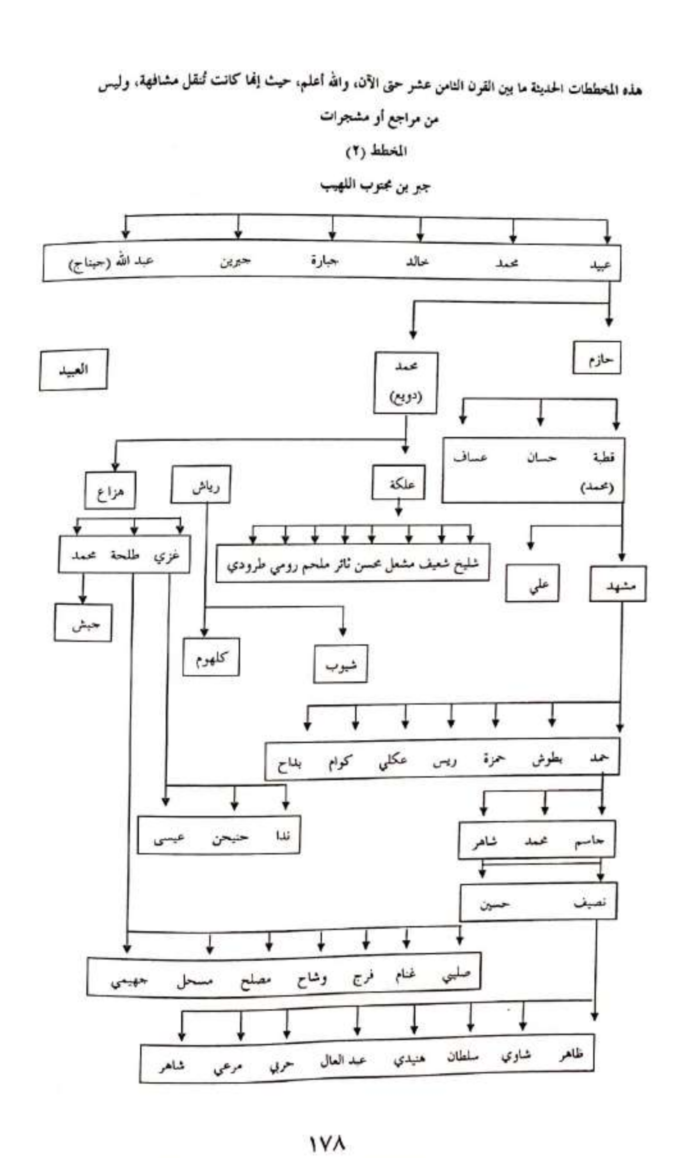
* * *

(١) المرجع نفسه ، ٦٠٦ .

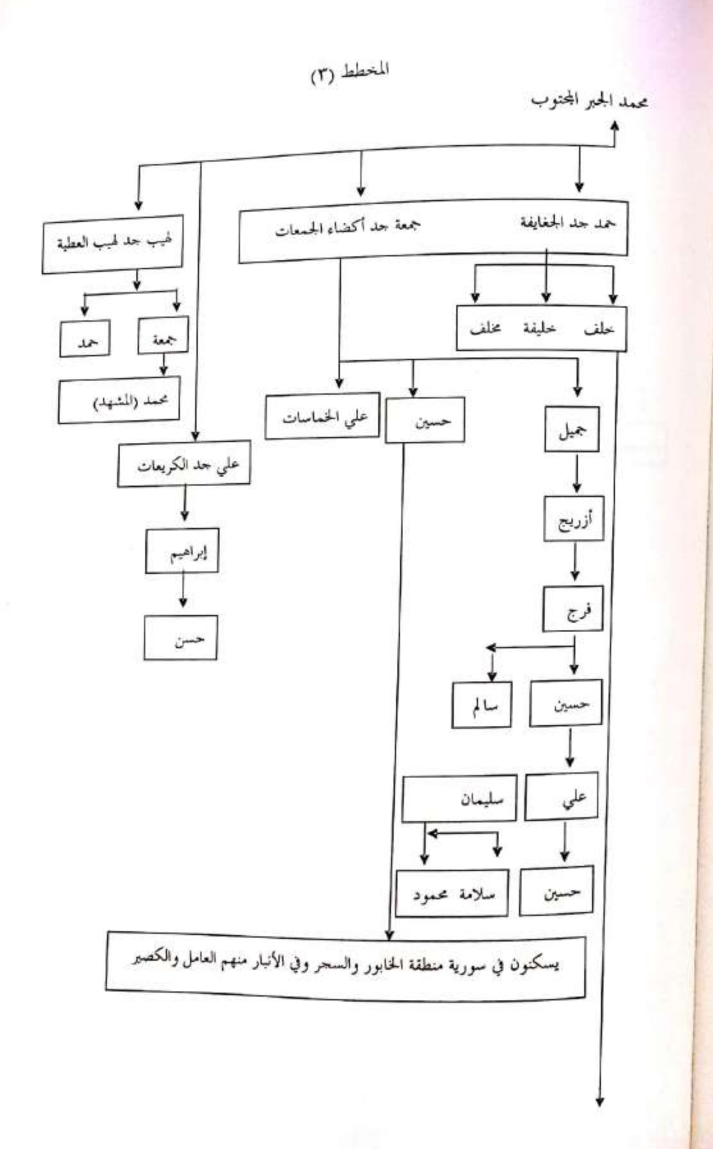
هذه المخططات الحديثة ما بين القرن الثامن عشر حتى الآن، والله أعلم، حيث إنها كانت تُنقل مشافهة، وليس من مراجع أو مشجرات

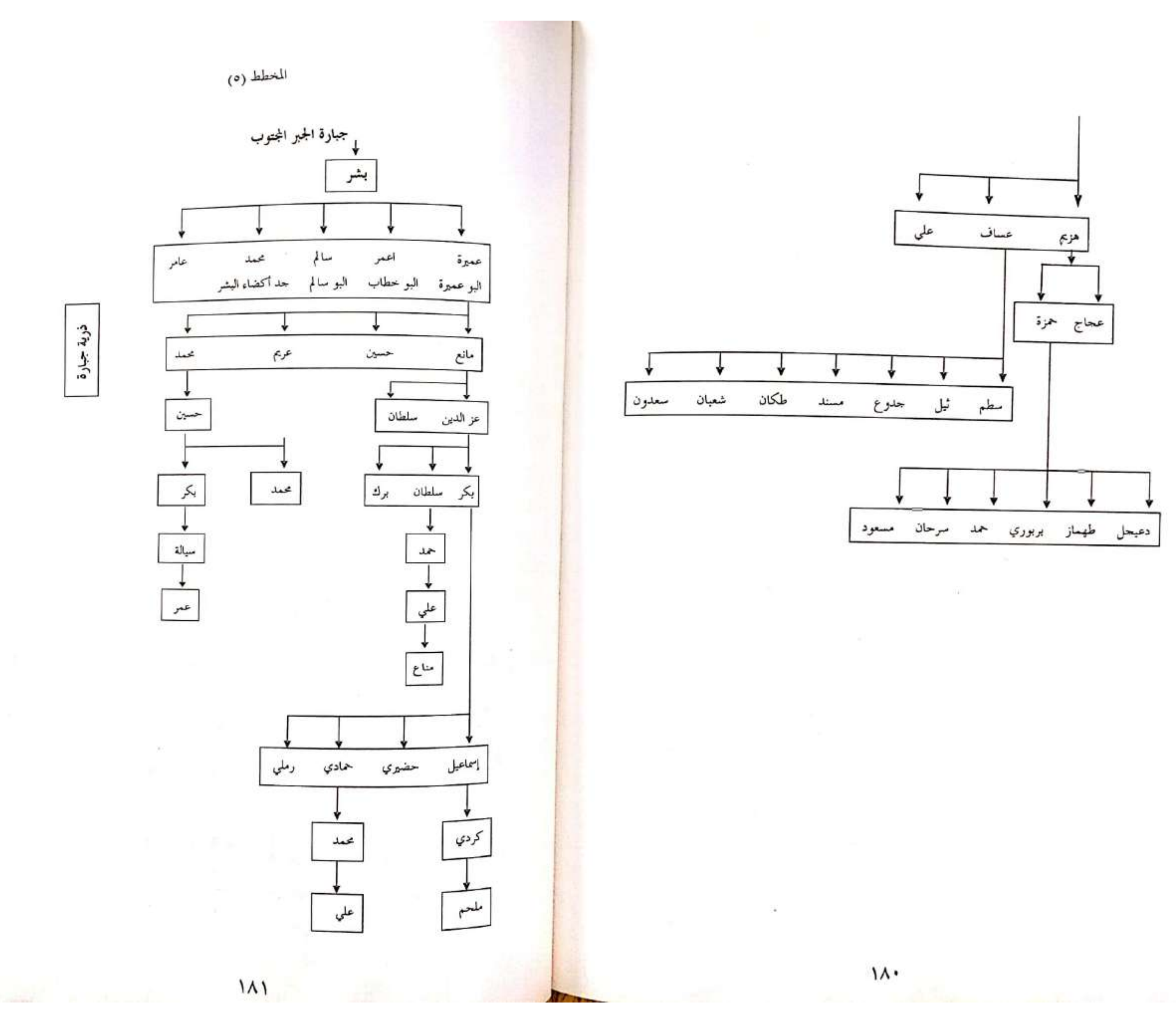
المخطط (٢)

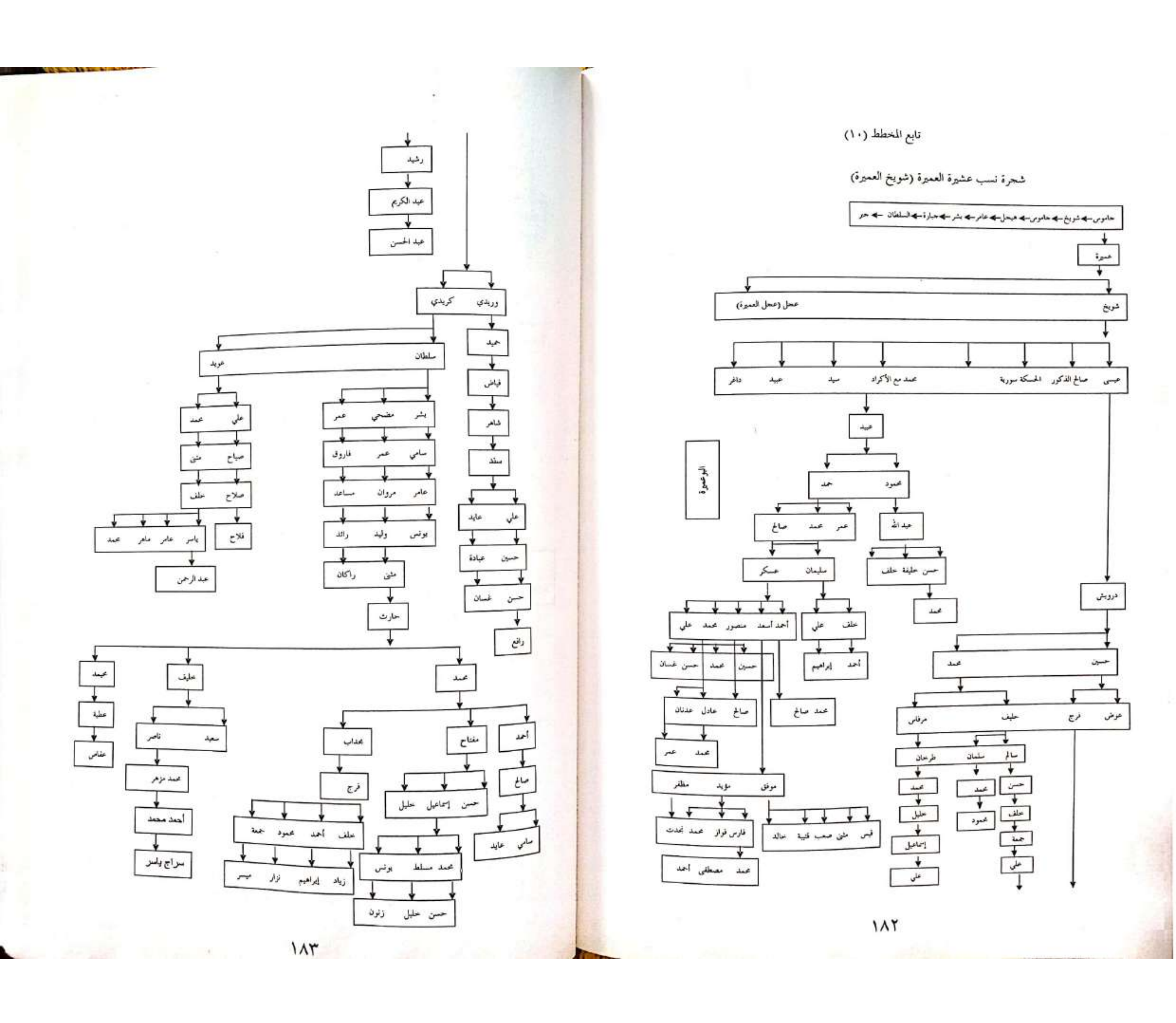
جبر بن مجتوب اللهيب



المخطط (٣)

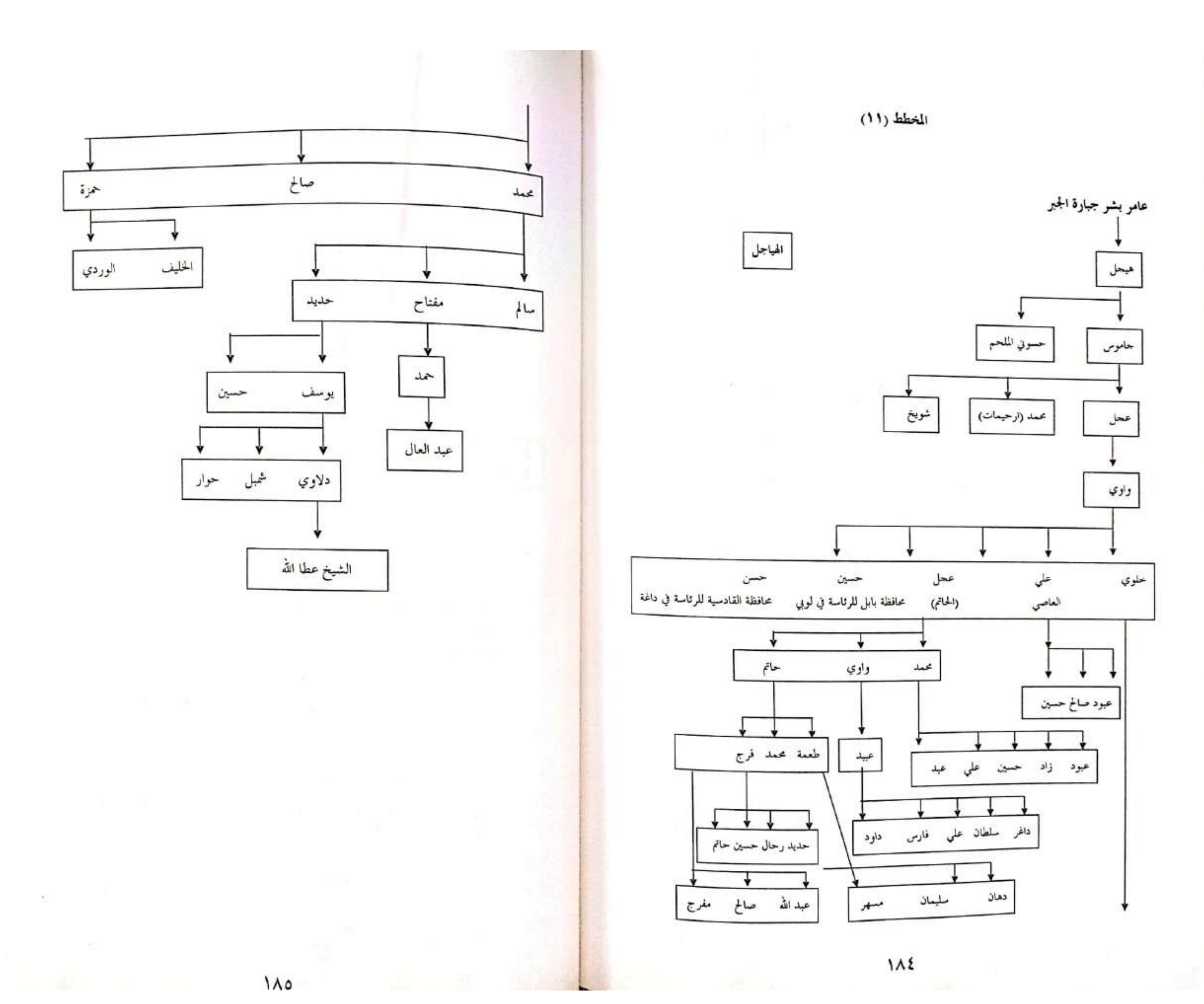


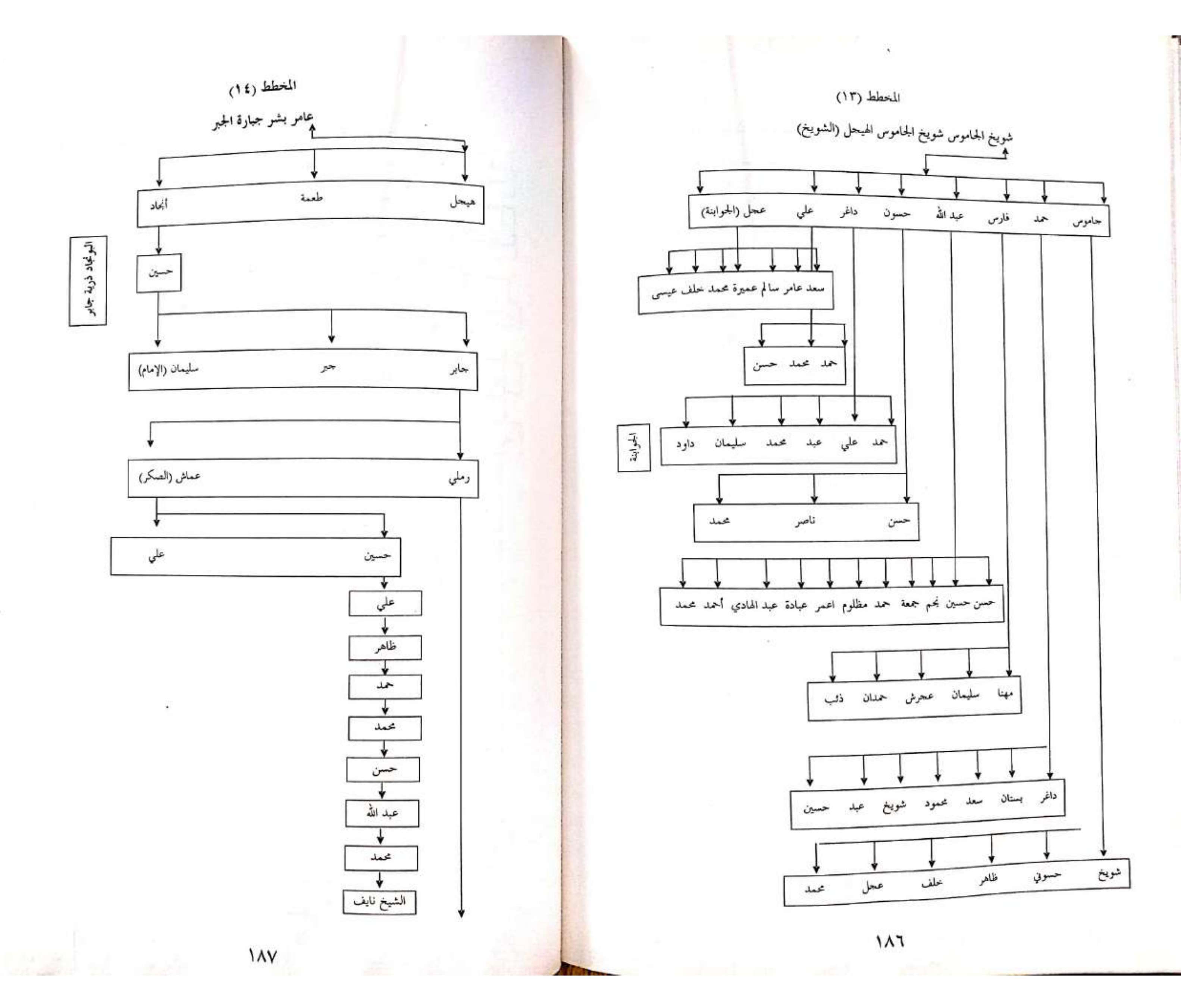

المخطط (٥)
ذرية جبارة
جبارة الجبر المجتوب
بشر
عميرة البو عميرة
اعمر البو خطاب
سالم البو سالم
محمد جد أكضاء البشر
عامر
مانع
حسين
عريم
محمد
عز الدين
سلطان
حسين
بكر
سلطان
برك
بكر
محمد
مبالة
عمر
حمد
علي
مناع
إسماعيل
حضيري
حمادي
رملي
كردي
ملحم
محمد
علي
هزيم
عساف
علي
عجاج
حمزة
سطم
ثيل
جدوع
مسند
طكان
شعبان
سعدون
دعيجل
طهماز
بربوري
حمد
سرحان
مسعود

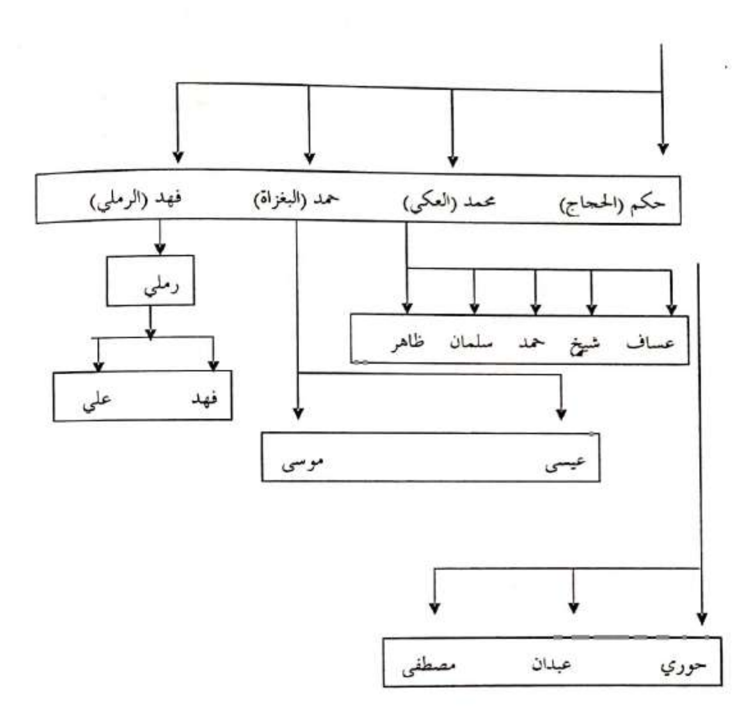


تابع المخطط (١٠)
شجرة نسب عشيرة العميرة (شويخ العميرة)
حاموس ← شويخ ← حاموس ← هيحل ← عامر ← بشر ← حبارة ← السلطان ← حر
حميرة
شويخ
عجل (عجل العميرة)
عيسى صالح الذكور الحسكة سورية محمد مع الأكراد سيد عبيد داغر
عبيد
محمود حمد
عبد الله
عمر محمد صالح
درويش
حسين محمد
عوض فرج حليف مرفاس
البوعميرة
رشيد
عبد الكريم
عبد المحسن
وريدي كريدي
حميد
فياض
شاهر
سلطان عويد
علي محمد
بشر مضحي عمر
حارث
محمد
١٨٢
١٨٣

المخطط (١١)

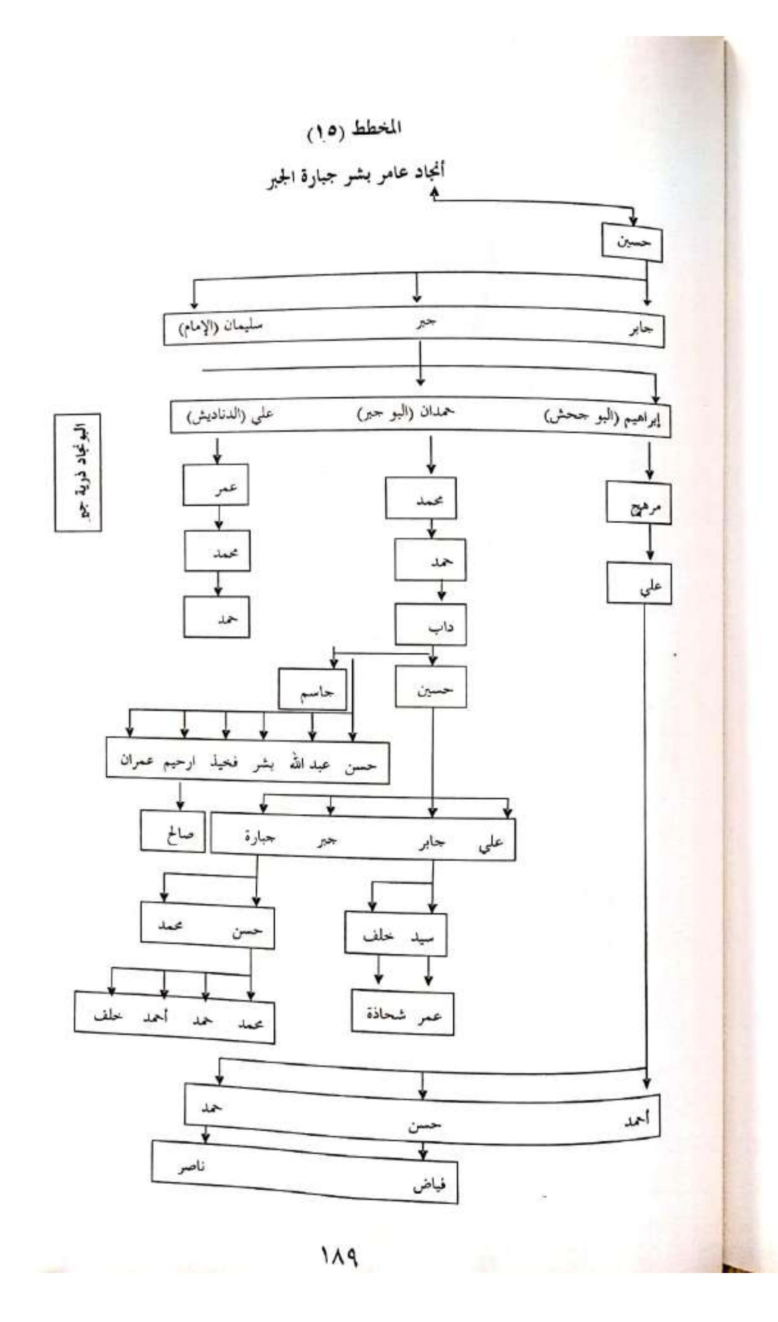

عامر بشر جبارة الجبر
الهياجل
هيحل
جاموس
حسوني الملحم
عحل
محمد (ارحيمات)
شويخ
واوي
حلوي
علي
العاصي
عحل
(الحاتم)
حسين
محافظة بابل للرئاسة في لوبي
حسن
محافظة القادسية للرئاسة في داغة
عبود صالح حسين
محمد واوي حاتم
عبود زاد حسين علي عبد
عبيد
طعمة محمد فرج
داغر سلطان علي فارس داود
حديد رحال حسين حاتم
دهان سليمان مسهر
عبد الله صالح مفرج
محمد صالح حمزة
الخليف الوردي
سالم مفتاح حديد
حمد
عبد العال
يوسف حسين
دلاوي شمبل حوار
الشيخ عطا الله


المخطط (١٣)
شويخ الجاموس شويخ الجاموس الهيحل (الشويخ)
جاموس حمد فارس عبد الله حسون داغر علي عجل (الجوابنة)
سعد عامر سالم عميرة محمد خلف عيسى
حمد محمد حسن
الجوابنة
حمد علي عيد محمد سليمان داود
حسن ناصر محمد
حسن حسين نجم جمعة حمد مظلوم اعمر عبادة عبد الهادي أحمد محمد
مهنا سليمان عجرش حمدان ذئب
داغر بستان سعد محمود شويخ عبد حسين
شويخ حسوني ظاهر خلف عجل محمد
١٨٦
المخطط (١٤)
عامر بشر جبارة الجبر
هيحل طعمة أبجاد
البوبجاد ذرية جابر
حسين
جابر جبر سليمان (الإمام)
رملي عماش (الصكر)
حسين علي
علي
ظاهر
حمد
محمد
حسن
عبد الله
محمد
الشيخ نايف
١٨٧



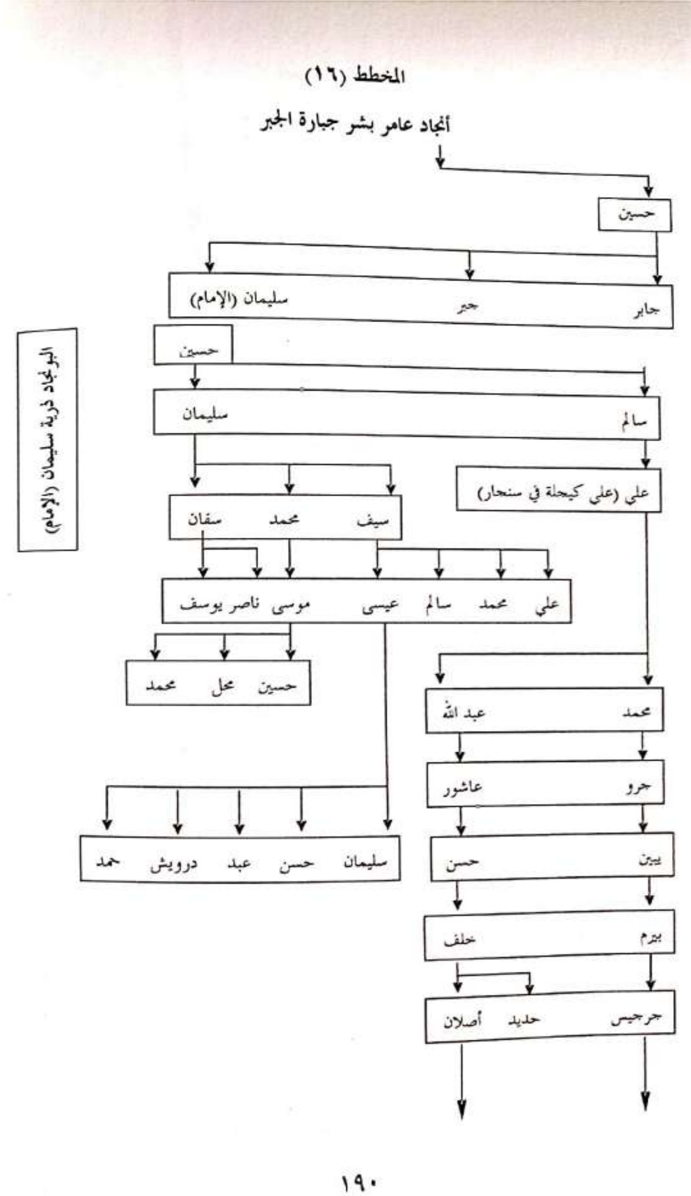
المخطط (١٥)

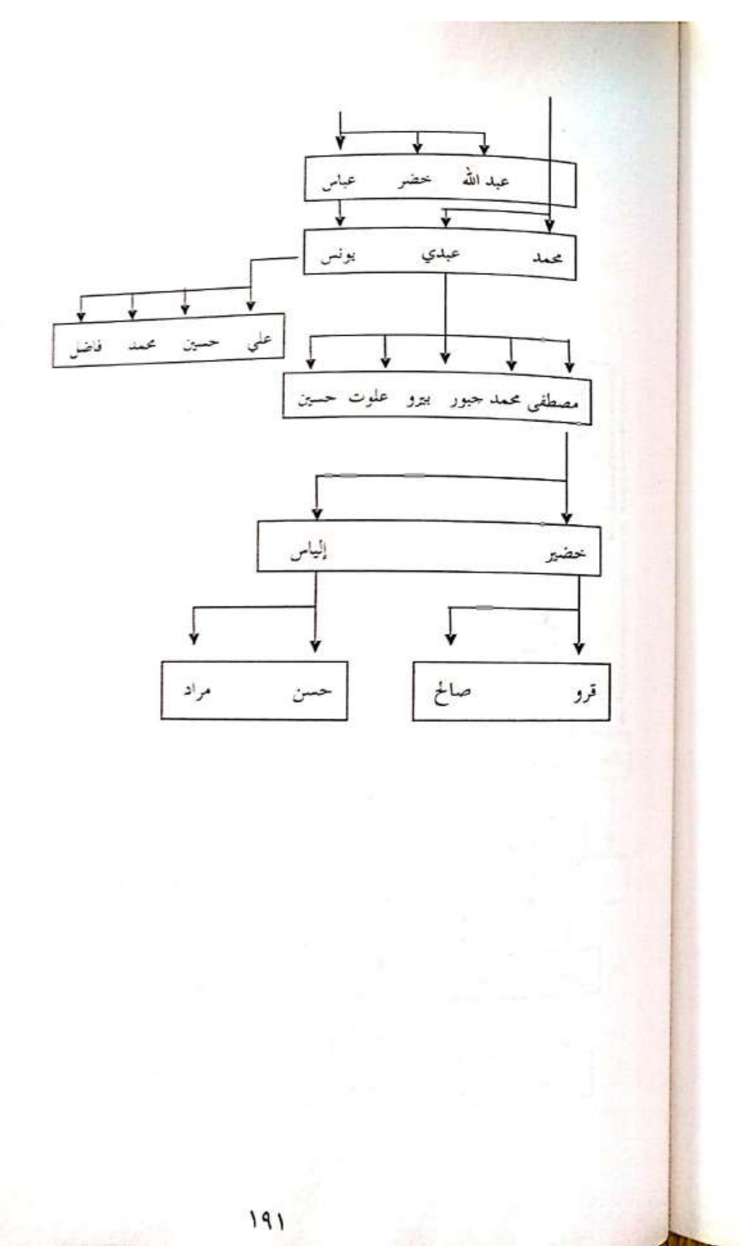
أمجاد عامر بشر جبارة الجبر

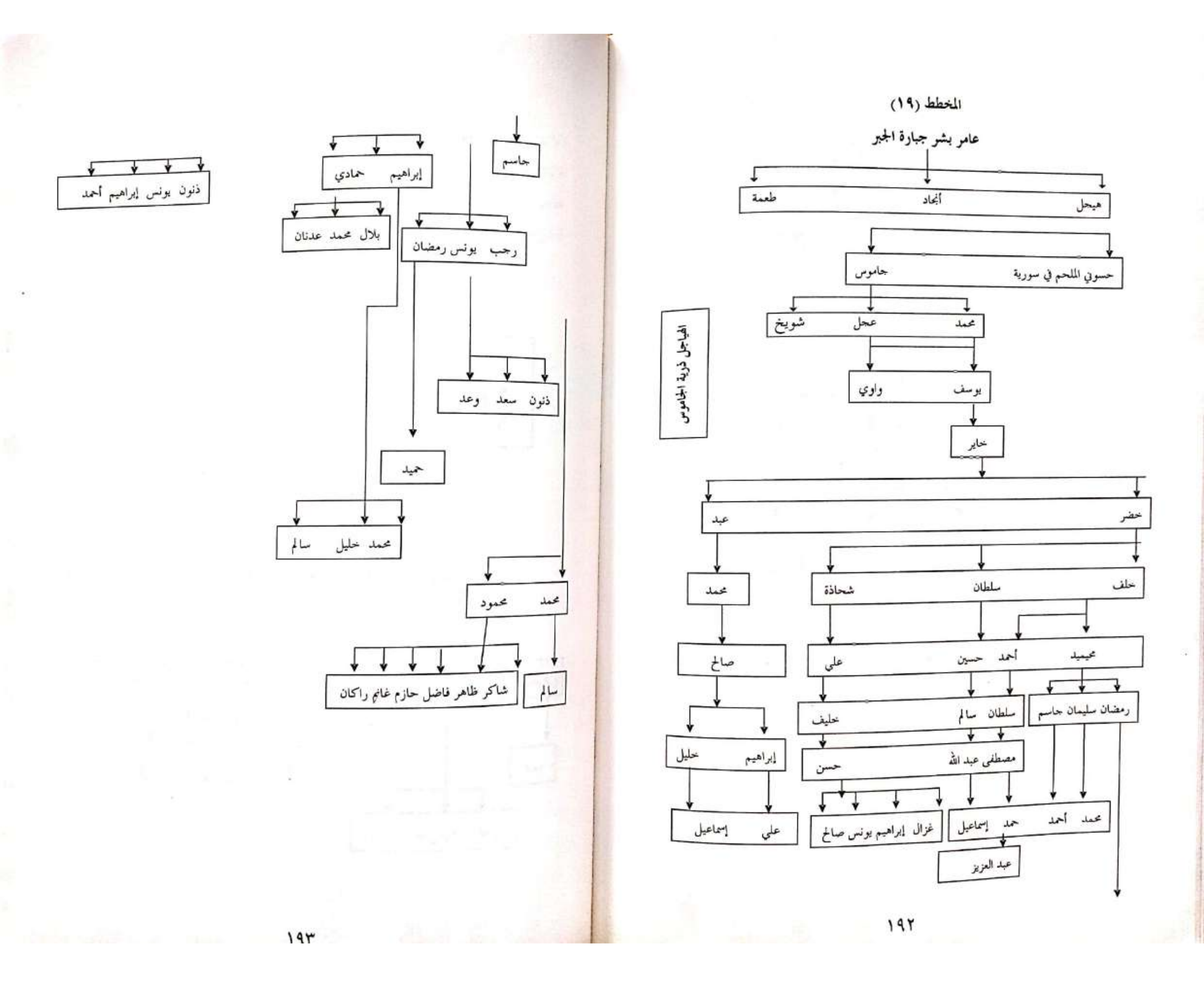


المخطط (١٦)

أمجاد عامر بشر جبارة الجبر

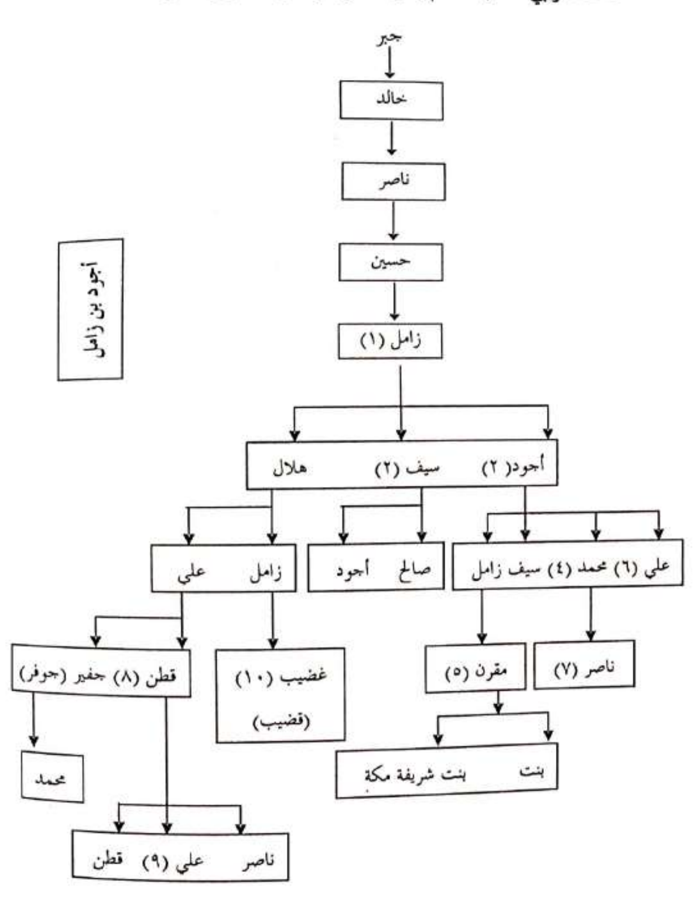





المخطط (١٩)
عامر بشر جبارة الجبر
هيجل أنجاد طعمة
حسوني الملحم في سورية جاموس
محمد عجل شويخ
يوسف واوي
خاير
خضر عبد
خلف سلطان شحاذة
محمد
محيميد أحمد حسين علي
صالح
رمضان سليمان جاسم
سلطان سالم خليف
إبراهيم خليل
مصطفى عبد الله حسن
محمد أحمد حمد إسماعيل
غزال إبراهيم يونس صالح
علي إسماعيل
عبد العزيز
الهجاجل قرية الجاموس
١٩٢
جاسم
إبراهيم حمادي
بلال محمد عدنان
رجب يونس رمضان
ذنون سعد وعد
حميد
محمد خليل سالم
محمد محمود
سالم
شاكر ظاهر فاضل حازم غانم راكان
ذنون يونس إبراهيم أحمد
١٩٣

المخطط (٢٠)

مخطط تقريبي لنسب حكام إمارة الجبور في شرق الجزيرة العربية



ويبدو لنا بأن الجبور قد اضمحل أمرهم تماماً؛ كقوة سياسية في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، وأصبح شأنهم شأن بقية القبائل العُمانية الكثيرة؛ التي لا تأثير لها في الحياة السياسية ، وبذلك انطوت صفحة قبائل بني عامر؛ الذين كانوا في السابق أكبر قوة سياسية ، على امتداد شرق الجزيرة العربية .

* * *

المصادر والمراجع

١ ـ معجم قبائل العرب ، لعمر رضا كحالة .

٢ ـ عشائر الشام ، لأحمد وصفي زكريا .

٣ ـ جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد ، للشيخ حمد الجاسر .

٤ ـ كنز الأنساب ومجمع الآداب ، للشيخ حمد الحقيل .

٥ ـ تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق ، للشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البسام .

٦ ـ عشائر العراق ، للمحامي عباس العزاوي .

٧ ـ معجم العشائر الفراتية ، لأحمد شوحان .

٨ ـ أصدق الدلائل في أنساب بني وائل ، لعبد الله بن عبار المعنى .

٩ ـ صقر الجزيرة ، لأحمد عبد الغفار عطار .

١٠ ـ جامع أنساب قبائل العرب ، للسلطان بن طريخم المذهن السرحاني .

١١ ـ العقود الدرية في تاريخ البلاد النجدية ، لمقبل الذكير .

١٢ ـ رفع النقاب ، تاريخ ابن ضويان .

١٣ ـ تاريخ شرقي الأردن ، لفردريك بك .

١٤ ـ مطالع السعود ، للشيخ عثمان بن سند .

١٥ ـ مقدمة لدراسة العشائر الأردنية ، لأحمد عويد العبادي .

١٦ ـ رحلة في بادية السماوة ، لرضا الشبيبي .

١٧ ـ عنوان السعد والمجد ، لعبد الرحمن بن ناصر .

١٨ ـ مثير الوجد في معرفة أنساب ملوك مجد ، لراشد الحنبلي .
١٩ ـ مسالك الأبصار ، لابن فضل الله العمري .
٢٠ ـ نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، للقلقشندي .

* * *

المحتوى





يسلط الكاتب في كتابه هذا الضوء على حياة البادية.

البادية.. ذات السهوب الشاسعة الواسعة المترامية الأطراف، والصحراوات الفسيحة المستوية كل الاستواء، تتشابه فيها المناظر، وتتخللها في بعض الأماكن المرتفعات، والهضبات الترابية المنفردة.

إنها البادية المتموجة بآكامها الصخرية؛ التي تتقطع، وتتسلسل، حيث تقع بين هذه الآكام أودية ومسايل جافة في معظم أيام السنة.

وللبادية تاريخ، وللتاريخ حكايا طوتها الصحراء حيناً، وروتها حيناً آخر، والبادية تطوي في أعماقها أسراراً، وتكشف أخرى. وهي أشبه بالبحر الخضم، امتدت أطرافه، وتباعدت جوانبه، فلا يدرك الناظر لها نهاية أو حدّاً.

والكثير من هذه الحكايا تجدها أخي القارى في هذا الكتاب.

ISBN 978-9933-11-385-8





دمشق - القاهرة - الشارقة

دمشق هاتف: 00963112248433 فاكس: 00963112248432 ص.ب: 31426

الشارقة هاتف: 0097165512262 فاكس: 0097165512264 ص.ب: 3309

Email: almaktabi@gmail.com

www.almaktabi.com

